منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية

٣

بشير

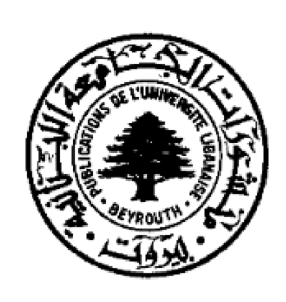
بين السلطان والعزيز

١٨٠٤ - ١٨٤١

للدكتور أسد رستم
أحد أساتذة التاريخ في الجامعة اللبنانية

القسم الثاني

الطبعة الثانية



بيروت

١٩٦٦

الفصل السابع

الاضطرابات والقلاقل

١٨٣٤ - ١٨٣٨

١ ــ المعارضة واختلف الشوام في موقفهم من خروج العزيز . فقام بعضهم يؤيده ويؤهل بقواته الفاتحة . وفي طليعة هؤلاء اللبنانيون من دروز ونصارى ونصارى سائر انحاء الشام وذلك لما كانوا يلاقونه من الظلم والاضطهاد على يد الولاة الاتراك . ومن هنا قول الشهابي الكبير الى رسول قائمقام الصدارة سنة ١٨٣٢ « عندما تسأل الدولة عن رعاياها تسأل الرعايا عن الدولة »[٣١١] . وهلّل وكبّر لقدوم هذه القوات الفاتحة نفر من الاعيان في المدن وامهات القرى لما كان قد اصابهم من التخاذل بوصول اخصامهم الى الحكم قبيل خروج العزيز على السلطان . ووقف معظم الشوام من اهل السنة والشيعة والنصيرية موقف المتفرج يضرعون الى الله ان يحفظ رؤوسهم واموالهم ويرددون القول المأثور « كل من اخذ امي صار عمي » . ولكن رهط الموظفين وقسماً كبيراً ممن عُني بالسياسة آثروا الوقوف الى جانب السلطان لانهم اخطأوا التقدير وظنوا انه ليس بامكان والٍ من الولاة مهما عظم شأنه ان يقاوم الدولة وينتصر عليها في النهاية . ومن هنا قول الدمشقيين الى ابراهيم باشا قبيل زحفه على بلدتهم : « لانه اذا اقدم افندينا من طرفنا قبل فتح عكة وصادف ان قدمت الجيوش الجرارة من الآستانة فلا شك ان دولة افندينا يرجع الى مصر ونصبح نحن بلا نصير فتصب السلطات التركية غضبها علينا »[٣١٢] . ووقف الى جانب هؤلاء وشدد عزائمهم

---

(٣١١) كتابنا الاصول العربية ج ١ ص ٩٨

(٣١٢) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٦ رجب ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١ ص ١٥١-١٥٢

السواد الاعظم من رجال الدين الذين رأوا في عمل العزيز خروجاً من الدين الحنيف فاستمسكوا بالآية : « يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » ورددوها بمناسبات عديدة . وقام كل من السلطان وعبدالله باشا يضرب على هذا الوتر نفسه . فقال السلطان في فرمان وجهه الى عثمان باشا والي طرابلس : « واتبع محمد علي باشا التسويلات الشيطانية ومال الى طريق الفساد والعناد وبحسب الشرع الشريف دخل في حكم الباغي »[٢١٣] . وقال عبدالله باشا في مرسوم وجهه الى اعيان القدس : « فلا يخفى ان هذا الخاسر معلوم حاله بارتكاب المنكرات والفضايح المغايرة للشريعة والسنة . فيلزم منكم بعد تلاوة بيورلدينا هذا تقرأوا الفاتحة الشريفة وتجلبوا الدعاء الخيري لحضرة مولانا السلطان . والعلماء منكم يخبروا العام بمضمون الشريعة المطهرة ان من يخرج على السلطان فقد خرج عن امر الله تعالى »[٢١٤] . وقال في رسالة له الى مصطفى اغا بربر محاولاً اجتذابه اليه : « وحيث انتم لله الحمد اهل ديانة وتقوى وعلى الخصوص من اعضاء الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم »[٢١٥] . ولمس عثمان باشا شيئاً من هذا عندما قابل المسلمين من حامية طرابلس فانهم رفضوا ان يصوبوا بنادقهم على عساكر السلطان واكتفوا باطلاقها في الجو[٢١٦] . ويلوح لنا ان العزيز نفسه توقع شيئاً من هذا عندما قال الى قنصل بريطانية سنة ١٨٢٧ بان تمسك الشعب بالدين يدفع به الى التخلي عن حاكمه ان هو وقع تحت حرم السلطان[٢١٧] . وقد حسب ابراهيم باشا لهذا كله حسابه فعارض في تجنيد الشوام في اوائل ايلول من السنة ١٨٣٢ وقال لوالده : « ان اهالي صيدا لم يدخلوا في طاعتنا من تلقاء انفسهم ولم يقدم الدمشقيون على هذا الامر نفسه الا بعد توغل جنودنا في بلدتهم وجنائنها . وكذلك اهالي حمص وحماة وحلب فانهم لم ينحازوا الى جانبنا الا بعد انهزام الجيش العثماني »[٢١٨] .

٢ ـ الظروف القاهرة ولم تحسم الحرب شيئاً من اسباب النزاع بين العزيز وبين السلطان. فالعزيز بقي والياً عادياً تجدد ولايته في مطلع كل سنة بأمر سلطاني والسلطان ظل خائفاً من هذا الوالي حاقداً عليه . فاضطر العزيز والحالة هذه ان يبقى

(٢١٣) المحفوظات ج ١ ص ١٤٨
(٢١٤) كتابنا الاصول العربية ج ١ ص ٦٦
(٢١٥) كتابنا الثورة بفلسطين ص ١٥
(٢١٦) غاية ذي القعدة سنة ١٢٤٧ : عابدين محفظة ٢٣٣ – اعمال الجيش .
(٢١٧) كتابنا الثورة بفلسطين ص ١٥–١٦
(٢١٨) المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٩٥

متهيئاً للحرب مستعداً لها ورأى ان يستغل فتوحاته لهذه الغاية فأمر باحتكار بعض البضائع وفرض نوعاً جديداً من الضرائب ونزع السلاح وجند الرجال وقلّم اظافر رجال الاقطاع فعمّ السخط جميع الطبقات .

وتفصيل ذلك انه منذ اواخر اذار سنة ١٨٣٣ وقبل الوصول الى التفاهم في كوتاهية أمر العزيز محمد منيب افندي ان يصادر البضاعة في ايالة صيدا التي لا يجوز بيعها الا بمعرفة « الميري » كالكتان وبذوره والعصفر والنيلة والحناء والخيط والافيون وان يلقي القبض على اصحابها[٣١٩] . فافاد محمد منيب افندي بعد خمسة عشر يوماً : « انه ارسل خطابات شديدة اللهجة الى بعض المتسلمين يحتم فيها ايقاف تهريب الكتان والعصفر والنيلة والحناء والسمسم وغيره من الحبوب التي تباع لحساب الميري[٣٢٠] . وفي منتصف حزيران من السنة نفسها أمر العزيز بابتياع جميع محصول الحرير في بر الشام[٣٢١] وباحتكاره ثم عدل عن ذلك « خوفاً من ازعاج التجار والفلاحين » ولا سيما اللبنانيين منهم واكتفى بتحديد السعر لابتياع ما يلزم منه لمصانع الحكومة[٣٢٢] . ولا غرو فموسم الحرير في لبنان آنئذ كان اعظم المواسم وعليه المعوّل والاحتكار كان من شانه ان يقلب الاسعار قلباً لصالح الحكومة فيؤدي الى نقص كبير في دخل الفلاح والتاجر . قال ابراهيم باشا في موافقته على احتكار البن في منتصف آب من السنة ١٨٣٣ بوجوب رفع سعره من غرشين الى سبعة عشر غرشاً في الاقة الواحدة[٣٢٣] .

وفرض العزيز في الوقت نفسه اي في منتصف السنة ١٨٣٣ نوعاً جديداً من الضرائب عُرف بالفردة ولعلها الفرضة وذلك على الذكور المراهقين كافة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم وجعلها تتفاوت بتفاوت الثروة من خمسة عشر غرشاً الى خمس مئة غرش في السنة . وتفاوتت في لبنان من عشرة غروش الى مئتين وخمسين غرشاً . وعُدت النفوس لهذه الغاية وسُجلت في دفاتر معينة وجُبيت الفردة بموجبها[٣٢٤] . فنفر الناس منها وهاجوا .

ورأى العزيز ان يستغل مورداً اخر فأحصى جميع الاقطاعات العسكرية وأبقى التيمارات

---

(٣١٩) المحفوظات ج ٢ ص ٢٨٥

(٣٢٠) المحفوظات ج ٢ ص ٢٩٦

(٣٢١) المحفوظات كذلك ج ٢ ص ٣٣٠

(٣٢٢) المحفوظات ج ٢ ص ٤٠١

(٣٢٣) المحفوظات ج ٢ ص ٣٤٩

(٣٢٤) المحفوظات ج ٢ ص ٣٤٤ راجع ايضاً حروب ابراهيم باشا المصري للقس انطون الحلبي ج ١ ص ٣٣-٣٥

القديمة بيد اصحابها وجعل المستجد منها قيد الدرس ثم منع المحاكم الشرعية عن تصديق بيع المالكانات السپاهية وشرائها قبل استشارة عماله وذهب الى ابعد من هذا فمنع القضاة عن اتخاذ اي قرار شرعي في توجيه المقاطعات والزعامات والتيمارات وعن الاتصال في مثل هذه الامور بالآستانة قبل موافقة الحكمدار محمد شريف بك[٣٢٥]. فخشي اصحاب هذه الاقطاعات سوء العاقبة وظنوا ان العزيز يرمي الى الاستئثار بموارد رزقهم كما سبق له ان فعل في مصر في بدء عهده. وكان العزيز يثير في الوقت نفسه (١٨٣٣) مخاوف اصحاب الاوقاف القديمة والحديثة فامر الشيخ صالح التميمي في القدس مثلاً ان يبرز اوراقه ومستنداته ليثبت حق آل التميمي بوقف تميم الداري صاحب الرسول[٣٢٦]. وهلم جرا.

٣ ــ الشغب في فلسطين

وكانت ظروف الفتح قد قضت بتقسيم المناصب السياسية في فلسطين وتوزيعها على الوجه التالي: بلدة نابلس وبلاد المشاريق في عهدة الشيخ محمد قاسم وبلاد جبل نابلس في عهدة الشيخ محمود عبد الهادي والشيخ يوسف بن قاسم الاحمد والشيخ عبدالله الجرار والشيخ يوسف والشيخ عبد الوهاب الجيوسي. ثم أُجريت بعض التعديلات فعُين الشيخ حسين عبد الهادي مديراً على ايالة صيدا وجُعل اخوه الشيخ محمود متسلماً على يافه وابنه الشيخ سليمان متسلماً على جنين. وصار الشيخ قاسم الاحمد متسلماً على القدس وابنه الشيخ محمد متسلماً على نابلس ومشاريقها وابنه الثاني الشيخ يوسف متسلماً على جماعين فتساوى الفريقان الكبيران بالغنم وعمّ الهدوء البلاد باسرها. ولكن آل عبدالهادي طمعوا بمتسلمية نابلس لتوطيد مركزهم فيها فاستحصلوا على امر من الحكمدار محمد شريف في اوائل تشرين الاول من السنة ١٨٣٣ بتنحية الشيخ قاسم الاحمد عن متسلمية القدس «نظرًا لتقدمه في السن» وبتحويلها الى عهدة ابنه الشيخ محمد القاسم. فشغرت متسلمية نابلس واحيلت الى عهدة الشيخ سليمان عبد الهادي ابن الشيخ حسين المشار اليه آنفاً[٣٢٧]. فثار ثائر آل القاسم واستشاطوا غيظاً وقاموا يبثون روح التمرد والعصيان. ولدى عودة الشيخ محمد القاسم من الحج في اوائل السنة ١٢٥٠ (١٨٣٤) عقدوا اجتماعاً في بيت وزن حضره اكثر شيوخ البلاد الساخطين منهم الشيخ عبدالله الجرار والشيخ عيسى البرقاوي والشيخ ناصر المنصور والشيخ عيسى القدومي فاتفقوا على التمرد ولكن الشيخ عيسى القدومي نصحهم بعدم اللجوء

(٣٢٥) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٣٦٣ و٣٩٠ و٣٩٢ و٤٠١

(٣٢٦) المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٥

(٣٢٧) تجد النصوص اللازمة في تاريخ جبل نابلس لاحسان النمر ص ٢٥٠-٢٥٢

الى العنف[٣٢٨] . وحذا حذوه احمد اغا النمر فلس الشيوخ المتآمرون معارضة في جبل نابلس وقاموا الى جبل القدس لاعلان عصيانهم فيه واستغلال تذمر اهاليه كما تقدم شرحه اعلاه .

ويلوح لنا ان بعض اصلاحات العزيز كانت قد شملت القبائـل الرحل في بادية الشام وحوران وشرقي الاردن واوجبت تعدادهم وتنظيم دفاتر بهم ومنع دفع « الصرر » اليهم من خزينة الشام[٣٢٩] . ولعله أمر ايضاً بنزع سلاحهم فهاجوا وماجوا وكثرت تعدياتهم . والواقع ان العزيز شكا عربَ عنزه الى محمد رشيد باشا في منتصف ايار من السنة ١٨٣٤ وتلقى في الوقت نفسه خبر عصيان عرب الكرك والخليل[٣٣٠] . وقد يكون هذا هو السبب الاساسي الذي ادى الى قيام ابراهيم باشا الى فلسطين ووصوله الى القدس قبل العشرين من نيسان من السنة نفسها[٣٣١] .وقد يكون اختلاف الطوائف المسيحية حول حقوقهم في الاماكن المقدسة من اسباب توجه السر عسكر الى القدس[٣٣٢] . هذا ولا يستبعد ايضاً ان يكون الشيخ حسين عبد الهادي مدير ايالة صيدا قد نقل الى رئيسه السرعسكر ما كان يتمخض به جبل نابلس .

وعلى كل فاننا نرى ابراهيم باشا مستقراً في القدس في النصف الثاني من شهر نيسان ينظر في اختلاف النصارى ويُعلن عزمه على تنفيذ اوامر والده فيما يتعلق بالتجنيد الاجباري فيستدعي اليه زعماء جبال القدس والخليل ونابلس وينقل اليهم رغبته في التجنيد فيوافقون عليها ويقوم هو الى يافه لتنفيذ الاوامر نفسها فيها[٣٣٣] . وما ان وصل اليها حتى اتصل به كل من اللواء ابراهيم بك قائد الاي المشاة الثالث عشر المرابط في القدس ومتسلم القدس يعلمانـه برجوع الزعماء عن وعدهم وباعتذارهم عن تقديم اولادهم واولاد الفلاحين للخدمـة وانهم يعارضون كل المعارضة في تسليم سلاحهم[٣٣٤] .ثم كتب اليه ابراهيم اغا متسلم الخليل ومصطفى اغا بكباشي الاورطة الرابعة من الالاي المرابط في القدس يخبرانه بقتال جرى في « فاتح صدره » بالقرب من قرية سعير في جبل الخليل بين رجال الاورطة الرابعة هـذه وبين عرب التعامرة واهالي سعير[٣٣٥] . وبعد ثلاثة ايام اي في الخامس والعشرين من شهر ايار من السنة

---

(٣٢٨) المؤلف نفسه ص ٢٥٢

(٣٢٩) المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٢ و٣٨٣

(٣٣٠) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٣٩٦–٣٩٨

(٣٣١) المحفوظات ج ٢ ص ٣٩١

(٣٣٢) المحفوظات ج ٢ ص ٣٩٧

(٣٣٣) جرمانوس بحري الى سامي بك ١١ محرم ١٢٥٠ (١٨٣٤) : المحفوظات ج ٢ ص ٣٩٧

(٣٣٤) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٣٩٧

(٣٣٥) المحفوظات ج ٢ ص ٣٩٨

نفسها وردت رسالة ثانية من اللواء ابراهيم بك قائد الالاي المرابط في القدس تفيد ان الفلاحين تجمعوا في قرية البيره وتوجهوا منها الى قرية العنب (قرية ابي غوش) لحصر حامية القدس ومنع المدد عنها من يافه مقر السرعسكر . وأشار اللواء ايضاً الى تجمع الفلاحين في قرية الشيخ بدر وهجوم ابن سمحان وابن ابي غوش وبني حسن على مواشي القدس في محلة باب العمود ورجا السرعسكر ان يوافيه بقوة من الفرسان لمطاردة الثوار وتعقبهم . وكان ابراهيم باشا قد شعر بهذا النقص فامر القائمقام يعقوب اغا ان يقوم بالاي الفرسان الثاني عشر من الرملة في الساحل الى القدس ففعل . ولكن لدى وصوله الى باب الواد — طريق يافه القدس — هبّ لصده وقتاله جمهور من الفلاحين كانوا قد اختبأوا خلف صخور هذا الوادي ووراء اشجاره . فجرت بين الفريقين معركة بين قرية سرّيس وقرية عين شمس اسفرت عن تراجع المصريين الى الرملة بعد ان ضلّوا الطريق تاركين قسماً من خيولهم وعدداً من القتلى والجرحى فاستغنى السرعسكر عن خدمات يعقوب اغا في بر الشام وأمره بالعودة الى مصر. وكتب الى والده بما جرى طالباً المدد ولاسيما الاي الغارديا الثاني . وكان قد استقدم اليه الايي المشاة الثامن والتاسع عشر[٣٣٦] .

وفي الرابع من حزيران عاد فكتب السرعسكر من يافه الى والده يشير الى القلق الذي ساور الحضرة الخديوية من جراء حوادث فلسطين ويؤكد ان ما جرى هو لمجرد التخلص من التجنيد وان جبل القدس «خرقة بالية» لا اهمية له وان الداعي لتأخره عن ضرب الاشقياء هو قلة المياه في معاقلهم وقلة الزمزميات لدى العساكر وانه أمر باعداد الزمزميات اللازمة ولدى اكتمالها سيقضي على الفتنة في وقت قصير . ثم قام بعد يومين لمطاردة الثوار متجهاً نحو القدس وسالكاً الطريق نفسها التي سلكها يعقوب اغا من قبله . فشق طريقه رغم مقاومة الثوار العنيفة في محلات ثلاثة مسقطاً منهم حوالى سبع مئه ووصل الى القدس منتصراً مصمماً ان يقوم منها الى جبل الخليل[٣٣٧] . وما ان دخل القدس بعد يومين من قيامه من يافه حتى شعر بنقص في المياه و«الميره» فيها وبحاجة الى الرجال والذخيرة . ثم فاجأه ناصر المنصور ورجاله بوصولهم الى قرية شعفاط فخرج السرعسكر لصدهم وتغلب عليهم مسقطاً منهم خمس مئة وطارد ثوار الخليل فاسقط منهم في بيت جالا وبيت لحم ثمانين نفراً[٣٣٨] .

---

(٣٣٦) المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٣٩٩ و ٤٠٠ و ٤٠٢

(٣٣٧) المحفوظات ج ٢ ص ٤٠٢ و ٤٠٤ — ٤٠٥ اطلب ايضاً كتاب المذكرات التاريخية للخوري قسطنطين الباشا ص ١٠١—١٠٢

(٣٣٨) المحفوظات ج٢ ص ٤٠٤—٤٠٦

وكان الالاي التاسع عشر قد قام من دمشق ملبياً نداء القيادة ومتجهاً نحو يافه فالقدس ولدى وصوله الى مرج ابن عامر في منتصف حزيران تصدى له الثوار بالقرب من زيتون فشتتوا شمله وجرحوا قائده مصطفى بك ولم يصل منه الى حيفا اكثر من ثلاث مئة نفر من مجموع قدره الف ومئتا رجل[٢٣٩] . فعمت الثورة البلاد باسرها من صفد حتى غزة . وكتب جرمانوس بجري من يافه الى سامي بك يقول : « الامور عمال كل يوم تتجسم وجميع اهالي القرايا الى حد بوابة يافه اظهروا العصاوة »[٢٤٠] .

وكتب العزيز في السابع عشر من الشهر نفسه الى ابنه يحيط علماً بوصوله الى القدس ويفيد انه اصدر الاوامر اللازمة لاعداد النجدة المطلوبة وارسالها بسرعة ثم يشعر بعزمه على مرافقة هذه النجدة ويامل الوصول الى يافه في ظرف ستة ايام . وعاد الى الكتابة في اليوم التالي طالباً الى السرعسكر ان يبقى في محله ريثما يلتقيان ويدرسان الموقف معاً[٢٤١] . ورأى السرعسكر ان يتولى سليم باشا قيادة القوة المقاومة من مصر وان يقوم بها وباورطتي الفرسان الباقيتين في يافه وثلاثة مدافع الى قرى الشيخ قاسم الاحمد في جبل نابلس وان يقوم ختتان اغاسى بمن معه من فرسان العرب الى جنين للاتصال بسليم باشا[٢٤٢] . وكان الشيخ قاسم هذا قد استمال جميع اهالي جبل نابلس الى جانبه فزحف بهم على القدس . وما ان وصل بجموعه الى قرية لفته حتى تصدى له السرعسكر بالفين من عساكره ومدافع اربعة فانتصر عليه وشتت شمله . ثم صده ثانيةً عند دير مار الياس طريق بيت لحم ثانيةً وثالثةً عند عين سلوان . ولكنه لم يرَ بداً من المفاوضة نظراً لقلة الذخيرة لديه فقبل توسط « الرهبان والافندية » ورفع الفردة واوقف التجنيد ولكنه اشترط احتلال القلعة وتقديم مئة وخمسين غرارة من القمح لها فوافق الثوار على ذلك ومثل الشيخ قاسم بين يديه فعينه « حاكماً على البلاد » وانتهى الحصار[٢٤٣] وكان ذلك في السادس والعشرين من حزيران .

وفي مطلع تموز من السنة نفسها (١٨٣٤) وصل العزيز الى يافه على راس نجدة قوية فكتب

---

(٢٣٩) المحفوظات ج٢ ص ٤٠٨

(٢٤٠) المحفوظات ايضاً ج٢ ص ٤٠٧

(٢٤١) المحفوظات كذلك ج٢ ص ٤٠٧

(٢٤٢) علي بك وقوجه احمد اغا وفرهاد بك الى محمد علي باشا ١١ صفر سنة ١٢٥٠ (٢٠ حزيران سنة ١٨٣٤) : المحفوظات ج ٢ ص ٤٠٩

(٢٤٣) المذكرات التاريخية المشار اليها ص١٠٧-١٠٨ راجع ايضاً حروب ابراهيم باشا المصري للقس انطون الحلبي ج ١ ص ٤٠-٤١ والمحفوظات ج ٢ ص ٤١١ و٤١٥-٤١٦

الى ابنه يستدعيه اليه وطلب الى امير لبنـان بشير الثاني ان يحضر الى يافه للتداول معه بشؤون فلسطين فهب السرعسكر للقاء والده واوفد امير لبنان نجله الامير امين الى يافه للمثول بين يدي العزيز معلناً انه بعد التداول مع اللواء بحري بك (يوحنا بحري) رأى ان المصلحة تقضي ببقائه في لبنان « للمحافظة والملاحظة » وانه على كل حال مستعد متأهب « للثم الاذيال »[٣٤٤] . ولدى وصول الامير امين الى يافه وتشرفه بالمثول بين يدي الحضرة الخديوية اجتمع به في خلوة زهاء ساعتين او اكثر ثم عاد الى والده يوجب الزحف على صفد لاخماد الفتنة فيها[٣٤٥] .وكان قد سبق لاعيان هذه البلدة ان اتصلوا بالامير خليل الشهابي اخي الامير أمين وذلك في التاسع عشر من حزيران « متوكلين على من التحريك والتسكين بيده » معلنين قيامهم على الحكومة المصرية راجين « جواباً شافياً »[٣٤٦] .فزج الشهابي الكبير والد الامير خليل حامل هذه الرسالة في السجن ورد عليها بالتهديد والوعيد[٣٤٧] . وبعد ان عاد ابنه الامير امين اليه قام الى جسر القعقعية ببضعة الاف مقاتل لبناني ودعا الصفديين للطاعة فاوفدوا الشيخ صالح الترشيحي اليه يفاوضه وخلدوا الى السكينة فارسل الامير اللبناني قوة الى صفد لاحتلالها وعين محافظاً عليها وفعل مثل ذلك لجميع قرى الشاغور والجبل وساحل عكة والقى القبض على اثنين وعشرين من وجوه صفد الذين « كانوا مبدأ الشقاوة والفساد ووضعهم بالسجن وطالبهم بما سلبوه من اموال اليهود ».وارسل ايضاً نحواً من عشرين نفراً من اهالي الشاغور والجبل والساحل الى سجن عكة . ثم مثل بين يديه وجوه طبرية مقدمين الطاعة والخضوع فارسل قوة الى بلدتهم وعين محافظاً عليها . وكتب الى الحضرة الخديوية في الخامس والعشرين من تموز ينبئه «بانقطاع دابر الفساد ودخول الرعب والارهاب. الى قلوب الجميع من رضيع ووضيع »[٣٤٨] .

ولما عاد قاسم الاحمد وجماعته الى نابلس بعد الاتفاق الذي تمّ بينهم وبين ابراهيم باشا في القدس اغتروا بما اصابهم من نصر وظنوا ان السرعسكر لن يقوى عليهم فامتنعوا عن تقديم القمح المتفق عليه وطردوا عمال السرعسكر الذين ارسلوا لجمعه قائلين انه ليس لديهم سوى

---

(٣٤٤) المحفوظات ج ٢ ص ٤١٤ و٤١٩

(٣٤٥) اطلب التفاصيل في كتابنا الثورة بفلسطين ص ٦٨-٦٩

(٣٤٦) المرجع نفسه ص ٥٤-٥٥

(٣٤٧) المحفوظات ج ٢ ص ٤١١

(٣٤٨) المحفوظات ج٢ ص ٤٣٠ . حروب ابراهيم باشا المصري ج ١ ص ٤١ و٤٥ الثورة بفلسطين ص ٧٥-٧٦

الرصاص والبارود[٢٤٩] . فهبَّ السرعسكر الى قتالهم وقام من يافه حوالي العاشر من تموز على راس قوة جديدة الى الطيبة منها (الاي الفرسان التاسع والاي الغارديا الثاني والاي المشاة العشرين) فضرب اهلها ثم انتقل الى قاقون فاحرقها واتجه منها الى زيته وعينل[٢٥٠] . ولدى وصوله الى زيته ضرب من فيها من الثوار ففروا هاربين تاركين وراءهم عدداً من القتلى والجرحى يربو على الثمانين واعتصموا بقرية دير الغصون. فتأثرهم السرعسكر واقتحم مراكزهم فيها مشياً على الاقدام نظراً لوعورة مسالكها وقتل منهم ثلاث مئة وقضى على مئة وخمسين آخرين[٢٥١] . وقام الشيخ قاسم الاحمد والشيخ عبدالله الجرار والشيخ عيسى البرقاوي والشيخ ناصر المنصور من الدير الى نابلس فاخذوا اولادهم وفروا الى جبل الخليل . وقام ابراهيم باشا الى نابلس فدخلها في الثامن عشر من تموز وتقبل فيها طاعة اهلها وسكان قراياها[٢٥٢] .وكان قد تقبل طاعة جبل القدس في قرية المزرعة عن يد الشيخ عبد العزيز شيخ هذه القرية فأعاد الشيخ ابراهيم ابو غوش الى سابق نفوذه وعينه متسلماً على القدس في العاشر من تموز[٢٥٣] . وفي الخامس من آب من السنة نفسها قام السرعسكر من القدس الى الخليل فصده اهلها خارجها ثم تحصنوا فيها ولكن السرعسكر تغلب عليهم في وقت قصير واحتل بلدتهم في اليوم التالي . وفي الثالث عشر من الشهر نفسه تحرك « ركابه السعيد» من الخليل الى الكرك فنزل الى غور الاردن ومرَّ بالطفيلة وما ان اطل على الكرك حتى قام عربانها واهاليها الى قتاله فدخلها عنوة واعمل النار فيها . وكان قاسم الاحمد واولاده وبعض اعوانه قد قاموا من الكرك الى عجلون عن طريق اريحه فقبض عليهم الشيخ دوخي السمير وارسلهم الى الشيخ عامر الهنادي . فأمر السرعسكر بقتلهم فقتل الشيخ قاسم الاحمد والشيخ عيسى البرقاوي في دمشق وقطعت رؤوس اولادهم في عكة والقدس[٢٥٤] .

ونفى السرعسكر الى مصر رهطاً من علماء فلسطين منهم الشيخ عبدالله البديري المقدسي والشيخ عبدالله القاهوم الناصري والشيخ سعيد السعدي العكاوي كما أمر باعدام كل من الشيخ

---

(٢٤٩) المذكرات التاريخية للاب قسطنطين الباشا ص ١٠٨-١٠٩

(٢٥٠) المحفوظات ج٢ ص ٤٢١ و٤٢٣ و٤٢٩

(٢٥١) حروب ابراهيم باشا للقس انطون الحلبي ج ١ ص ٤٤ هامش .

(٢٥٢) كتابنا الاصول ج ٢ ص ١١٦

(٢٥٣) المحفوظات ج٢ ص ٤٢٥ والاصول ج ٢ ص ١١٦ ايضاً .

(٢٥٤) اطلب تفصيل هذا كله في كتابنا الثورة بفلسطين ص٧٦-٨٢ وفي هامشه ما تطلبه من مراجع . اطلب ايضاً المذكرات التاريخية للخوري قسطنطين الباشا ص ١١٤-١١٥

مسعود الماضي شيخ مشايخ ساحل حيفا واسعد بك الخضر متسلم يافه[٣٥٥] . وقام عماله بتجريد السكان من السلاح فجمعوا من نابلس وحدها ٥٦٠٠ بندقية ثم قاموا يجندون الشبان فجمعوا عددًا كبيرًا منهم وارسلوهم الى القلاع اولًا ثم الى سفن الاسطول[٣٥٦] . وقضت مشيئة العزيز بابعاد صنف الموظفين من اتباع عبدالله باشا والي صيدا السابق عن هذه الايالة فنفذ امره في نقاط عديدة ولكن اللايدي هستر ستانهوب الشهيرة ابت ان تسلم من التجأ من هؤلاء اليها فوق صيدا وحاولت الاحتفاظ بهم ولكن دون جدوى[٣٥٧]

٤ ــ حوادث طرابلس وما يليها وذاع نجاح الفلاحين في جبال القدس والخليل ونابلس وتناقلته الالسن وبولغ فيه فتحركت طرابلس في اوائل تموز من السنة نفسها ١٨٣٤ وقامت على المصريين والنصارى فهرب هؤلاء الى التلال المجاورة وانسحب المصريون بقيادة اللواء سليم بك من البلد الى المينا وتحصنوا فيها وباتوا ينتظرون المدد . فكتب العزيز الى امير لبنان ان يمد الحامية بالرجال فارسل ابنه خليلًا اليها على راس الف رجل[٣٥٨] . وما ان وصلها حتى عادت المياه الى مجاريها فألقى القبض على سبعة وخمسين منهم الحاج عبدالله علم الدين والحاج شاكر المطرجي والسيد شاكر عدره والسيد ابراهيم السندروسي والحاج حسين علم الدين والسيد مصطفى ملك والحاج مصطفى الادهمي ومحمد افندي الذوق والسيد خليل الثمين امين الفتوى واسماعيل افندي الحي النقيب وادخلهم السجن[٣٥٩] .

وكان السرعسكر قد أمر بارسال اورطتين من المشاة من الرملة الى طرابلس وعزّز قوة اغا المعجون فضم اليها فرسان حسن اليازجي وقوجه احمد اغا ومدها ببطارية مدافع من حمص وألحق بها طابورًا من الاي المشاة العاشر وأرسلها الى عكار « لتصفية غائلتها » فوافاها الى عكار سليم بك بما كان قد تجمع لديه من الرجال في اواخر تموز وشد ازره الامير اللبناني برجاله . فقبضا على اسعد بك المرعب واسعد بك الشديد وعلى اثنين من اولاد محمد بك القدور وعلى ثلاثين آخرين من وجوه هذه المنطقة واعيانها[٣٦٠] . ثم عاد الامير خليل الى

---

(٣٥٥) المؤلف نفسه ص ١٧–١٨

(٣٥٦) المحفوظات ج ٢ ص ٤٢٧ و٤٣٥

(٣٥٧) كتابنا الاصول ج ٢ ص ١٢٣–١٢٤ والمحفوظات ج ٢ ص ٤٩٢ و٤٩٧

(٣٥٨) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٧٨–٥٧٩ والمذكرات التاريخية المشار اليها ص ١٠٤–١٠٥ والمحفوظات ج٢ ص ٤٢٥

(٣٥٩) المحفوظات ج ٢ ص ٤٣٢

(٣٦٠) اخبار الاعيان ص ٥٧٩ والمحفوظات ج ٢ ص ٤٣٢

طرابلس لمرض ألمّ به ومنها الى بتدين . وخشي مصطفى اغا بربر ان يُظنّ به لانه كان قد أُقيل من منصبه قبل وقوع هذه الحوادث فالتمس من الشهابي الكبير ان يستميح له صفو الخاطر والامان ففعل الامير وقبل السرعسكر وأمر برجوعه الى وطنه فعاد وما لبث ان توفي فجأة . ثم أمر السرعسكر باعدام السجناء في طرابلس من زعماء الفتنة فاعدموا في ساحة الملاحة في قلب طرابلس ارهاباً(٣٦١) .

٥ ـ بيد الباب العالي

وما ان سمع السلطان بحوادث فلسطين وطرابلس وعكار حتى أمر باستغلال الموقف فأوعز الى محمد رشيد باشا الصدر الاسبق ووالي سيواس وديار بكر والرقة وامين المناجم السلطانية ان يتصل بالمعارضة في بر الشام وبغيرها من العناصر لاذكاء نار الفتنة فيها . فكتب هذا الى امير لبنان يستفزه لمناصرة الثوار وحضّ الامير سليمان الحرفوش في بعلبك والشيوخ الحمادية في الهرمل على الثورة ومنهم الشيخ سعدالدين حماده والشيخ ابو نصر حماده والشيخ محمد كنج حماده وأعلن قرب نهوضه بالعساكر اليهم(٣٦٢) . واتصل ايضاً بآل هارون في اللاذقية وببعض زعماء النصيرية في جبالها وبيونس اغا في قسابور وخان يو وبمحمد علي الشاتورلي في الدير وبعبد اللطيف اغا في باير وبرهط من اعيان حلب منهم عبد الرحمن المرعشلي وابراهيم اغا سياف زاده وال الجابري(٣٦٣) .

فقبض امير لبنان على الخيال الهواري الذي حمل الكتابة اليه وارسله الى سجن عكة ثم كتب الى بحري بك يقول « امس حضر خيال هواري الى معسكرنا وتقدم الى عندنا وناولنا كتاباً واسر لنا خفية انه من الصدر الاعظم السابق فاخذنا الكتاب وفتحناه فاذا هو من رجل اسمه احمد هوارى باشي عند محمد رشيد باشا والكتاب المذكور واصل للجناب فمن بعد اطلاع جنابكم عليه ترسلوه لاعتاب سعادة افندينا ولي النعم السرعسكر المعظم. وتقرير هذا الرسول ان محمد رشيد باشا موجود في ملاطيه وعنده عساكر وافية وانه لاجل عدم القلقلة وخشية من وقوع المكتوب بيد احد حرروه باسم الهوارى باشي المذكور وانه مهما كنا نريد يحصل لنا »(٣٦٤) .

---

(٣٦١) اخبار الاعيان ص ٥٧٩ والمحفوظات ج٢ ف ٤٣٢ وخاتمة مخطوطة نوفل نوفل كشف اللثام: نسخة جامعة بيروت الاميركية .

(٣٦٢) المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٦ و٤٣٧–٤٣٨ و ٤٤٤ و٤٩٩

(٣٦٣) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٤٤٥ و٤٦٧ و٤٧٠–٤٧٢

(٣٦٤) المحفوظات ج ٢ ص ٤٤٤

٦ ـ النصيرية · وكان قد اندلع لهيب الفتنة في تلال اللاذقية وجبلة وبانيـاس وطرطوس وامتنع اهلها عن تقديم سلاحهم واخلوا بالامن وهجم بعضهم على مدينة اللاذقية واهلكوا من كان فيها من العساكر ونهبوا المخازن والشون واخذوا ٤٨٢ راساً من خيول السلطة ونهبوا منازل الضباط فسلبوا حريم الصاغ والبيكباشي والقائمقام متاعهن وحاصروا المتسلم في داره وسلبوا ألبسة المرضى في المستشفى[٣٦٥] . فهبّ سليم باشا من مقره في شمالي سورية الى معونة زميله اللواء سليم بك وارسل اليه في منتصف ايلول الاي المشاة العاشر من حماه وأمر محمد اغا معجون اغاسي بوجوب ارسال ثلاث مئة من فرسانه المناديين من جسر شغور للغاية نفسها[٣٦٦] .

فقام اللواء سليم بك من طرابلس وضرب النصيريين في صافيتا فدخلوا في طاعته وجمع اسلحتهم ثم انتقل بما توفر لديه من قوة الى بانياس وقلعة المرقب فسلب وحرق وألقى القبض على بعض الثائرين وقتل احمد قرقور والامير خليل والامير اصلان وطه كتخدا عبدالله اغا صاحب المرقب . ثم اتجه نحو اللاذقية « ليقتص من عصاة المقاطعات السبع ومن تآمر معهم من سكان اللاذقية»[٣٦٧] . وكان الشهابي الكبير قد عاد من صفد وجمع سلاح صور وجبالها فكتب اليه السر عسكر ان يوجه رجاله الى اللاذقية ليعاونوا اللواء سليم بك في اخماد الفتنة فيها وفي جبالها . فأرسل الامير ابنه الامير خليلاً ومعه امراء من وادي التيم الشهابيون الامير فندي والامير جهجاه والامير سعد الدين والامير احمد . فباتوا في طرابلس ينتظرون اكتمال العدد . ثم قاموا بضعة الاف[٣٦٨] فوصلوا الى منطقة اللاذقية في اوائل تشرين الثاني وبعد ان دوخوا مقاطعة البهلولية قاموا الى صهيون وخيموا في قرية الحفة . فلما بلغ اهل مقاطعـة بيت الشلف ذلك ارسلوا نحو الفي مقاتل يدهمون الرجال فانكسروا . ثم هجم اللبنانيون على قلعة صهيون واحتلوا ثلاثة ابراج بقربها وابقوا فيها مئة مقاتل . فاضرم هؤلاء نار الحرب على من في القلعة وعند منتصف الليل طلب النصيريون الامان وفرّوا هاربين فدخلها اللبنانيون وحضر اهل مقاطعة ديروس وسلموا . ثم انتقل اللبنانيون الى بيت الشلف والمزرعة والجنا واحرقوا قراها وادخلوا اهلها في الطاعة . وقام اهل الطروحة وبيت ياشور والقرّاضة فربطوا جسر السن . وعندئذ وصلت نجدة لبنانية مؤلفة من خمس مئة مقاتل من زحلة وبسكنتا

(٣٦٥) المحفوظات ج ٢ ص ٤٦١ و٤٦٢
(٣٦٦) المحفوظات كذلك ج ٢ ص ٤٦٥
(٣٦٧) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٤٦٢
(٣٦٨) علي بك الى سليم باشا : المحفوظات ج ٢ ص ٤٧٤

فاقتتلت مع النصيريين وخسرت ستة وثلاثين رجلاً . وبلغ الامير خليل ذلك فارسل الاميرين سعد الدين واحمد لنجدة المقاتلين ففر النصيريون الى جبل الحمام وهكذا دواليك حتى استتب الامن في البلاد كلها وجمع سلاحها[٣٦٩] .

ويستدل من تقارير اللواء سليم بك انه جمع من المقاطعات الجنوبية ٤٠٠ بندقية وخمسين زوجاً من الغدارات واثنين وثمانين خنجرًا وستين سيفاً ومن مقاطعات المرقب وقدموس والحوابي وسلطان ابراهيم والقرى الساحلية ٣٠٠٠ بندقيـة وعددا من السيوف والطبنجات والخناجر وما لا يقل عن الفي بندقية من سائر المقاطعات[٣٧٠] .

٧ ـ حلب وانطاكية وسائر سورية الشمالية

وكان السرعسكر قد اوفد محمد منيب افندي الى حلب لجمع سلاحها . فوصل اليها في منتصف ايلول من السنة نفسها (١٨٣٤) واذاع الامر السامي بلمّ السلاح وشرع بتنفيذه «فنفر الاهالي منه واظهروا عدم الرضى عنه» وعن الفرده . ولكنه على الرغم من هذا تمكن في ظرف خمسة عشر يوماً من جمع ٨٤٨٢ بندقية من حلب و٢١٦٨ من كلس و١٨٥١ من انطاكية . واجل لم السلاح من القرى الى حين وصول قوة عسكرية توازره[٣٧١] .فحسب الفلاحون حساباً لهذا ونادوا بالثورة ثم احتلوا منطقة جسر الحديد على العاصي فربطوا الطرقات على عرب الهنادي وقالوا «حلب محاصرة وادلب قامت وعنزه مجاورة حلب والبلاد جميعها قامت وسعادة افندينا الوزير المعظم محمد رشيد باشا خولنا احتلال تقية وانطاكية والجسر وامرنا ان نقول ان الذي يطيع مولانا السلطان عليه امان الله ورايه والذي يعصى رزقه وماله ودمه وحريمه حلال ونحن نجاهد في سبيل الله لانهم على غير الحق»[٣٧٢] . فقام اليهم سليم باشا بالاي المشاة الثاني عشر والاي الفرسان الاول ونصف بطارية من المدافع الى قرية صوفيلر في اوائل تشرين الثاني وضربهم ضربة قاضية اسفرت عن تشتيت شملهم[٣٧٣] . واعلن انتهاء هذه «الفتنة» من قرية شيخان في جبل الاكراد وعيّن شيوخ محليين من اعداء الشيوخ الفارين[٣٧٤]

---

(٣٦٩) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٨٠-٥٨٢ والمحفوظات ج ٢ ص ٤٧٧ و٤٧٨

(٣٧٠) المحفوظات ج ٢ ص ٤٦٤ و٤٦٧ و٤٨٢

(٣٧١) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٤٥٤ و٤٦٣.

(٣٧٢) الثائر يونس الى اهالي القصير : المحفوظات ج ٢ ص ٤٧١-٤٧٢

(٣٧٣) سليم باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٢ ص ٤٧٦ و٤٧٧

(٣٧٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٧٩

٨ ــ لبنانه

وفي اواخر السنة ١٨٣٤ كتب السرعسكر الى الشهابي الكبير ان يرسل ولده امينًا اليه الى عكة . فتوجه . واستقبله السرعسكر ببشاشة ثم طلب منه الفًا وست مئة شاب من الدروز ليدخلهم في جيشه النظامي . فاجابه امين ان هذه الكمية لا توجد عندهم والتمس منه ترك نصفها فقبل الوزير بذلك ثم سافر بحرًا الى صيدا ومعه الامير امين . وفي اوائل السنة ١٨٣٥ استدعى الشهابي الكبير اليه مناصب الدروز واخبرهم بما كان وفرض على كل مقاطعة عددًا من الشبان وامر المناصب ان ينتخبوهم من ابن خمس عشرة سنة الى ابن خمس وعشرين ممن لا سقط فيهم وان لا يكون من البيت الواحد نفران اخوان والا يؤخذ من ليس له عوض . فلما بلغ الدروز ذلك ابوا وتعصبوا. فوعدهم الامير انه يسترحم الوزير (ابراهيم باشا) ان يعفو عنهم[٣٧٥] وارسل ابنه امينًا مرة ثانية الى عكة لهذه الغاية . فكتب ابراهيم الى والده يطلعه على ما جرى ويؤكد « ان اللبنانيين شبوا طلقاء. وانهم ان دعوا للانضواء تحت راية النظام اخذتهم العزة ونفروا من ذلــك »[٣٧٦] . فأحاط العزيز علمًا برسالة ابنه وبكتاب الامير بشير الشهابي اليه ونوه باخلاصه اي باخلاص الامير واستبعد احتمال اعراضه عنه ووافق على ملاحظة السرعسكر عن اللبنانيين ثم اقترح ايفاد حنا بحري بك الى الامير اللبناني ليذكره بان ما ضحى به في سبيــل نصرة الاسرة الخديوية ادخله في زمرة الزملاء المعدودين من دعائمها واركانها وبان السرعسكر قد عقد النية على تخيير الاهالي بين التجنيد والبدل فان لم يقبلوا باحدهما فالخراب وتشتيت الشمل . ثم عاد العزيز بعد قليل فكتب الى ابنه ثانية يقول ان لا مناص ولا مفر للدروز من قبول التجنيد اسوة باهل العراق والاناضول والرقة وارضروم والمعادن السلطانية . فان حدثتهم نفسهم بالهرب اعترضهم الجند حيثما لاذوا وتوجهوا وان مدة الخدمة العسكرية المفروضة هي خمسة عشر عامًا فقط ![٣٧٧] ثم شاع في لبنان ان العزيز سيجند الفًا وخمس مئة من اللبنانيين المسيحيين فقام البطريرك الماروني يعلن عزمه على الاستعانة بفرنسة للتدخل في هــذا الامر واعفاء الموارنة من الخدمة[٣٧٨] . فكتب العزيز الى ابنه يقول انه لما استشعر من القناصل تلميحًا بتحب المسيحيين من الخدمة استسلم للطبيعة البشرية فاحتد عليهم واسكتهم بقوله انه وهو لا يفتأ يستخدم ابناء دينه في عمران البلاد كيفما شاء لا يستطيع ان يؤثر المسيحيين عليهم بغير حق . ثم اقترح العزيز على

(٣٧٥) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٨٢—٥٨٣

(٣٧٦) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ج ٣ ص ٣ و٤—٥

(٣٧٧) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٣ ص ٤—٥

(٣٧٨) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ج ٣ ص ١١

ابنه ان يعلن انه لن يأخذ من النصارى غير المائتين والخمسين الذين ارسلوا الى ورش عكة وافاد بعد ذلك ان استخدام النصارى بهذا الشكل يسهل تجنيد المسلمين[٣٧٩] .

وقام بحري بك بالمهمة الموكولة اليه فذهب الى بتدين وقابل الشهابي الكبير وحثه على جمع المطلوب بسرعة[٣٨٠] . ورفع تقريرا بذلك مؤكدًا عدم موافقة الدروز على الخدمة ذاكرًا نفورهم من قيودها مبيناً خوف العقال من امر اختلاط شبان الدروز بغيرهم وامكانية ابتعادهم عن دين الاجداد ثم عاد فرفع رسالة وردت اليه من الشهابي الكبير تضم بعض الرسائل التي تسلمها هذا الامير من بعض مناصب الدروز في موضوع التجنيد الاجباري. وبين هذه الرسائل رسالة من الشيخ حسين والشيخ حمد تلحوق يؤكدان فيها استعداد جماعاتها لتقديم الشبان ولكنهما يرجوان الا يكونوا « بداية » « لسبب امر الديانة فقط»[٣٨١] .

وامتعض الشهابي الكبير من موقف العزيز واكنه كظم غيظه وصبر عليه[٣٨٢] وأمر وجوه البلاد بالانصياع ففعلوا . وقدموا الف شاب درزي لجيش العزيز . فجمعهم السرعسكر في صيدا وأمر سليمان باشا الفرنساوي ان يتولى فرزهم فألف منهم ثلاث فرق كاملة وجعل كل فرقة منهم مئة وثمانين جنديًا . ثم ألحق بعضهم بالاورطة الرابعة من الاي المشاة التاسع عشر وبالاي المشاة الثالث عشر المقيم آنئذٍ في الرملة (بفلسطين) وارسل الباقون الى السويدية. ثم كتب الى القائمقام محمود افندي ان يعنى بالفرق الثلاث الاولى التي ارسلت الى الاسكندرية فيأمر باسكانها في الشكنات وبتوزيع الكساوي عليها وان يلتفت بنوع خاص الى ابناء الوجوه فيخصص لهم تعيينات ملازمين[٣٨٣] . وهكذا فيكون السرعسكر قد أجاب سؤل « الاجاويد » من رجال الدين عندما أمر بابقاء الشبان المجندين متجمعين كتلًا غير موزعين افرادًا على فرق من الجيش متباعدة . وكان الشهابي الكبير قد طلب احالة مالكانة ثلث الكورة التي انحلت بوفاة مصطفى اغا بربر الى اولاده فكتب العزيز الى ابنه السرعسكر موجباً اجابة طلب الامير اللبناني وغض النظر عن ثمن المالكانة قائلًا :« ان المصلحة تقضي

---

(٣٧٩) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٣ ص ١٤

(٣٨٠) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٨٣

(٣٨١) الامين بشير الشهابي الى يوحنا بحري : المحفوظات ج ٣ ص ١٦ راجع ايضاً مقالنا في المشرق (١٩٣٧) ص ٤٧٥–٤٩٠

(٣٨٢) المحفوظات ج ٣ ص ١٦ و ٢٤

(٣٨٣) سليمان باشا الى سامي بك : المحفوظات ج ٣ ص ١٥

بتطييب خاطر الامير بشير الشهابي »[٢٨٤]

واتخذ العزيز من تردد الدروز في امر التجنيد عذرًا لتجريدهم من السلاح فامر ابنه ابراهيم بوجوب جمعه منهم . وقام ابراهيم يستغرب ما سبق من اعفائهم فذكّره والـده ان اعفاءهم انما كان لما اسدوه من عضد وعون حينما كان بر الشام كله ثائرًا وان الشهابي الكبير امير الدروز خفّ على الرغم من شيخوخته وزحف على صفد ابتغاء نيل الرضى . فلو همّ الجناب العالي حينذاك بتجريد الدروز من السلاح لكان ذلك سبباً لعصيانهم . ولو جردوا وهم في خدمتهم في جبال النصيريين لاستوى العاصي والمطيع واصبحت اعمال الجناب العالي مخالفة لاسس السياسة منافية للانسانية . اما تجريدهم بعد ان خالفوا امر التجنيد فانه جاء مشروعاً مانعاً للالسن من الاندفاع في القيل والقال . ثم حكى العزيز لابنه كيف كتب قنصل الانكليز الى بوغوص بك بشأن الدروز وكيف جاءه بوغوص في شبرا فابلغه ان القنصل يرى عدم اغتصاب الدروز ما داموا قائمين في الخدمة في وقت فشا فيه العصيان وكيف اجابه الجناب العالي قائلًا لقد آن الاوان يا بوغوص لدك جبل الدروز دكًّا حتى يعود قاعاً بلقعاً . واستدل الجناب العالي بما تقدم على ان لكل امر وقتاً هو به رهين وعلى ان التجريد آنئذٍ لن يكون من ورائه لوم لائم . ثم امر العزيز ابنه ان يسارع الى درس قضية جبل الدروز على ضوء تقارير بجري بك والامير بشير وان يتخذ التدابير اللازمة لجمع السلاح من سكان الجبل[٢٨٥] . فوافق السرعسكر على نزع السلاح وعلى التجنيد ايضاً ولكنه لم يقبل القول « انهم ساعدونا في نابلس وان القضية تقضي علينا بكذا وكذا » واشار الى انه في اوروبة نفسها « لا يوجد انسانية ولا يعمل الا بموجب المصلحة » ورأى ان يؤجل جمع السلاح بعض الوقت اذ لم يكن لديه من رجاله الذين يعتمد عليهم من يمكنه الاشراف على هذا العمل آنئذٍ[٢٨٦] .

وفي الرابع عشر من تموز سنة ١٨٣٥ عاد العزيز فكتب مرة ثانية الى ابنه يوجب عليه الزحف على الدروز بجميع قواته « لعلهم يعقلون فان قضي الامر كان به والا فالحرب فملّا »[٢٨٧]

---

(٢٨٤) محمد شريف باشا الى سامي بك ومحمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٣ ص ١٠ و ١٦ و ٢٤

(٢٨٥) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ١٨ صفر سنة ١٢٥١ (١٦ حزيران سنة ١٨٣٥) : المحفوظات ج ٣ ص ١٩

(٢٨٦) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ٢٧ صفر سنة ١٢٥١ (٢٥ حزيران سنة ١٨٣٥) : المحفوظات نفسها ج ٣ ص ٢٤

(٢٨٧) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٣ ص ٢٩

ولكن السرعسكر كان قد انتقل الى شمالي سورية للاشراف على اعمال قطع الاشجار في جبال بياس فكتب منها يشير الى انه امر بارسال بعض العساكر الى جبل الدروز[٢٨٨] وانه من المحتمل ان تكون حكومة الآستانة قد قصدت تحريض الدروز بارسال النجدات الى محمد رشيد باشا[٢٨٩] . وفي اواخر ايلول من السنة نفسها كتب السرعسكر الى الامير اللبناني يستدعي ابنه اميناً الى بعلبك للتحدث اليه في قضية نزع السلاح . ثم عاد فكتب ثانية انه قائم الى زحلة على راس قوة عسكرية لتنفيذ اوامر والده وانه سيقوم منها الى بتدين لجمع السلاح كله « بحيث ما يبقاش ولا قطعه » وانه اذا حضر الى بتدين ووجد ان اللبنانيين لم يمتثلوا الى امره فانه يضربهم اينما كانوا وسيخرب بيوتهم ويقطع ارزاقهم . فهبّ اللبناني الكبير يحض الناس على الخضوع وتقديم السلاح . وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه وصل السرعسكر الى دير القمر يحف به رهط من كبار رجاله منهم عباس باشا وسليم باشا ومحمد باشا وسليمان باشا وبحري بك ووراءه الاي الغارديا المشاة الاول والاي الغارديا المشاة الثاني وثلاثة الايات اخرى وبطارية مدافع واربعون جملا للذخيرة فعسكر الجيش في صحراء الدير وقام السرعسكر واكابر رجاله الى بتدين باورطة واحدة من الجند . فرحب به امير لبنان واطلعه على ما اتخذه من اجراءات فسر السرعسكر كل السرور وجمع السلاح دون مقاومة . وبلغ ما لمه من اللبنانيين النصارى حتى منتصف تشرين الاول ٩٦٤٧ بندقية ومن اللبنانيين الدروز حتى التاريخ نفسه ٥١١٣ بندقية[٢٩٠] .

وكان العزيز فيما يظهر يقدر شجاعة الدروز وبأسهم ويعلق الامال عليهم في حربه المقبلة فاضطرب في هذه الاونة نفسها لخروج بعضهم عن مذهب الاجداد وكتب الى محمد شريف باشا يفيده ان خروج الدروز عن دينهم «امر خطير يجب تلافيه» وان المصلحة تقضي بالاتصال سرًّا بالشهابي الكبير للتحقق من صحة هذا الخبر[٢٩١] . فكتب الحكمدار الى امير لبنان يستطلع رايه في الامر فاجابه هذا ان بعض الدروز «اراد التداخل بالطريقة العيسوية» ولكنه

---

(٢٨٨) المحفوظات ج ٣ ص ٣١–٣٢ اطلب ايضاً رسالة ابراهيم باشا الى سامي بك الصادرة عن سيس في المجلد نفسه ص ٤٢

(٢٨٩) ابراهيم باشا الى سامي بك : المحفوظات ج ٣ ص ٤٣

(٢٩٠) ابراهيم باشا الى المعية السنية : المحفوظات ج ٣ ص ٥٦ راجع كذلك حروب ابراهيم باشا للقس انطون الحلبي ج ١ ص ٥٣–٥٥

(٢٩١) راجع حديث العزيز في هذا الموضوع مع الجنرال بوايبه الافرنسي في كتاب جورج دوان « بعثة عسكرية افرنسية » ص ٧٩ . اطلب ايضاً المحفوظات ج ٣ ص ١٣٧

لم يفعل لما تبلغه من « التنبيه والتشديد والتهديد » ولذا فانه يعتهد ان «هذا المبدأ قد انقطع» وان نار هذه الشهوة قد خمدت . ثم يضيف ان الامراء اللمعيين كان قد سبق لهم ان تنصروا وانه لم يبقَ منهم على طريقة الدروز سوى الامير احمد قايدبيه المقيم في برمانا واولاد الامير نصر مراد المقيمين في المتين وان هؤلاء اي اولاد الامير نصر كانوا قد اظهروا رغبة في التنصر ولكنهم عندما سمعوا تهديد الامير وتشديده تركوا ما كانوا قد عزموا عليه ثم ما فتئوا ان قبلوا الدين المسيحي سراً(٣٩٢) .

٩ ــ اصابع الانكليز وخشيت الحكومة البريطانية مطامع القيصر الروسي . فوقفت له بالمرصاد . وعزمت الا تفسح له المجال لتطبيق بنود معاهدة هنكار اسكله سي ولاسيما السري منها . فقام الملك وليم الرابع يؤكد في خطبة العرش في شهر شباط من السنة ١٨٣٤ انه سيمنع حدوث اي تغيير في علاقات الدولة العثمانية بدول اخرى يكون من شانه التأثير في سلامتها واستقلالها . وأمر وزير شؤونه الخارجية الفيكونت بالمرستون السفير البريطاني في الآستانة بان يدعو الاسطول البريطاني داخل الدردنيل اذا طلب السلطان مساعدة القيصر ودخل الاسطول الروسي داخل البوسفور . وعندما نشبت نار الفتنة في فلسطين في ايار من السنة نفسها استطلع السلطان رأي الحكومتين البريطانية والافرنسية في ارسال اسطوله لمعاقبة العزيز فكان جوابها ان عرش الخلافة يصبح في خطر اذا جازف السلطان بحرب ضد العزيز . ولما ابى العزيز دفع الجزية المستحقة عن النصارى واليهود في بر الشام وادنه سنة ١٨٣٤ فاتح الباب العالي السفير الروسي في الآستانة بقصد تطبيق معاهدة هنكار اسكله سي فتقدم روسية المساعدة ضد والٍ ثائر فكان جواب هذه ان المعاهدة دفاعية محضة وانه لا يمكن تقديم المساعدة ما دام الباب العالي هو البادئ بالعدوان . ولكن ما كادت تصل هذه الاوامر والتعليمات الى من يعنيهم الامر حتى وصلت الاخبار بان الثورة هدأت في بر الشام وان العزيز بفضل مساعدة حليفه الامير اللبناني اصبح قابضاً على ناصية الحال . فهدأت مخاوف اوروبة وزال امل السلطان في انتفاع عاجل من مشاغل العزيز ومشاكله(٣٩٣) .

ورأى العزيز ان يخلص نفسه من سيادة محمود الثاني ورجال بطانته لما رآه من سوء النية ودس الدسائس فاتصل بقناصل انكلترة وفرنسة والنمسة في اواخر صيف السنة ١٨٣٤ معلناً

(٣٩٢) محمد شريف باشا الى سامي بك : المحفوظات ج ٣ ص ١٤٧

(٣٩٣) اطلب تاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت بك ص ٢٠١-٢٠٣

رغبته في الاستقلال. وكتب هؤلاء الى حكوماتهم بذلك فجاء الرد بالرفض ونصحته بريطانية بالعدول عن مشروعه لان حالة اوروبة السياسية لا تسمح له بتحقيق امنيته . فأرجأ العزيز البحث لفرصة اخرى[٢٩٤] . ولكن طلبه هذا أقلق البريطانيين وأقضّ مضجعهم لانهم رأوا في طموح العزيز تهديدًا لسلم طالما انشدوه وسبباً لتدخل الروس وتطبيق معاهدتهم المشؤومة . وذهب بعضهم الى ابعد من هذا فقال بوجود تفاهم ضمني بين العزيز وبين الروس[٢٩٥] .

وهكذا فاننا نرى الانكليز يوفدون الى بيروت في مطلع السنة ١٨٣٥ احد موظفي سفارتهم في الآستانة ليتصل بالشهابي الكبير ويفرّق بينه وبين العزيز فيحد من مطامع هذا ويبعد امكانية التدخل الروسي . اتصل السر ريتشارد وود هذا ببشير الثاني فأبان له الخطر الذي يحيق بشخصه من جراء تفاهمه مع العزيز واشار الى فصل بر الشام عن مصر والحاقه ثانية بالسلطنة . فأجاب الشهابي بانه مستعد للتعاون مع السلطان وانه بامكانه ان يضع تحت تصرفه اربعين الف لبناني ولكنه رأى ان ذلك سيؤدي حتماً الى حرب طاحنة لا يجد الاتراك بعدها في بر الشام الا الحجارة . فعزا الرسول البريطاني هذا التردد في نفس الامير الى نفوذ فرنسة عليه وراح يفتش عن زعيم لبناني اخر يمكنه الركون اليـه . فاتصل بالامير بشير قاسم وفاوضه بما فاوض بشير الثاني به فوعد بشير قاسم بالتعاون مع البريطانيين شرط امداده باربعة عشر الف بندقية . ثم قام الرسول البريطاني ببث دعايته ضد العزيز بين الموارنة وبين الدروز فاظهر رغبة لتعلم اللغة العربية وانتقى لنفسه مدرساً الخوري ارسانيوس الفاخوري اوسع كهنة الموارنة ثقافة واقواهم حجة واعلاهم رتبة وجاهاً واخذ يدرس العربية عليه ويلقنه السياسة فتمكن من ابعاد الموارنة عن فرنسة كما سنرى فيما بعد . ثم اتصل هـذا الرسول باعيان الدروز فأبان لهم خطأهم في الابتعاد عن الدولة العثمانية واكد لهم عودة الاتراك الى الحكم . وبعد ان تمّ له هذا كله رفع تقريرًا به الى سفيره في الآستانة فأمره هذا بالتوجه الى شمالي سورية وحدود كردستان لدرس الموقف في تلك المنطقة والوقوف على قوة الجيش العثماني المرابط فيها ولاسيما امانة قائده محمد رشيد باشا للسلطان ولي امره . ففعل وعاد الى لبنان بعد موقعة نزب كما سنرى فيما بعد[٢٩٦]

---

(٢٩٤) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٢ ص ٤٤٩

(٢٩٥) ابراهيم باشا الى سامي بك : المحفوظات ايضاً ج ٣ ص ٩٩

(٢٩٦) عن تقرير له رفعه الى وزارة الخارجية عام ١٨٤٥ راجع ذيل كتاب الدكتور هارولد تمبرلي بريطانية والقرم ص ٤٨١–٤٨٢

١٠ ـ ثورة الدروز وكان العزيز يرقب تطور الاحوال على حدوده الشمالية بشيء كثير من التيقظ والتحفظ فرأى ان لا مفرّ من اللجوء الى القوة مرةً اخرى لحسم النزاع بينه وبين السلطان وأعاد النظر في جيشه القائم فامر ابنه ابراهيم باكمال النقص في الالايات وتشكيل الايات جديدة . وزاره في اثناء ذلك في منتصف كانون الاول من السنة ١٨٣٧ الكولونيل كامبل قنصل انكلترة في مصر فسأله عن الداعي للتجند الجديد وانشاء السفن في وقت اصبحت الآستانة فيه آمنة هادئة فاجابه العزيز بحماس «انه من عادة الكبار ان يضحوا بالصغار ولكن محمد علي لا يرضى ان يكون ضحية ويفضل ان يموت نحبله كما عاش حاملًا سيفه . وها قد تبين ان الآستانة جهزت واحدًا وخمسين الايًا فلا اقبل الهلاك وانا اصغي الى هذا وذاك »[٣٩٧] .

وكان العزيز قد اعفى دروز حوران وغيرهم من سكان المناطق المتاخمة لحدود البادية من التجنيد نظرًا لتمرد القبائل وقلة امتثالهم لاوامره فرأى هذه المرة ان يعم التجنيد جميع مناطق بر الشام وأمر محمد شريف باشا بتنفيذ رغبته . فاستدعى هذا الحكمدار الشيخ يحيي الحمدان شيخ مشايخ دروز حوران اليه في دمشق في اواخر صيف ١٨٣٧ ونقل اليه رغبة العزيز. فتعذر شيخ المشايخ واسترحم وتعهد ان يقدم حاصل مئتي فدان بدل التجنيد . فأصر الحكمدار ولكن الشيخ طلب قبول عذره مرة ثانية . فغضب الحكمدار وكان حاد الطبع سريع الانفعال فصفع ضيفه على وجهه بحضور اعضاء مجلس دمشق . فذلّ الشيخ بين يديه وسلّم بالامر وأقفل عائدًا الى حوران لتنفيذ الامر العالي . ودعا الناس اليه واخبرهم بما جرى. فهالهم الامر وافزعهم ثم اتصلوا بعرب السلط وغيرهم من القبائل المجاورة وتفاهموا ثم هجموا فجأةً على قرى شريف باشا وبحري بك في حوران فقتلوا وكلاءها ونهبوا ما فيها . فارسل الحكمدار علي اغا البوصيلي الهواري باشي بثلاث مئة فارس ليقتص من الدروز . فانقض هؤلاء على هذه القوة ليلًا واعملوا السيف في رقاب رجالها فقتلوا معظمها وفرّ قائدها علي آغا البوصيلي الى دمشق يخبر بما رأى . وعندئذٍ اشار كبير شيوخ العقل الشيخ ابو حسين ابرهيم الهجري بوجوب قيام الجميع الى اللجاة والاعتصام بها الى ان ينتهي عهد المصريين في البلاد واكد ان ذلك لن يكون طويلًا ولعله كان على صلة بزعماء المعارضة من دروز لبنان . فقام الدروز بعد ذلك الى اللجاة بعيالهم وارزاقهم . وشد ازر شيخ المشايخ يحيي الحمدان وقال قوله جميع الزعماء منهم الشيخ فندي عامر والشيخ ابراهيم الاطرش والشيخ ابو حسين درريش .

(٣٩٧) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج٣ ص ٣٠٤

واللجاة بقعة بركانية واسعة الارجاء طولها عشرون ميلاً وعرضها خمسة عشر . وهي كثيرة الصخور محتبكة المنافذ عسيرة المسالك يصعب على الغريب التوغل فيها .

فغضب الحكمدار غضباً شديداً وهب يعاقب الدروز فانفذ حملة اليهم بقيادة محمد باشا مفتش الجيش بلغ عدد رجالها ستة الاف . وقام هذا الباشا من دمشق في اوائل السنة ١٨٣٨ فعارضه الدروز في بصرى الحرير ومنعوا عنه المسير فضربهم بالمدافع وخرّب بلدتهم فتشتتوا. وجد في اثرهم حتى حدود اللجاة فعسكر في قرية العاهرة حول مياهها . ثم قام منها الى سوميط فضرب الدروز فيها واجلاهم عنها وذلك في منتصف كانون الثاني . وما ان بدأ جنده بالنهب والسلب حتى عاد الدروز اليهم ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً وقتلوا محمد باشا قائد الحملة وايوب بك الاميرالاي وبكباشيين فانضمّ الى الدروز من انفار الحملة حوالي ثمان مئة نفر من دروز لبنان وشبان نابلس. وكتب ابراهيم باشا الى والده من حلب يقول ان الاسباب التي ادت الى فشل هذه الحملة تنحصر في «بلاهة الباشا واندفاع ايوب بك وتمسكه بالكرامة والشرف»[٣٩٨] .

وعزز السرعسكر قوة محمد شريف باشا فأمر بقيام الاي المشاة الناردريا الثاني من حماه الى حوران والاي المشاة الرابع عشر من انطاكية الى المنطقة الثائرة وقام هو بنفسه على راس الاي المشاة الرابع من حلب الى حمص وكان ذلك في الحادي والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٣٨ وفي التاسع من شباط وصل احمد منكلي باشا وكيل الجهادية على جناح السرعة من مصر الى دمشق فآثر الالتحاق بالجيش المحارب على المثول بين يدي السرعسكر في حمص . وفي العاشر من الشهر نفسه قام الاي المشاة الناردريا الثاني والاي المشاة الرابع من دمشق الى حوران وتبعها احمد منكلي باشا في اليوم التالي[٣٩٩] وبقي السرعسكر في حمص لاسباب صحية . وأوفد اللواء ولي بك الى حوران ليدرس الموقف مع كبار الضباط فيها ويشترك في وضع خطة الهجوم[٤٠٠]

ويقول واضع المذكرات التاريخية ولعله عبدالله نوفل احد الكتبة بمعية محمد شريف باشا انه لما بلغ الحكمدار ما حلَّ بمحمد باشا وحملته ركب حالاً بنفسه وتوجه الى حوران يلم فلول الجيش وينتظر المعونة في قرية تبنة بالقرب من اللجاة . فلما تم له ذلك قام مع احمد منكلي باشا بعشرين الف مقاتل ودخل اللجاة وتوغل فيها مسافة يوم كامل ولم يرَ احداً

(٣٩٨) ذكريات جرجس الدبس (لدى المؤلف) ص ١٠ مذكرات تاريخية للخوري قسطنطين الباشا ص ١٢٠–١٢٣ المحفوظات ج ٣ ص ٣١٣ و ٣١٥

(٣٩٩) حنا بحري بك الى سامي بك : المحفوظات ج ٣ ص ٣٢٠

(٤٠٠) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ج ٣ ص ٣٢١

وانه قام في اليوم الثاني وتابع زحفه حتى الساعة الثالثة من النهار فأحاط به الدروز من كل جانب واصلوه نارًا حامية من وراء الصخور فتساقطت عساكره وجرح احمد باشا ثلاثة جروح و«تقنطر» الحكمدار وكاد يهلك لولا معونة علي اغا البوصيلي . وقُتل وأُسر من الجيش اربعة الاف وفقد الدروز ثلاث مئة من الفين وغنموا مالًا وذخيرة وعتادًا[٤٠١] . وتغنوا بابي ابراهيم مؤكدين معونته مبصرينه «يمرح بين الفراعنة كالنـار المشتعلة والبرق الخاطف» مبتهجين لاشفاقه عليهم (من مخطوطة درزية حورانية) .

فكتب الحكمدار الى العزيز في التاسع عشر من شهر شباط يصف ما حلّ بالاي المشاة الرابع فيفيد انه بعد ان حارب افراده الثوار طيلة نهار وليل من وراء المتاريس تكاثر عليهم الثوار والعربان فاضطروا ان يفروا وتوفي اكثرهم . ثم ينقل ما افاد به خليل اغا اليوزباشي في الالاي الرابع عشر فيقول انه وقع في بؤرة حجرية مع مئة نفر وان اللواء رجب بك سقط فيها ايضاً وان العرب احاطوا بالبؤرة المذكورة ولكنه فرَّ منها ونجا بنفسه وانه فهم من اقوال الاغا المذكور ان رجب بك توفي ومن اقوال شاكر افندي البيكباشي المدفعي ان طيفور بك وقع في ايدي العرب[٤٠٢] . ورفع الحكمدار في الوقت نفسه البيانات التي اعدها البكوات بعدد القتلى والجرحى وافاد ان الالايات المنكسرة لا تزال تصل الى دمشق يومًا بعد يوم . ويستدل من هذه البيانات ان الاي المشاة الثاني فقد في الرابع عشر من شباط مئة واثنين لا يعرف مصيرهم وستة مجروحين وتسعة متوفين وان الاي المشاة الغارديا الثاني فقد ما بين الرابع عشر والتاسع عشر من الشهر نفسه مئتين واثنين وخمسين جريحًا ومئة وتسعة عشر متوفين وسبع مئة وخمسة ضاعوا ابان المحاربة وان الاي المشاة الرابع عشر خسر مئة وثمانية من الجرحى ومئة وواحدًا وستين ضاعوا ابان المحاربة وان الاياً اخر فقد الفاً وخمس مئة وثلاثة وستين من مجموع قدره الفان ومئة وثمانون . ويستدل من الكشف الذي اعده قائد الاي المشاة الغارديا الاول انه فقد في هذه الموقعة نفسها الفاً وثلاثة عشر نفرًا ورتيباً وان الاي المشاة الثامن عشر فقد بين قتيل وجريح وضائع سبع مئة وعشرين . فيصبح مجموع الجرحى والقتلى والضائعين في هذه الموقعة وبموجب هذه البيانات الرسمية اربعة الاف وسبع مئة وثمانية وخمسين[٤٠٣]

(٤٠١) المذكرات التاريخية للخوري قسطنطين الباشا ص١٢٣ — ١٢٥

(٤٠٢) المحفوظات ج٣ ص٣٢٥

(٤٠٣) محمد شريف باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ج٣ ص٣٢٦ — ٣٣٣

ثم اجمل القول ابراهيم باشا فافاد ان الموقعة جرت بالقرب من دامة في قلب اللجاة في منتصف شهر شباط من السنة ١٨٣٨ وان الآي الغارديا الاول والاي الغارديا الثاني والاي المشاة الرابع والاي المشاة الرابع عشر والاي المشاة الثامن عشر اشتركوا فيها وان هذه الالايات لم تقوَ على الدروز فاختل نظامها وجرح قائدها احمد باشا المنكلي فاضطرت ان تعود الى قرية تبنة (٤٠٤) .

اما محمد شريف باشا الحكمدار فانه بعد ان يشير الى انهزام الجيش مرتين امام صخور اللجاة والى توعك صحة السر عسكر وتوقع الحركات العدائية من قبل الباب العالي يفيد انه يسعى لحل مشكلة الدروز حلّاً سلمياً كأن يوخذ منهم عدد معين من الجنود ويطلب اليهم تسليم الذخيرة التي استولوا عليها فيؤمنوا عندئذ على ارواحهم ومتاعهم وتنتظر السلطة حلول فصل الصيف وجفاف برك الماء في اللجاة قبل ان تضربهم ضربة قاضية تنفذ بها ارادة الجناب العالي . ويستدل من مضمون هذه الرسالة ان الرعب كان قد دبَّ الى قلوب العساكر وان الحكمدار خشي ان يخسر عدداً لا يستهان به من ضباط الجيش ان هو اقدم على متابعة الحرب (٤٠٥) .

واشتدت عزائم الدروز فترفعوا وتكبروا وكتب زعيمهم الشيخ يحيي الحمدان الى ابي السعود افندي المرادي نجل مفتي الحنفية في دمشق الشيخ حسين افندي المرادي والى شمدين اغا وعمر اغا البوزلي وغيرهم يقول « بخصوص العساكر الذين فاتوا علينا في حياتكم البركة وما بقي منهم الا القليل واخذنا المدافع والجبخانه والذخيرة كلها . فاذا حسن عندكم شيء نشد ضهركم ونقوي قلوبكم . وقد فعلنا ما لم يفعله احد قبلنا لا اكبر ولا اصغر . ونحن لاننتظر فزعة احد ولكننا نحمد الله الذي جعلنا اصحاب الجلالة والناموس ونضرب بسيف الله والسلطان وغيرنا ماتت المروة منه »(٤٠٦) .

واخذت احاديث الفتن والفساد تترى بين اهالي دمشق وبدأت علائم الفتن تبدو في قراها. وعمد بعض الاشقياء من اهالي قريتي ينطا والحلوه وهما من قرى دمشق الدرزية الى قطع طريق بيروت دمشق. وتغلغل عدد كبير من فرسان الدروز الى قرى الغوطة واخذوا يحضون

---

(٤٠٤) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات نفسها ج٣ ص٣٢٠

(٤٠٥) محمد شريف باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ايضاً ج٣ ص٣٢٥

(٤٠٦) حنا بحري بك الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج٣ ص٣٣٤ – ٣٣٦ . راجع ايضاً المذكرات التاريخية للخوري قسطنطين الباشا وفيها نص رسالته الى شمدين اغا ص١٢٥ – ١٢٦

القرويين على الهجوم على دمشق لاطلاق سراح المجندين من ابنائهم الموجودين في ثكنات المدينة قائلين « لنركب جميعاً معاً ونسير للاستيلاء على دمشق وانقاذ اولادكم »[٤٠٧] . فازداد خوف الحكمدار وكتب الى السر عسكر يقول : « ان انهاء عصيان هؤلاء الاشقياء لمن اقدس الواجبات ولا بد والحالة هذه من ايجاد عساكر تألف القتال بين الصخور . وبما ان عساكر السكبان غير موجودة الان في بر الشام فاني ارى ان يتم انتقاء سبعة او ثمانية الاف رجل من نصارى جبل الدروز وان يسلحوا بالبنادق من عكة ويزحفوا بقيادة الامير خليل الشهابي الى مناطق الثورة لاخمادها »[٤٠٨] .

ورأى السر عسكر رأيين في امر التنكيل بالدروز فاما ان يرجئ الزحف عليهم حتى موسم الصيف حين تنضب المياه في مناطقهم الصخرية او ان يُستفادَ مما عليه الجو من اعتدال فتستدعى الالايات المرابطة في بر الشام وتعين لها اماكن نزولها وتراقب حركات الاتراك حتى اذا ما تبين انه ليس ثمة تدابير ينوي الاتراك القيام بها يزحف هو بنفسه على الاشقياء بثلاثة الايات من الالايات الموجودة لديه في حلب ونواحيها فيُعمل سيوف الجناب العالي اللامعة في رقاب الاشقياء على نحو مـا يشتهيه[٤٠٩] . ثم عاد فكتب في الرابع من اذار يوجب ابقاء الالايات الاربعة في حلب استعداداً للطوارئ ويرجو ارسال الاي الغارديا الثالث من مصر الى بر الشام وانزال الاورطة الرابعة منه المؤلفة من الدروز في السويدية والاورط الثلاث الاخرى المؤلفة من الحلبيين والانطاكيين والدمشقيين في عكة او بيروت كي يقوموا منها الى الشام كما انه يطلب ارسال الاي المشاة الثالث عشر الى بر الشام .

ولدى اطلاع العزيز على آراء الحكمدار والسرعسكر أمر بالاسراع في قمع الثورة لئلا يؤدي استمرارها الى استفزاز الاتراك. واذا كان ذلك غير ممكناً فليعاد الى الطريقة التي اشار بها الحكمدار لتهدئة الخواطر . وكتب في السابع من اذار الى سليمان باشا الفرنساوي الذي كان قد تولى قيادة منطقة حوران ينبئه باستعداده لارسال الالاي التاسع من مصر الى بر الشام وبارسال ثلاث مئة من الاغاوات ذوي اللحى وبانه اصدر امره الى مصطفى باشا محافظ كريت ليقوم بالتجنيد العام في الجزيرة ويتوجه بالعساكر المجندة الى بر الشام على ان

(٤٠٧) حنا بحري بك الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج٣ ص٣٣٧ – ٣٣٩
(٤٠٨) محمد شريف باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج٣ ص٣٣٩ – ٣٤٠
(٤٠٩) ابراهيم باشا الى سامي بك : المحفوظات ج٣ ص٣٤٢

يتولى قيادة العساكر غير النظامية واضاف ان مصطفى باشا قائد باسل يحسن الحرب في الجبال[٤١٠] .

وقارب فصل الشتاء نهايته وخشي دروز حوران جفاف الصيف ففزعوا الى اخوانهم في اقليم البلان ووادي التيم وهبَّ هؤلاء لمعونتهم فسلبوا خيالين من «خيالة المصلحة» خيولهما وسلاحهما بالقرب من قريتي عنقيتا وشويا ونهبوا في سعسع عشرين حمل جبخانه واشتبكوا في بيت جن مع عساكر الامير مجيد حفيد الشهابي الكبير وفي المساء تفرقوا وازداد عددهم حتى بلغوا اربع مئة خيال والفاً من المشاة . فأمر السرعسكر احمد بك امير لواء المدرعين ان يزحف على اقليم البلان ووادي التيم بالاي المشاة السادس وعساكر السكبان الذين حضروا من اذنه . ثم علم السرعسكر بوصول مصطفى باشا من كريت الى بيروت فأمره بالاتصال بحفيد الشهابي الكبير وبالتعريج على حاصبيا وراشيا في طريقه الى دمشق «لتأديب الثوار فيهما»[٤١١] .

وفي الرابع من نيسان زحف احمد بك المشار اليه بالاي المشاة السادس وعساكر السكبان بطريق سعسع الى قرية دربل فوقا فواقع الدروز فيها وتغلب عليهم وكان عددهم يزيد على السبع مئة والخمسين . فسقط منهم جمع غفير وخسر احمد ثلاثة عشر قتيلاً وخمسة وستين جريحاً[٤١٢] . وكان شبلي اغا العريان قد خرج من اللجاة على راس مئتي فارس واتخذ من قرية مجدل شمس مقراً له فقام احمد بك بقوته اليـه واضطره ان يخرج منها ويتجه نحو حاصبيا[٤١٣] . ولدى وصول العريان الى وادي التيم قصد بلدته راشيا عند الفجر ودخل دار الحكومة فيها وذبح ابن الجعفري متسلمها ثم اخذ يتجول بين القرى يهيج اهلها فقاموا معه وما فتئ حتى أصبح عدد رجاله اربعة الاف . فارسل ابراهيم باشا الفاً لقتاله ومئة من المدفعيين وبعض المدافع وتصدى لهم العريان فكسرهم فاتجهوا نحو راشيا واعتصموا بقلعتها فحاصرهم الدروز من كل صوب . ووصل المدفعيون فاتخذوا لمدافعهم مراكز في الوعر العالي وحاصروا البلدة فصبر الدروز على هؤلاء حتى الليل ثم افلتوا عليهم ثمانين ثوراً فظن المدفعيون انهم دروزاً والتهوا بهم وما ان فطنوا حتى ادركهم الدروز من الوراء فقتلوا معظمهم واسروا الباقي . ثم شدوا الحصار على القلعة ومنعوا عنهـا كل وارد فجاع المصريون فيها وبعد ان اكلوا خيولهم اندفعوا منها الى الخارج تحت ستار الليل وفروا الى البقاع فلحق بهم الدروز ومـا

---

(٤١٠) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا وسليمان باشا : المحفوظات ج٣ ص٣٥١ . ثم كتب فيما بعـد بارسال الاي الغارديا الثالث ص٣٥٥

(٤١١) ابراهيم باشا الى حسين باشا : المحفوظات ج ٣ ص ٣٧٦-٣٧٨

(٤١٢) ابراهيم باشا الى حسين باشا : المحفوظات ج ٣ ص ٣٧٩-٣٨٠

(٤١٣) احمد بك الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٣ ص ٣٨١-٣٨٢

فتتوا حتى ادركوهم في قرية بر الياس بالقرب من شتورة فذبحوا منهم جانباً وساقوا الباقي الى قرية الحيدثة وذبحوهم فيها[٤١٤] . وثار ثائر الدروز في الشوف فتناسى ناصر الدين العماد ما مضى وجاء الى الشهابي الكبير يلتمس صفو الخاطر ويعرض نفسه للخدمة فطيب الامير قلبه وأمر له بصلة فقبضها وسار الى العريان . وتبعه دروز كثيرون فذهبوا الى العريان جهارًا والشهابي الكبير لا يتعرض لهم[٤١٥] . ولا غرو بعد ان صدر عن العزيز وابنه ما صدر اذ تساوى في نظرهما عام ١٨٣٥ الصديق والخصم .

واضطر السرعسكر على الرغم من أنفته ان يعمل بمشورة محمد شريف باشا فيطلب المعونة من لبنان مرة اخرى فكتب الى الشهابي الكبير ان يجمع اربعة الاف مقاتل من نصارى لبنان و«ان يسلمهم اسلحة مؤبدة لهم ولذريتهم» ويوجههم صحبة ولده الامير خليل الى وادي التيم لقتال الدروز[٤١٦] . فوقع الشهابي الكبير في حيرة من امره ولكنه عاد فاهتدى فأوصى خليلًا بالجماعة ووضع تحت تصرف السرعسكر خبيرًا في شؤون وادي التيم الشيخ جرجس الدبس يرشد السرعسكر احياناً ويُضله احياناً ثم ينقل اخباره احيانا اخرى الى القيادة الدرزية[٤١٧] .

وجدَّ السرعسكر السير مسرعاً الى وادي التيم فبلغه ما حلّ بعسكره فعاد الى دمشق وجهز حملة جديدة فارسل قسماً منها بطريق بانياس فالاقليم وقام هو بالباقي الى سهل عيحا . فاتته الدروز وتحصنوا قبالته في حرج هناك وانتشب الحرب بينه وبينهم فلم يفز منهم بطايل . وبلغ الدروز ذات يوم انه قادم من دمشق الى عيحا علايف فارسل الشيخ حسن جنبلاط والشيخ ناصر الدين العماد ثلاث مئة رجل لاخذها فلما وصلوا الى وادي ممسى وجدوا العلايف قادمة فتسلموها جبرًا . وكان مصطفى باشا الكريتي قد وصل الى بيروت برجاله وقام منها الى دمشق وذهب الى وادي التيم لمعونة السرعسكر فاصطدم بهذه الشرذمة الدرزية واشتعلت نار الحرب بينه وبينهم . فلما بلغ الشيخين المشاو اليها ذلك انطلقا اليهم بسبع مئة وخمسين مقاتلًا . ولما اقبلوا على الارناؤوط شبوا عليهم نيران الوغى . وبلغ ابراهيم باشا ذلك فحمل

---

(٤١٤) المذكرات التاريخية للخوري قسطنطين الباشا ص١٣٩-١٤١ ذكريات الشيخ جرجس الدبس ص ١١ — نسخة المؤلف .

(٤١٥) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٨٥

(٤١٦) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٨٥

(٤١٧) ذكرياته ص ١٣

على الدروز بشطر من عسكره من ورائهم . ولما اشتد الحرب على الدروز انكفأوا الى وادي بكّا واذا بابراهيم باشا هاجماً عليهم بعسكره فاطلق عليهم نارًا دائمة واطبقت العساكر من كل جانب . فانحاز الشيخ حسن جنبلاط الى قلعة صخرية تطل على الوادي ولجأ الشيخ ناصر الدين الى قلعة مماثلة في اسفل الوادي . وأحدقت بهم العساكر وحملت عليهم فصدوها .

ولما نفد الرصاص والبارود من جماعة الشيخ ناصر الدين صاح بهم ان اهجموا على القوم بالجوارح ففعلوا « فما كنت ترى الا دماء مهرأقة واشخاصاً ممزقة ورؤوساً طائرة واعضاء متناثرة » . ولما رأى الوزيران عسكرهما اوشك ان يولي الادبار امرا بهجوم معاكس مماثل فاستلّ الشيخ ناصر الدين سيفه يفري به من يصل اليه حتى قتل خلقاً كثيرًا من حواليه . ثم قُتل ولم ينجُ من اصحابه سوى خمسين نفرًا . واما الشيخ حسن فانه عندما ايقن ان لا نجاة له ولقومه الا بالهرب فرَّ بمن نجا منهم الى شبعا[٤١٨] .

وكان شبلي اغا العريان قد انتقل بجماعته الى جنعم على سطح جبل الشيخ فاراد السرعسكر ان يُحدق بهم من جهات ثلاث وطلب الى الشيخ جرجس الدبس ان ينقل خطته هذه الى العساكر المحتشدة في بانياس كي تشترك في الهجوم فقام الشيخ جرجس الى بانياس واطلع قواد العساكر فيها على خطة السرعسكر وباح بالسر نفسه الى شبلي اغا العريان. فقسّم العريان قوته الى فرق ثلاث استعدادًا لصد هذا الهجوم . وفي الموعد المعين قامت العساكر الى جنعم فصدَّ الدروز النابلسيين الذين اتوا من بانياس فانكسروا ناكصين على اعقابهم مذعورين وما فتئوا حتى وصلوا الى نقطة انطلاقهم . ورد الدروز ايضاً الامير خليلًا وجنوده مذعورين مشتتين وقتلوا منهم الشيخ فضل الخازن وسبعة عشر رجلًا اخرين . ولكنهم لم يقووا على السرعسكر وجنوده في قرية شبعا فتراجعوا امامه مغلوبين على امرهم ودخل السرعسكر هذه القرية منتصرًا وأمر الشيخ جرجس ان يبلغ الدروز في جنعم وجوب تقديم السلاح . وما ان همَّ جرجس بالمسير حتى شاهد اثنين من عساكر الارناؤوط ممسكين بامرأة درزية لارتكاب الفحشاء فاخبر الباشا بما رأى فطلب هذا الى « البورجي » ان يردهما عنها فلم يمتثلا وعندئذ « ساق السرعسكر بغلته » واتجه نحوهما وما ان وصل اليهما حتى قتلهما بيده . وتتبع جرجس

---

(٤١٨) اخبار الاعيان ايضاً ص ٥٨٥–٥٨٧ ولعل هذه هي المعركة نفسها التي ذكرها السرعسكر في بلاغه الصادر في الثاني عشر من ربيع الاخر سنة ١٢٥٤ (السادس من تموز سنة ١٨٣٨) وقد اسماها معركة برده – محمود بك محافظ بيروت الى حسين باشا : المحفوظات ج ٣ ص ٣٩٧–٣٩٨

سيده فبلغ جنعم واخبر الدروز بما امر به السرعسكر فامتثل اكثرهم ولكن العريان ابى وفرّ بثلة فارس الى حوران . وفي اليوم التالي قام وفد من دروز جنعم الى شبعا فمثلوا بين يدي السرعسكر وقدموا الطاعة اليه واربع مئة بندقية وطلبوا العفو منه فاجابهم الى سؤلهم وأمرهم بالعودة الى اوطانهم وقام هو بعسكره الى قطنه بالقرب من دمشق وأمر جرجس بالبقاء في راشيا لادلاء النصح للعريان بوجوب التسليم . وعاد العريان من حوران بغية التسليم عن يد الشهابي الكبير . ولدى وصوله الى صغبين في غربي البقاع ارسل مندوباً عنه الى بتدين يطلب الى الامير اللبناني ان يسلم عن يده فرفض الامير لانه لم يضمن النجاح . فاقبل جرجس على العريان في صغبين وضمن له ما تمنى واخذه الى قطنه فتقبل السرعسكر استسلامه وعينه رئيساً على خمس مئة خيال غير نظامي(٤١٩) .

وفي صباح اليوم التالي دخل ياور السرعسكر على جرجس ينقل اليه امر سيده بالمثول امامه بين يديه . ففعل وما ان مثل بين يديه حتى قال له السرعسكر لقد جئتنا يا جرجس بذنب الحية وأبقيت راسها . فاذهب الان الى حوران واتصل بالدروز في اللجاة وبلغهم العفو واخرجهم من معاقلهم واذهب بهم الى شريف باشا ليقدموا الطاعة اليه . وسلّمه السرعسكر امرًا مقتضباً الى الحكمدار يقول فيه : « شريف باشا ! واصل جرجس الدبس زي ما يامركم به افعلوه ! الامضاء : ابراهيم » فقام جرجس من قطنه الى حوران يرافقه الشيخ حسن البيطار احد اعيان الدروز في راشيا . وذهب الى المعسكر المصري في قرية عاهرة وطلب مقابلة الحكمدار فاذن له بالدخول فوجد الحكمدار بمجلس عسكري يحيط به كبار الضباط والى جانبه المعلم ابراهيم طنوس كاتبه الخاص . ولم يكترث الباشا به لخشونة مظهره. فقدم جرجس رسالة السرعسكر وأرفقها بامر العفو عن الدروز . فانتصب الباشا قائمًا واكرم جرجس وقال « خلصني من هذا العذاب لاني اصبحت كالاسير » .

ثم دخل جرجس ورفيقه اللجاة وقصد الشيخ يحيي الحمدان فوصل اليه في نصف الليل فرحب به واثنى عليه ذاكرًا خدماته لابناء وطنه الدروز فقصّ جرجس قصته على شيخ المشايخ وذكر له ما ابداه السرعسكر من اللطف نحو دروز وادي التيم بعد ان قدموا سلاحهم ثم نصح اليه ان يقتدي بهم وان يقوم وفد من دروز اللجاة الى العاهرة حاملين الاسلحة وما اخذوه من نوعها في موقعة داما ليمثلوا امام الحكمدار ويسمعوا نطق العفو. فدعا شيخ المشايخ اشياخ الدروز واطلعهم جرجس على مهمته فاثنوا عليه واكدوا له انهم اصبحوا بحالة يرثى

(٤١٩) ذكريات الدبس ص ١٣-١٤

لها من العطش والجوع والبرد . وكان الشهابي الكبير قد كتب لهم بجل ما تقدم فقاموا بجميته اربعون شيخاً يتبعهم الف رجل • ومثلوا امام الحكمدار وقدموا الطاعة اليه مشفوعة بسبع مئة بندقية من سلاحهم والفي بندقية غنموها من الجيش . وتلا عليهم الحكمدار امر العفو فعادوا الى قراهم آمنين[٤٢٠] .

وكتب السرعسكر الى حسين باشا الباشماون في الرابع من آب سنة ١٨٣٨ يقول : حينما اصبح عصاة اللجاة في حالة النزاع والاحتضار ثار دروز راشيا وحاصبيا فسقنا عليهم امير لواء الغارديا الثاني باورطتين وعدد من فرسان المنادي فابى اللواء ان يعسكر في العراء وتحصن في بيت كبير . ولما بلغنا هذا الخبر قمنا بنفسنا الى راشيا فعلمنا ان اللواء خرج منها الى بطبك مشتتاً شمل جنوده • فعسكرنا في الساعة الثانية من ذلك اليوم في سهل راشيا وشرعنا في القتال في غده . ففتحنا راشيا وقتلنا ثلاث مئة درزي واستعدنا المدافع والجبه‌خانه التي كانت قد وقعت في يد الثوار يوم ابراهيم بك . وقد جاء اكثر من الفي رجل من جبل الدروز ليمدوا اخوانهم بالمساعدة . وكنا نحن قد طلبنا مصطفى باشا وعساكره فذهبنا الى المضيق الذي سيمر منه الاشقياء فوجدنا شرذمة منهم وشرعنا في قتالها فهزمناها والقينا في هاوية الجحيم اكثر من الف منها . ثم علمنا ان العصاة يحتشدون في الجبال في شبعة على بعد خمس ساعات من راشيا فزحفنا عليهم ووجدناهم في مضيق متين يقع على بعد ساعة من هذه الناحية . فانهزموا في طرفة عين وارسل كثير منهم الى نار الجحيم . وجاء شيوخهم سحراً يستأمنون ويستسلمون قائلين « دخيلك » فاخذنا منهم اسلحتهم . وكان قد هرب فريق منهم الى اللجاة وبلغ سليمان باشا خبرهم فاعترض سبيلهم واهلك منهم عدداً يزيد على المئة. ولما وصلنا الى اللجاه بعثنا رسولاً الى داخل البلد يبلغهم انهم اذا لم يستسلموا قتلوا جميعاً بالسيف الصارم • فانتدبوا رجلاً من فورهم وجاءنا يقول دخيلك ويلتمس الامان . ولقد آمناهم رحمة باطفالهم ونسائهم واخذنا اسلحتهم وسقناهم الى قراهم . فنخبركم ان هذا الامر قد تم وانتهى بحسن الخاتمة[٤٢١] .

هذا ولا يخفى ما في هذا كله من الاجمال والغموض والتبجح . وهو ان صدر عن السرعسكر نفسه فانه لا يؤخذ على علاته .

(٤٢٠) ذكريات الدبس ايضاً ص ١٥–١٦ راجع ايضاً المذكرات التاريخية للخوري قسطنطين الباشا ص ١٥٦

(٤٢١) ابراهيم باشا الى حسين باشا ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٥٤ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٠٤–٤٠٥

الفصل الثامن

العودة الى المطالبة بالاستقلال

ايار سنة ١٨٣٨

وناهز العزيز السبعين وقارب نهاية المسير. فأحب ان يضمن دوام العز لاولاده واحفاده. ورغب رغبة اكيدة في ان يكفل دوام التقدم والعمران قبل مماته. ولمس بعد التجربة زهاء سنوات اربع ان اتفاق كوتاهية لا يفي بالمرام وانه لا يمكن الاطمئنان اليه. وكان بوغوص بك ناظر الخارجية لديه يؤثر التودد الى رجال الآستانة طمعاً بالوصول الى الصفاء والوئام. فكتب اليه العزيز مرة يرد على كتاب تقدم به بوغوص يستحسن فيه تقديم كمية من النقود الى حكومة الآستانة نظرًا لانهاكها في اداء الدين لروسية وخوفاً من ان تطلب ذلك اما مباشرة او بواسطة احد القناصل فقال: «هل سمعت مني مرة واحدة ان هناك املاً في تحسين صلتنا مع رجال الآستانة ؟ وهل ثمة امكان للصفاء والوئام ؟ اما ان هذه النقود ستدفع بعد آنٍ بتوسط الدول الاجنبية فحسبي ان اكتسب عندئذٍ منة المتوسط بيننا ؟ ثم يأسف العزيز ان يرى بوغوص في ضلاله القديم ناشداً مصافاة الآستانة[٤٢٢]. وكان العزيز قد امر بوغوص بك ان يكتب الى ممثلي الدول لديه في امر انفصاله نهائياً عن الدولة العثمانية وذلك في اوائل ايلول من السنة ١٩٣٤ ففعل. ولكن الدول ردت طلبه باجماع الكلمة ونصحت اليه ان يحافظ على الوضع الراهن كل المحافظة[٤٢٣]. ثم عاد فالتجأ الى فرنسة بعد ذلك بسنتين فقام سفيرها في الآستانة الاميرال روسان يُلح على الباب العالي بوجوب تسوية

(٤٢٢) محمد علي باشا الى بوغوص: المحفوظات ج ٢ ص ١١٧

(٤٢٣) كامبل الى بالمرستون: المحفوظات البريطانية تركية ٢٤٦-٤ و٥ ايلول سنة ١٨٣٦

المشكلة المصرية تسوية حبية وذلك بطريقة المفاوضة المباشرة بين الطرفين[٤٢٤] . فنزل الباب العالي عند رغبة فرنسة واوفد الى مصر صارم افندي ليفـاوض العزيز في الامر . فوصل الى الاسكندرية في اواسط كانون الاول سنة ١٨٣٦[٤٢٥] ولدى خروجه من محجرهـا الصحي اتصل بالعزيز وبوغوص بك وبدأ بالمفاوضة وأكد ان مهمته تقضي بتحسين العلاقات بين مصر وبين الباب العالي وبتحاشي تدخل الدول بذلك . فارتاح بوغوص الى هذه التصريحـات كل الارتياح واسرع فكتب الى سامي بك بوجوب مقابلة الباب العالي بالمثل وارسال مندوب مصري الى الآستانة « لتقديم الشكر على التعطفات الشاهانيـة وعرض واجب العبودية » . ولكنه عاد فكتب بعد خمسة ايام بانه يرى في قدوم صارم افندي الى مصر خدعة سياسية تتذرع بها حكومة الآستانة لتقف على نوايا العزيز الحقيقية ولذلك فانه يرجع عن رأيه السابق ويوافق الجناب العالي على عدم ارسال مندوب الى الآستانة خوفاً من الضجـة السياسية التي قد تثار « بدون جدوى »[٤٢٦] .

ووافق هذا كله وصول شخصيتين كبيرتين اوروبيتين الى مصر الامير بوكلر موسكو والدكتور السرجون بورنغ[٤٢٧] . فاتصلا بالعزيز وكبار رجاله واظهرا تقديرهما لعمله العظيم واستعدادهما لتاييد استقلاله فتشجع العزيز وتقوى ولاسيا وانه كان يرى في شخص الدكتور جون بورنغ ممثلاً لحكومته يقوم بمهمة سرية خاصة[٤٢٨] .

وهكذا فاننا نرى العزيز يستدعي اليه في اواخر ايار من السنة ١٨٣٨ كلًّا من قنصل بريطانية وقنصل فرنسة وقنصل النمسة فيبين لكل منهم على انفراد حراجة الموقف ويرجوه ان يكتب لحكومته كي تاخذ هذه الحراجة بعين الاعتبار فتتوسط بينه وبين الباب العالي وتسعى للوصول الى حل مرضٍ لهذه المشكلة . ثم يضيف بانه مستعد لدفع ست مئة الف كيس الى الباب العالي دفعة واحدة للحصول على الاستقلال وانه في حال عدم الموافقة سيحتفظ بحق العمل دون استشارة احد فيعلن انفصاله في الظرف الملائم ويجابه الدول بالامر الواقع فترضى[٤٢٩] .

---

(٤٢٤) الامبراطورية المصرية للدكتور محمد صبري ص ٣١٩—٣٢٠

(٤٢٥) محمد علي باشا الى صارم افندي : المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ١٨١

(٤٢٦) بوغوص بك الى سامي بك : المحفوظات ايضاً ج ٣ ص ١٨٨ و١٨٩—١٩٠

(٤٢٧) سامي بك الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٣ ص ٢٠١

(٤٢٨) سامي بك الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٣ ص٢٠٢ — ميدم الى نسلرود : المحفوظات الروسية في مصر لرينه قطاوي ج ٣ ص ١١٩—١٢٠

(٤٢٩) ميدم الى نسلرود : ٣٠ ايار سنة ١٨٣٨ — المحفوظات الروسية في مصر ج ٣ ص ١١٨

وفي اواخر حزيران وبعد شفاء قنصل روسية من مرض الم به انتهز العزيز فرصة وجود القنصل عنده فابدى له رغبته هذه في الاستقلال ورجاه ان يرفعها الى القيصر . ومما قاله لهذه المناسبة ما يلي : لقد اختبرت ودنوت من النهاية واخذت الهموم مني كل مأخذ فهنالك مستقبل عائلتي وثمرة جهود حياتي . ومنذ ان انتابني المرض في المرتين الاخيرتين عادت همومي هذه اليّ فهي لا تفارقني لحظة واحدة وتكاد تقضي على صحتي . ولذا فاني جئت أصارح الدول العظمى راجياً توسطها . فاذا عاونتني في ذلك نجحت في مفاوضاتي وغدوت مستعداً لبذل ما تفرضه عليّ من المال لقاء تخلصي . فان هي صدتني وتركتني وشأني لجأتُ الى حل معاكس لرغباتي اذ اعلن انفصالي وابقى مستعداً للدفاع عن النفس في حال هجوم يقع عليّ من جانب السلطان . فليرأف جلالة القيصر بهذا الشيخ السبعيني ذي اللحية البيضاء وليتفضل بكلمة في صالحي مع جلالة السلطان[٤٣٠] .

وحوالي الخامس عشر من تموز ورد الرد الفرنسي فنقله المسيو كوشيلي القنصل العام الى العزيز بنفسه مبيناً رفض حكومته لمقترحات العزيز معلناً تفاهمها مع الحكومة البريطانية واستعدادها لارغام العزيز على القيام بواجبه تجاه سيده[٤٣١] . وفي اليوم الثاني من آب من السنة نفسها وصل جواب الحكومة البريطانية فحمله قنصلها العام الكولونيل كامبل الى العزيز ثم اطلع زملاءه قناصل الدول الاربع على نصه . وخلاصة هذا الرد انه ان اقدم العزيز على ما انذر به جلب العار على نفسه والفقر الى ذويه وانه في حال قيامه باعمال عدائية ضد سيده سيجد نفسه مضطراً لمحاربة الدول باجمعها[٤٣٢] . وفي اواخر هذا الشهر نفسه نقل الكونت الكسيس ميدم قنصل روسية العام ردّ حكومته فأكد للعزيز ان الدول باجمعها لن ترضى عن عمله وان روسية لن تتدخل فعلياً الا بطلب من السلطان وبعد ان يثبت لديها ان العزيز هو المعتدي وان بروسية تبنت الموقف نفسه فشجبت رغبة العزيز واعلنت استعدادها للتعاون مع سائر الدول ذوات العلاقة[٤٣٣] . وكتب البرنس مترنيخ بمثل ما تقدم فاوجب الا يتعكر صفو السلام في اوروبة . اما العزيز فانه ترك مسؤولية ما يقع من الحوادث على عاتق الدول وسافر الى السودان في طلب الذهب .

---

(٤٣٠) ميدم الى نسلرود : ٢٨ حزيران سنة ١٨٣٨ المحفوظات الروسية في مصر ج ٣ ص ١٣١-١٣٢

(٤٣١) ميدم الى نسلرود : ١٧ تموز سنة ١٨٣٨ المحفوظات نفسها ج ٣ ص ١٥٤

(٤٣٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٦٩-١٧٠

(٤٣٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٩٢-٢٠٢

الفصل التاسع

معاهدة بلطه ليمان

١٦ آب سنة ١٨٣٨

ويستدل من تقارير قناصل بريطانية في جميع انحاء الدولة العثمانية ومن ابحاث داود اركت وهنري بولور بصورة خاصة ان تجار بريطانية وجميع تجار الفرنجة آنئذٍ كانوا يئنون من اوضاع ادارية عثمانية معينة عرقلت اعمالهم وشلت تجارتهم .

من ذلك قول السر روبرت غوردن في تقرير له رفعه في الحادي عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٣٠ انه كان يتوجب على ربابنة السفن التجارية الذين يودون الوصول الى البحر الاسود ان يتقدموا بطلب خطي بهذا المعنى الى ترجمان السفارة فيقدمه هذا بدوره الى الريس افندي (وزير الخارجية) الذي يدفع به الى ناظر الكمرك للموافقة . فيعيده هذا الى الخارجية ويتسلمه كاتب يسجل موافقة « الريس افندي والكمرك ناظري » . ثم يطلع المميز على نص الرخصة السلطانية بهذا المعنى فيرسلها هذا بدوره الى البكلكجي الذي يوافق على ورود العبارة « هذه ارادتنا السنية » . وتعاد الرخصة هذه الى الريس افندي فيوقع امضاءه عليها ويأمر بتسجيلها . ثم يرسلها الى الطره جي لرسم الطرة السلطانية عليها فتبرز عندئذ كاملة صالحة للاستعمال بعد ان تمر على ما لا يقل عن اثني عشر موظفاً[٤٣٦]

ومن ذلك ايضاً ان جميع البضاعة الاجنبية كانت تخضع لتعرفة كمركية لدى دخولها الى اراضي الدولة العثمانية قدرها ثلاثة في المئة تضاف اليها ثلاثة اخرى لدى انتقالها الى حوزة

---

(٤٣٦) المحفوظات البريطانية — راجع كتاب هارولد تمبرلي ص ٣٣

الرعايا فثلاثة او اربعة غيرها لدى انتقالها بـين المناطق وهكذا دواليك حتى يصبح مجموع الضريبة بين الاربعين والستين في المئة[٤٣٥] .

ولمس العزيز هذا التصعيب والتعسير فعين في اوائل السنة ١٨٣٧ مجلساً خاصاً للنظر فيه قوامه مصطفى مختار بك ناظر المدارس وباسيليوس غـالي بك مدير الحسابات المصرية ومحمد شريف باشا حكمدار الشام ومحمد حبيب افندي . وبعـد الدرس والبحث وتصفح وجوه الرأي في هذا الموضوع استصوب الاعضاء اتخاذ الاجراءات التالية :

اولًا : وجوب استيفاء الرسوم الكمركية مرة واحدة لا غير وذلك في اول ميناء او بندر تصل البضاعة اليه ووجوب اعطاء صاحب البضاعة تذكرة تخليص تمكنه القيام بعد ذلك الى الجهة التي يختارها دون ان يدفع اي رسم هناك ما دام يحمل هذه التذكرة .

ثانياً : وجوب اعتبـار كمارك الاسكندرية ورشيد ودمياط وينبع البحر وجدة كمارك اصلية والغاء غيرها من كمارك مصر والحجاز وابقاء كاتب واحد لدى كل من محافظتي السويس والقصير تكون مهمتها الاطلاع على تذاكر التخليص حتى اذا كان ثمة تاجر لا يحمل تذكرة استوفيت منه الرسوم الكمركية عما ينقل من بضاعة .

ثالثاً : وجوب الغاء الرسوم الكمركية في بولاق ومصر القديمـة والاسكندرية ورشيد ودمياط والسويس عن منتجات القطر المصري التي يحملهـا الاهالي التجار لبيعها في اسواق هذه الجهات . وتعيين ناظر وكاتب للاجراءات الخاصة بالبضائع التي ترد من السودان. وان يعهد الى الناظر الذي سيقيم في مصر القديمة بشؤون كركي باب النصر وباب الفتوح اللذين هما ممر البضائع الشامية التي تصل عن طريق البر بدون تذاكر تخليص .

رابعاً : وجوب استبقاء كمارك غزة ويافه وحيفا وعكة وصور وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية والاسكندرونة وترسوس وادنه . ولما كانت الرسوم في اللاذقية والاسكندرونة هي رسوم مرورية فقط وقد جرت العـادة انْ تستوفى الرسوم الكمركية عن البضائع التي ترد الى هذين البلدين في حلب فان المصلحة تقضي بابقاء كمرك حلب وذلك لاستيفاء الرسوم عن البضاعة التي تمر بالبلدين المذكورين وعن تلك التي تصل من بغـداد والاناضول بدون تذاكر تخليص .

خامساً : وجوب الغاء كمارك حماه وحمص ودمشق ونابلس والخليل وتعيين نظار وكتاب في هذه البلدان للاطلاع على تذاكر التخليص واستيفاء الرسوم عن البضائع غير المخلصة .

(٤٣٥) المرجع نفسه ص ٣٤

سادساً : وجوب استيفاء الرسوم في جميع الكمارك على وتيرة واحدة حيث يخصص قدر ما في المئة ويستوفى هذا القدر في جميع الكمارك على نظام واحد . ووجوب استيفاء ثلاثة في المئة عن المواد والبضائع الداخلية التي ترد الى الكمارك القائمة في البلدان والامصار التابعة للحكومة الخديوية او تصدر عنها . وفي حال اعتراض التاجر على قدر القيمة التي ثمنت بها بضاعته يجوز له دفع الرسوم نوعاً مع عدم استيفاء اي رسم عن بضاعته مرة اخرى[٤٣٦].

ولدى اطلاع العزيز على هذا القرار أحاله الى بوغوص بك ليبدي رأيه فيه فأجاب بوغوص ان الظروف السياسية تقضي بتاجيل البت في ذلك ريثما يعلن الباب العالي موقفه من قضية الكمارك ذلك ان الدول الاوروبية تبحث لوضع تعرفة جديدة تتراوح بين الثمانية والتسعة في المئة شرط ان تستوفى مرة واحدة وان تشمل التجارة الداخلية وان الباب العالي يحاول صرف النظر عن التجارة الداخلية وارضاء الدول بجعل الرسم الكمركي عن البضائع الاوروبية خمسة الى ستة في المئة . فاذا ما نفذت مصر ترتيبها الجديد جاعلة رسمها الكمركي ثلاثة في المئة اصبح عملها هذا من دواعي التعيب[٤٣٧].

والواقع ان الحكومة البريطانية كانت قد بدأت تفاوض الباب العالي في هذا الموضوع منذ ان عاد الاحرار الى الحكم في السنة ١٨٣٥ ذلك ان محموداً الثاني كان قد غالى في سياسة الاحتكار والالتزام فكثر عدد المحتكرين والملتزمين وتنوعت اساليبهم فضج تجار الفرنجة من اعمالهم وشكوا امرهم الى حكوماتهم . فهب الفيكونت بالمرستون في السنة ١٨٣٥ يؤكد على البارون جون بونسونبي سفير بريطانية في الآستانة بوجوب الحد من سياسة الاحتكار والالتزام للوصول الى وضع جديد يفسح مجالاً اوسع للاتجار مع الدولة العثمانية ويسهل عمل التجار البريطانيين فيها . ووافق هذا وجود شخص بريطاني ملم في شؤون الدولة العثمانية يقوم بوظيفة سكرتير في السفارة البريطانية هو داود اركت الشهير وأشغل الوظيفة بعده بريطاني اخر هنري بولور كان على جانب كبير من الحذق والنشاط فنجحا في تذليل بعض العقبات . ولكن السبب الاكبر في القضاء على سياسة الاحتكار والالتزام كان قناعة السلطان نفسه بوجوب التغيير والتبديل . فهو الذي لجأ الى الاكثار من الاحتكار والالتزام لتغطية بعض النفقات الطارئة وهو الذي قال في الوقت نفسه بالتجدد والاصلاح والاقلاع عن بعض العادات القديمة . وكان السلطان علاوة عما تقدم مولعاً بالبارون جون بونسنبي شديد

(٤٣٦) باقي بك الى سامي بك : المحفوظات الملكية المصرية ج٣ ص ٢٢١-٢٢٤

(٤٣٧) بوغوص بك الى سامي بك : المحفوظات نفسها ج٣ ص ٢٢٥-٢٢٦

الاحترام والتقدير لشخصيته كثير الاحتكاك به يستشيره في كثير من اموره ويعلق الامال على ما تقدمه حكومته من معونة في نزاعه من العزيز . وجاءه السفير الصديق يقول بان منع الاحتكار سيضرب العزيز في نقطة حيوية من موارد ثروته فوافق السلطان كل الموافقة وتبنى رأي بالمرستون وبونسنبي وعقد مع حكومة جلالتها البريطانية معاهدة بلطه ليمان الشهيرة في السادس عشر من آب سنة ١٨٣٨

وقضت بنود هذه المعاهدة بتحريم الاحتكار في جميع انحاء السلطنة وبجباية ثلاثة في المئة عن البضائع البريطانية لدى دخولها الاراضي العثمانية وتسعة بالمئة عنها ايضاً لدى بيعها في الداخل . وأوجبت المعاهدة ايضاً فرض ضريبة على جميع ما يصدره التجار البريطانيون عن البضائع العثمانية قدرها ثلاثة في المئة يضاف اليها اثنان في المئة كضريبة داخلية . ثم ثبتت المعاهدة حق البريطانيين بالتملك ووجوب حمايتهم كما سبق ان نصت بـه الامتيازات السابقة[٤٣٨] .

واحتج السفير الروسي لدى السلطات العثمانية على عقد هذه المعاهدة في اثناء غيابه ونعتها بانها ضرب من الدس . وأسرع الاميرال روسان الى عقد معاهدة مماثلة فلم يتم له ذلك قبل الخامس والعشرين من تشرين الثاني . اما دى تسته سفير هولندة الذي رافق التفاوض بشأن هذه المعاهدة فانه استحسنها وتوقع عقد مثلها مع سائر الدول[٤٣٩] .

اما العزيز فانه لم يتوان قط في قبول بنودها معلناً انها ستكون سبباً في زيادة ثروته زيادة تفوق ما كانت تجلبه له محتكراته[٤٤٠] . فأزال موقفه هذا ما كان قد لحق بالاميرال روسان من تردد وسارع هذا الى اعداد معاهدة مماثلة بين الباب العالي وبين فرنسة[٤٤١] . ولكن العزيز لم يبدأ بتطبيقها قبل السنة ١٨٤٢ نظراً لانشغاله بالحرب الشامية الثانية[٤٤٢] .

---

(٤٣٨) راجع مجموعة هونسلت : المعاهدات – تركية (١٨٧٥) ص ١–٤٠

(٤٣٩) مؤلف الدكتور هارولد تمبرلي المشار اليه آنفاً ص ٣٦–٣٧

(٤٤٠) تاريخ حياة الفيكونت بالمرستون لهنري بلوور ج٢ ص ٢٥٧

(٤٤١) بوتينيف الى ميدم : المحفوظات الروسية في مصر ج٣ ص ٢٣١–٢٣٢

(٤٤٢) الكونت شوهان – رابو لى غيزو : مصر واوروبة – مجموعة ادوار دريو ج٥ ص ٣٥٠ وما يليها . راجع ايضاً محمد شريف باشا الى حسين باشا : المحفوظات المصرية ج٤ ص ١٣

الفصل العاشر

العزيز وطريق الهند

١٨٣٤ - ١٨٣٩

وسخّر العلماء البخار في اواخر القرن الثامن عشر لتحسين المواصلات في البر والبحر . وتبعهم غيرهم في اوائل القرن التاسع عشر فأحسنوا الصنع وأجروا القطارات والسفن. وهبَّ رجال السياسة والحرب يسخرون العلم بدورهم لمآربهم وأغراضهم . ورأت الحكومة البريطانية ان تستعين بالبخار لتقصير طريق الهند . فأوفدت الوفود الى بلدان العرب وخصَّت العراقَ وبرّ الشام باكثرهم . وارجأت البحث في البحر الاحمر وبرزخ السويس الى حين آخر. وذلك لاسباب اهمها ان سلوك الانهار بالبخار كان لا يزال اسهل من سلوك الابحار وان مصر وبرزخها كانا في قبضة رجل قوي عظيم وان الارياح الجنوبية الغربية كانت لا تزال تعرقل الملاحة في بحر العرب زهاء اربعة اشهر من كل عام وان الروس كانوا قد بدأوا يهددون الهند من كل صوب في البر وانهم كانوا قد أجروا السفن البخارية في الفولغه وقزوين .

وكان في طليعة الموفدين للدرس والتنقيب المستر فرنسيس تشزني الذي أمَّ الآستانة في السنة ١٨٢٨ « ليتطوع في الجيش العثماني ويحارب الروس » . ولكنه وصل بعد ان وضعت الحرب اوزارها فعمل مدة من الزمن كمراقب عسكري في جيوش السلطان ثم وضع نفسه تحت تصرف السفير البريطاني السر روبرت غوردن . فأوفده هذا الى مصر ليدرس فيها امكانية تقصير طريق الهند كما سبق فأشرنا . وما ان وصل اليها (ايار سنة ١٨٣٠) واتصل بقنصل بريطانية فيها المستر جون باركر حتى اطلعه هذا على مجموعة من الاسئلة التي وجهها

اليه « بيت الهند » للاجابة عنها وجميعها يتعلق بالمفاضلة بين وصل الهنــد بالمتوسط عن طريق العراق وبر الشام وبين وصلها عن طريق البحر الاحمر ومصر . فأخذ فرنسيس هذه الاسئلة ودرسها ثم قام يبحث في امكانية وصل البحر الاحمر بالابيض بترعة عبر برزخ السويس . فتبين له ان ارتفاع البحرين واحد وان لوبير مهندس نابوليون اخطأ في اعتبارهما غير متساويين. ولكن المراجع البريطانية لم تعبأ بتقريره هذا واكتفت بان سمحت بحفظه . وترا.ى له وهو في مصر ان يبحث في امكانية اجراء السفن في نهر الفرات فاذن له بذلك وقام في اواخر السنة نفسها الى بر الشام لدرس الفرات واطل عليه في السادس والعشرين من كانون الاول . وفي الثاني من كانون الثاني سنة ١٨٣١ كان قد وصل الى عانة واستاجر فيها زورقاً ونوتيين يعاونانه في رحلته الى مصب الفرات . وما ان شرع حتى لمس صعوبات وصعوبات اهمها عداء القبائل المجاورة وخوفه من معاونيه وقلة الطعام لديه . ولدى وصوله الى الفالوجة خرج من زورقه قاصدًا بغداد ليتصل بالمعتمد البريطاني فيها الماجور روبرت تايلر. ولما دخل عليه وتحدث اليه علم بما اصاب غيره من الباحثين البريطانيين فخارت عزائمه وانثنى عن عزمه . ولكن المعتمد عاد فشدد قواه حتى وصل الى البصرة في اواخر نيسان . وقام منها الى المحمرة فتبريز فطرابزون فحلب فالآستانه فبلاد الانكليز . ويظهر من تقاريره الاولى عن رحلته انــه لم يكن شديد التفاؤل بامكانية الملاحــة في الفرات نظرًا لوجود المستنقعات في مجرى النهر الاسفل ولقلة سرعة المياه وعداء القبائل . ولكنه بعد ان وصل الى لندن عاد عن تشاؤمه هذا واستحسن اعادة النظر كما سنرى[٤٤٣] .

ولدى وصول فرنسيس تشزني الى لندن احاطه الجمهور بهــالة من الاعجاب والتقدير واستدعاه الملك اليه ليبحث معه شؤون الشرق السياسية فأثر هذا كله في نفسه وجعله يعيد النظر فيما ذهب اليه فخفّ تشاؤمه وانشطر الساسة من جراء ذلـك الى شطرين في موقفهم من الفرات . وكان الجو مُفعماً بالظن في روسية ومطامعها في الشرق الاوسط فاستمسكت الحكومة بمشروع الفرات لاسباب ستراتيجية وأعلن بالمرستون وزير الخارجية تاييده للمشروع وألفت لجنة نيابية خاصة للنظر فيــه شملت ستة وثلاثين عضوًا ! ودرست اللجنة الموضوع درساً واستمعت الى آراء الخبراء فيه وبين هؤلاء فرنسيس تشزني وتوماس بيكوك وتوماس ووغورن وجايمس بيرد ثم رفعت تقريرًا بذلــك الى مجلس العموم مستحسنةً اجراء السفن البخارية في الفرات وفي البحر الاحمر في وقت واحد وذلك لاسباب اهمها انالفرات يكون صالحًا

---

(٤٤٣) راجع كتابه في هذا الموضوع ص ٤–٥ و ١٠–١١ و ١٧٢–١٧٣ و ٢٦٤–٢٧٣

للملاحة في اثناء الاشهر الاربعة (حزيران الى ايلول) التي تهب فيها الرياح الموسمية في بحر العرب وان هذا البحر يكون صالحاً للملاحة في اثناء انخفاض مياه الفرات (تشرين الثاني الى كانون الثاني) وأوصت المجلس بفتح الاعتمادات اللازمة لتسيير مركبين بخاريين في الفرات سنة كاملة على سبيل التجربة والامتحان . فتبنى المجلس تقرير اللجنة وطلب مكتب الهند الى فرنسيس تشزني ان يتولى هذا الاختبار — آب سنة ١٨٣٤[٤٤٤] فانتقى فرنسيس رجاله انتقاء وأحاط نفسه بخمسين معاوناً بينهم الضابط البري والضابط البحري والخبير الصناعي ورجل السياسة والادارة.

وطلبت الوزارة الخارجية البريطانية الى سفير جلالته في الآستانة اللورد بونسونبي ان يستصدر فرماناً سلطانياً يؤذن بعمل هذه البعثة. ورقت الكابيتان فرنسيس تشزني الى رتبة كولونيل وجعلته يقوم بمهمة خاصة رسمية . وجاء نص هذه المهمة يبين ان الكولونيل تشزني يسعى لربط ممتلكات التاج في الشرق بالبحر الابيض المتوسط وذلك بسفن بخارية تمخر في نهر الفرات . واوجب النص الرسمي للوصول الى هذه الغاية بجميع الوسائل السلمية وبالتعاون مع حكومة دولة صديقة لا بد من الحصول على رضاها ومعونتها . وأصدر السلطان فرمانه في التاسع والعشرين من كانون الاول سنة ١٨٣٤[٤٤٥].

وقامت البعثة من ليفربول في الرابع من شباط سنة ١٨٣٥ متجهة نحو مالطة فقبرص فخليج انطاكية على الساحل الشامي ووصلت الى قرية السويدية على هذا الشاطئ في الثالث من نيسان من السنة نفسها . واتصل قنصل بريطانية في دمشق المستر فرن بالحكمدار محمد شريف باشا راجياً تسهيل عمل البعثة فأمر العزيز بالتريث الى ان يصل البلاغ الرسمي بذلك من حكومة الباب العالي[٤٤٦]. ثم طلب الى ناظر الخارجية لديه ان يزوده بخريطة لنهر الفرات. وبعد ان اطلع عليها كتب الى ابنه ابراهيم يبين له الخطر على مصر والاسلام من بعثة الفرات ويعزو ذلك الى وقوع روم قلعة وبيره جك ضمن الحدود المصرية ثم يرتأي التنازل عنها لدرء هذا الخطر ولجعل حكومة الآستانة مسؤولة عنه . وفي الحادي والعشرين من نيسان من السنة نفسها عاد فكتب الى ابراهيم يقول ان الظروف السياسية تضطره لتعديل

---

(٤٤٤) وقائع المجلس البريطاني (هانسارد) : السلسلة الثالثة ج٢٥ ص ٩٣٠-٩٣٢

(٤٤٥) اوراق البرلمان البريطاني سنة ١٨٣٧ رقم ٥٤٠ ص ٥ ومجموعة هرتسلت ج١٨ ص ٨٣٨

(٤٤٦) محمد شريف باشا الى سامي بك ومحمد علي باشا الى بوغوص بك : المحفوظات الملكية ج٣ ص ٤٩٣ و ٤٩٧

موقفه من بعثة الفرات ولذا فانه يطلب اليه ان يصرح للمراكب بتفريغ محولها الى البر[٤٤٧] . ورأى ابراهيم ان يتبع سياسة التاجيل فاضطر الكولونيل تشزني ان يهدد برفع شكواه الى حكومة الملك نظراً لما يلحق به من خسارة اذا طال بقاؤه في السويدية . فكتب ابراهيم الى والده في السابع من ايار يقول : لنفرض اننا اتفقنا مع الدولة ومنعنا الانكليز من تنفيذ طلبهم فماذا يكون حالنا اذا اعلنوا الحرب علينا واحتلوا جزيرة كريت وقطعوا تجارتنا في البحر . واذا كان الغرض من انشاء القلعة على الفرات هو تمهيد السبيل للاستيلاء على بغداد فكيف يمكننا ان نردهم عن بغداد اذا زحفوا عليها بثمانين الفاً من الهنود . اما اذا كان الغرض من انشاء هذه القلعة على الفرات هو المحافظة على سلامة الملاحة في نهر الفرات فلماذا لا نتحاشى كسر خاطرهم ونتعهد نحن بتامين مواصلاتهم[٤٤٨] . وفي اواخر ايار تمكن الكولونيل كامبل من اطلاع العزيز على الفرمان الذي يؤذن بتسهيل اعمال البعثة فكتب العزيز الى ابنه يوجب السماح للبعثة بنقل امتعتها الى وادي الفرات وتقديم المساعدة لها واجلاء الموظفين المصريين عن بيره جك وروم قلعة كي لا تصل الامتعة الى هذين المحلين وهما في حوزة الحكومة المصرية[٤٤٩] . وحوالي العشرين من تشرين الثاني اتصل بوغوص بك بالكولونيل كامبل وتحدث اليه في موضوع البعثة فأظهر ارتياحه وسروره[٤٥٠] .

واتخذت البعثة من بيره جك مركزاً لاعمالها فاقامت فيها البيوت الخشبية والمستودعات وأطلقت عليها اسم « حصن وليم » . وفي ربيع السنة التالية ١٨٣٦ انزل الكولونيل تشزني مركبيه البخاريين الى الفرات وبدأ رحلته الاستكشافية فسبر غور الفرات وقاسه قياساً علمياً كاملاً فأتحف العالم بخريطة دقيقة لوادي الفرات لاول مرة . ولدى وصوله الى منتصف النهر هبت عاصفة رملية قوية اغرقت احد المركبين واكثر من فيه من الرجال . فاضطر الكولونيل ان يكمل استكشافه بمركب واحد ووصل الى البصرة في التاسع عشر من حزيران من السنة نفسها فاستغرقت رحلته هذه ثلاثة اشهر كاملة .

وكان السر جون مالكولم حاكم بومباي قد اخذ على عاتقه في السنة ١٨٢٩ القيام بعمل مماثل في البحر الاحمر . فوضع تحت تصرف الكومندار مورسبي سفينة بحارية خاصة واودع

(٤٤٧) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج٢ ص ٥٠٤ و ٥١٣ و ٥١٤
(٤٤٨) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ج٣ ص ٢
(٤٤٩) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ايضاً ج٣ ص ١٠ و ١١ و ١٢
(٤٥٠) محمد بوغوص بك الى سامي بك : المحفوظات كذلك ج٣ ص ٦٥

الفحم اللازم لها في السويس وغيرها من مرافئ البحر الاحمر . ووصلت السفينة الى السويس ولكن لدى عودتها الى الهند اصطدمت بسفينة اخرى تعاونها بجزيرة من جزر هذا البحر فغرقت . وعادت سفينة مورسبي وحدها الى الهند . وادى اهتمام السر جون بملاحة البحر الاحمر الى احتلال جزيرة سوقطرة وانشاء مستودعات للفحم والمياه فيها . ولكن كثرة الوفيات فيها من الحمى وغيرها من الامراض ادت الى اخلائها في السنة ١٨٣٥ . وفي مطلع السنة ١٨٣٧ جنحت سفينة هندية تحمل العلم البريطاني الى الماء القليل بالقرب من عدن فلزقت بالارض . وما ان علم البدو بذلك حتى دخلوا اليها وسلبوا ركابها واغتصبوا نساءها. فثار ثائر حاكم بومباي ورأى ان يتذرع بما جرى لاحتلال مرفأ عدن وجعله محطة للسفن الهندية بين بومباي وبين السويس . وبعد موافقة الحكومة البريطانية اوفدت الحكومة الهندية الكابيتان هاينس للمفاوضة مع سلطان عدن في مطلع السنة ١٨٣٨ وبعد اخذ ورد وافق السلطان على بيع المرفأ لقاء مبلغ سنوي قدره ٧٨٠٠ ريال وكتب بهذا كتاباً الى المفاوض الانكليزي . غير انه عاد فرفض المفاوضة رفضاً باتًّا . فعاد اليه الكابيتان هاينس بعد عام كامل بقوة صغيرة واحتل عدن احتلالاً في يوم واحد في السادس عشر من كانون الثاني سنة ١٨٣٩[٤٥١] .

وعلى الرغم من توسع العزيز في العسير وما يليها في هذه الفترة نفسها فان مشاكله مع الباب العالي واستعداداته للحرب الشامية الثانية منعته عن مقاومة الانكليز . ويذهب القنصل الفرنساوي المعاصر فيكتور فونتانيير الى ابعد من هذا فيرى العزيز يعاون الانكليز بتوسطه فيوطد اقدامهم في عدن[٤٥٢] .

وكان العزيز منذ السنة ١٨٣٥ قد وافق على ربط الاسكندرية بالسويس بخط حديدي يمر في القاهرة وأوفد قلواي بك ابن اسكندر قلواي الانكليزي الى بلاد الانكليز لابتياع المعدات اللازمة ولمفاوضة الحكومة البريطانية في ذلك كله . ولكن توتّر العلاقات بين العزيز وبين السلطان وميل الحكومة البريطانية الى هذا دون ذاك جعلاها تحجم عن الموافقة. واضطر العزيز ان يصرف النظر عن هذا المشروع[٤٥٣] .

---

(٤٥١) اوراق البرلمان البريطاني ١٨٣٩ رقم ٢٦٨ ص ٣٠ و ٣٢-٣٧ و ٤٠-٦٧ و ٩٢

(٤٥٢) اطلب المجلد الثاني عن رحلته في الهند ص ١٦٧ و ١٦٨

(٤٥٣) اوراق البرلمان البريطاني ١٨٣٧ رقم ٥٣٩ راجع ايضاً جريدة التايمس : ٣ تشرين الاول سنة ١٨٣٥

الفصل الحادي عشر

نزب

٢٦ حزيران سنة ١٨٣٩

ورأى السلطان ان يستغل تسابق الروس والانكليز لاسترضائه وان ينتهز فرصة تغيب العزيز في السودان لصالحه فاسرع الى تعزيز قواته على حدود بر الشام وكتب الى حافظ باشا قائد قواته هذه يقول : لقد طغت مصر بالعصيان وجهرت بالاستقلال وذهبت جهودي ادراج الرياح فلم يبقَ امامي الا الحرب . ولديك ستون او سبعون الف مقاتل ومئة وعشرون مدفعاً. فعليك ان تستميل القادة وتمنيهم بالترقية وان تتصل بسليمان باشا الفرنساوي فتستغويه وتستهويه وان تعد الضباط العرب من رجال محمد علي بالترقيــة اذا مالوا الينا والتحقوا بنا . وعليك ان تبلغ العشائر والشعوب الخاضعة لمحمد علي انهم اذا قاموا معنا نالوا ما يرغبون . ولا بد من قيام الاسطول بعشرة الاف رجل الى طرابلس فحالمــا ينطلق الجيش من مرعش ابعث برسلك الى الدروز والمتاولة وازحف الى حلب ومنها على دمشق فعكة فمصر[٤٥٦] .

وكانت قوى السلطان هذه تتالف من جيوش ثلاثة اعظمها واهمها جيش الفرات بقيادة القائد العام حافظ باشا ومقره ملاطية وجيش محمد عزت باشا ومقره انقرة وجيش حاجي علي باشا ومقره قونية . وكان يعاون حافظاً عدد من الضباط الاوروبيين وعلى راسهم الكابيتان

---

(٤٥٦) بتصرف عن الاصل الذي وجد في خيمة حافظ باشا بعد نزب : مجموعــة ادوار دريو ج ١ ص ٩٢-٩٤

فون مولتكي الذي اصبح فيا بعد قائد القوات الالمانية في حرب السبعين . ولازم محمد عزت باشا ضابط الماني اخر البارون فون فنكي والتحق بحاجي علي باشا الضابط الالماني فيشر . وكان القائد العام حافظ باشا على جانب عظيم من الورع والتقوى والفضيلة والكرم يجيد لغات ثلاث التركية والعربية والفارسية ويتحلى بالشجاعة والدراية في الحروب . وكان محبوباً من الاهالي والجند[٤٥٥] .

وتألف الجيش المصري الذي اشترك في حرب الفرات من الوية مشاة خمسة والوية فرسان اربعة وفرقة الحرس وثلاثة الايات من المدفعية . فاصبح مجموع الجيش المحارب خمسين الفاً وعدد مدافعه مئة واثنين وستين . وقاد فرقة الحرس الفريق عثمان باشا والوية الخيالة احمد منكلي باشا . وقاد الجيش باكمله ابراهيم باشا ورئيس اركان حربه سليمان باشا الفرنساوي . وكانت معنويات المصريين عالية ولا غرو فقد حاربوا معارك كثيرة وخرجوا منها ظافرين[٤٥٦] .

وكانت القيادة العثمانية منذ اواخر ايام محمد رشيد باشا سلف حافظ باشا قد بدأت تستميل رؤساء العشائر على الحدود وتستفزهم الى الثورة . واشتهر بين هؤلاء في مطلع سنة ١٨٣٩ حاجي عمر اوغلو الذي حض عشائر كورد داغ على الثورة والسلب والنهب ومصطفى بك ابن كوجوك علي بك متسلم بياس السابق الذي عاث في الناس فساداً وقتلاً قبيل الفتح المصري وتوارى في ظلام كاور داغ بعد هذا الفتح ليخرج منه بين آونة واخرى سالباً قاتلاً . ويقول الكاتبان المعاصران الافرنسيان كادالفان وبارو ان القيادة العثمانية فعلت مثل هذا مع الشهابي الكبير واحفاده فحضتهم على الثورة ولكن شيئاً من هذا لم يبق في المحفوظات الملكية المصرية او في سائر الاصول المعروفة .

وهكذا فاننا نرى ابراهيم يكتب الى الباشمعاون في ربيع السنة ١٨٣٩ فيقول ان الخصم منصرف الى إعمال اصابع التحريض والتقدم في الاراضي المصرية في آن واحد وانه يتبع في حال الهجوم الخطة التالية : تسير فرقة من فرقه على حلب وتقوم فرقة اخرى الى عينتاب وتتحرك فرقة ثالثة عن طريق مرعش وتتوجه فرقة غيرها الى كولك بوغاز وان علي باشا والي بغداد ومحمد باشا اينجه بيرقدار اوغلو يقومان من ماردين ويسيران بموازاة الفرات الى ان يصلا الى موضع يقع على طريق بغداد ويبعد عن بيره جك اربعاً وعشرين ساعة وعن

---

(٤٥٥) تاريخ مصر العسكري للجنرال ويغان ج ٢ ص ٩١-٩٢

(٤٥٦) التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير للقائمقام عبد الرحمن زكي بك ص ٤٥٦-٤٦٦ المسألة الشرقية لكدالفان وبارو ج ١ ص ١٢٨-١٣٥

حلب وحماه والمعرة خمس عشرة ساعة . فاذا ما اجتاز علي باشا الفرات وانطلق عرب الجربه الى نواحي حماه وحمص ودمشق اصبح شرق بر الشام من المعره الى دمشق خراباً بلقعاً[٤٥٧] .

والواقع ان العثمانيين بدأوا يتحركون في اوائل نيسان فغادروا مراكزهم ونزلوا مهرولين الى بيره جك والفرات وانشأوا الطوابي ثم اجتازوا الفرات في منطقتهم الى ضفته اليمنى بجد ونشاط واقتربوا من عينتاب وتوجهوا في اتجاه كولك[٤٥٨] . فكتب ابراهيم الى مصر يطلب النجدة ويؤكد انه سيجمع جميع ما لديه في بر الشام اذ انه بمقدوره ان يسوس هذا القطر باورطتين من الجنود وبنصارى جبل الدروز اي لبنان — يقول هذا فيسأل هل يهجم عليهم اذ وجد فيهم نقطة ضعيفة ام ينتظر الى ان يصلوا الى اراضيه[٤٥٩] .

فأجابت مصر ان حكومة روسية اتصلت بقنصلها مشددة عليه وجوب السعي لمنع وقوع الحرب وان الجناب العالي يرى ان حركات العثمانيين على الحدود توجب عليه اما الانتظار الى ان يصل الى هدفه بموجب ترتيباته او مماشاة القناصل في الامر وان المصلحة تقضي بالتحفظ الشديد كي لا تبدأ مصر بالحرب[٤٦٠] . فقام ابراهيم يعمم هذا الامر ويشدد على ضباطه بوجوب اتباعه فكتب الى مجد كلشف في الثاني والعشرين من ايار يقول: تتحدثون عن ذلك السباهي الذي اطلق عليكم البندقية ودخل الاراضي التابعة لنا ثم تستعلمون فرهاد بك عم اذا كان يجوز لكم ان تطلقوا البنادق فيما اذا اطلقها عليكم امثال السباهي المار الذكر. اعلموا ان الموقف الان غيره فيما مضى بحيث اذا اطلق اي واحد بندقية اولاً على شخص آخر فهؤلاء يقضون عليه . اياكم ان تقتربوا من الحدود ويجب عليكم ان تبتعدوا منها دائماً على مسافة ساعتين وان لا تطلقوا عليهم بنادق ما لم ياتوا هم الى مكانكم ويطلقوها عليكم . وان قلت اذا ضربناهم اولاً فسيكون ذلك في صالحنا بخلاف ما اذا ضربونا هم اولاً فانه يضرنا فلا بأس لان الموقف كما ذكرت . فيجب ان تبتعدوا عن الحدود دائماً مسافة ساعة او ساعتين. اياكم ثم اياكم من ان تطلقوا البنادق ما لم يطلقوا هم بنادقهم اولاً وان لم تفعلوا كما قلت فستذهب ادراج الرياح جميع الاتعاب التي قاسيتها الى الان . فاطلب اليك بصفة قطعية مراعاة هذه النقطة بدقة بالغة وتعمل على ضبط جماح العرب[٤٦١] . وكتب في

(٤٥٧) ابراهيم باشا الى حسين باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٤١—٤٢ و ٨١

(٤٥٨) ابراهيم باشا الى حسين باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٣٣ و ٣٩

(٤٥٩) ابراهيم باشا الى حسين باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٣٥ و ٣٩

(٤٦٠) المية السنية الى ابراهيم باشا ١١ ايار سنة ١٨٣٩ : المحفوظات ايضاً ج ٤ ص ٥٣

(٤٦١) المحفوظات كذلك ج ٤ ص ٧٣—٧٤

الاونة نفسها الى علي خورشيد باشا حكمدار ادنه يقول : ان ما يقصده الخصم من وراء هذه الضجة هو استفزازنا . وهو يعتقد اننا اذا ما شاهدنا اقترابه من حدودنا كبر علينا ذلك وعمدنا الى قتاله . فيقول اذ ذاك الى الافرنج ان الخصم بادأنا العدوان(٤٦٢) .

وحوالي الثلاثين من ايار اجتمع ابراهيم باحمد منكلي باشا وسليمان باشا واسماعيل عاصم بك حكمدار حلب وتداول الرأي معهم فقر قراره على القيام بسبعة او ثمانية الايات من الفرسان واثنتي عشرة بطارية من المدافع الى تل الشعير في منتصف الطريق بين حلب وعينتاب ورأى ان الخصم سيتبع هذا الطريق في هجومه على كلس او حلب وان الحرب واقعة قريباً و«ان النصر سيمن به على المصريين ان شاء الله» . ثم رأى في الوقت نفسه انه اذا ما دحر الخصم وعاد الجيش المصري الى حلب يتمكن العدو من تشكيل جيش اخر واعادة الكرة ولذا فانه طلب الى الباشمعاون تبيان الخطة التي يجب اتباعها بعد قهر الخصم . فهل يسير في اثره حتى ملاطية ويتحول الى اليسار حتى يبلغ قونية ام يزحف راساً على كولك ام يبقى في مكانه بعد وقوع الهزيمة ورجا ايضاً الا يتاخر الرد على سؤاله هذا كما حدث بعد موقعة بيلان اذ تاخر وصول الرد اسابيع ثلاثة . واضاف السرعسكر في خطابه هذا الى الباشمعاون : لقد طلبتم الينا الا نكون البادئين في اطلاق النار . فها ان الخصم يتقدم فهل نتراجع الى الوراء . متى وصل وهل نتقهقر حتى نبلغ مصر ؟ لا بد لنا من اطلاق النار متى وصل(٤٦٣) . فاجابه الباشمعاون بما يلي : عندما يتم دحر الجيش يزحف على مرعش وخربوط وملاطية واورفة وديار بكر دون الحاجة الى الرجوع الى حلب او مداومة الزحف حتى قونية . ومتى تم الاستيلاء على هذه الجهات يجب التوقف هناك دون اي تقدم الى الامام . ويجب منع جيش الخصم المرابط على حدود ادنه من اجتياز كولك بوغاز كما انه يجب الا يتجاوز الجيش المصري كولك بوغاز(٤٦٤) .

وفي اليوم الاول من حزيران سنة ١٨٣٩ اتصل بابراهيم باشا أن طوابير خمسة من فرسان العثمانيين وصلت الى تل باشر وطردت الفرسان المصريين منها وان الايات من المشاة ترحف وراء هؤلاء الفرسان فكتب السرعسكر الى سليمان باشا في حلب يامره بالقيام اليه بالمشاة والمدفعيين . ولدى وصول هذا اليه قام السرعسكر بفرسانه الى الحدود(٤٦٥) .

(٤٦٢) المحفوظات ايضاً ج ٤ ص ٧٦

(٤٦٣) ابراهيم باشا الى حسين باشا — ٣١ ايار سنة ١٨٣٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٩٤

(٤٦٤) حسين باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٩٦

(٤٦٥) ابراهيم باشا الى حسين باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٩٧ و ١٠١

وكان مصطفى بك كوجوك علي قد اطل على بياس بجمع من العشائر يحرض ويهدد باسم السلطان فخشي ابراهيم ان يستفحل امره فيستولي على بياس وبيلان ويسري الشرر الى انطاكية فغيرها من المناطق في مؤخرته فأمر بارسال الاي المشاة الثاني بقيادة رستم بك لضربه . وكتب في الوقت نفسه الى الشهابي الكبير بوجوب ارسال الف من اللبنانيين الى جبال عكار «لتاديب بعض الحاديين الذين قتلوا متسلم ثلثي عكار ونهبوا بيته واستولوا على خزينة عكار . وكتب في الوقت نفسه الى اللواء عثمان بك في كلس يامره بالقيام الى طرابلس ليقود الالايين القادمين بحرًا اليها فيتعاون واللبنانيين في ضرب الحاديين واتباعهم[٤٦٦] .

وحوالي العاشر من حزيران كتب ابراهيم باشا الى حافظ باشا قائد الجيوش العثمانية يقول : بما ان الدول العظمى لا توافق على اصطدامنا الذي اصبح محتمل الوقوع فتظل تكتب الى قناصلها العامين في الاسكندرية مؤكدة لهم بان مولانا وولي نعمتنا حضرة صاحب الجلالة السلطان لا يجيز ذلك وبما انكم على الرغم من هذا قد سقتم على فرساننا في بولانق قوة عسكرية لضربهم وارسلتم الى بياس مصطفى بك على رأس جماعة من فرسان العشائر واوفدتم حاجي عمر اوغلو الى جبل الاكراد وسيرتم على فرساننا المناديين فرسانًا نظاميين وغير نظاميين وسلحتم قرى عينتاب واخرجتموها عن طاعتنا واستوليتم على عينتاب ووصلتم دولتكم بالامس بالايات الفرسان الى موضع قريب جدًا من معسكر جيشنا واطلقتم المدافع على فرساننا المناديين وبما انه لم يقع من جانبنا اي استفزاز فاننا نؤكد لكم اننا لسنا بخائفين . وان كان لدى دولتكم امر باعلان الحرب تفضلوا نتقاتل . والا فان كنتم تريدون ان تدهشونا بهذه المناوشات فليس هنا من يندهش منها . وخلاصة القول ان الرجولة تظهر في ميدان القتال . وقد حررنا هذه الورقة وارسلناها الى عالي مقامكم مع خادمكم محمد حاذق بك لتتفضلوا وتشعرونا بمرامكم . فرد عليه حافظ باشا برسالة مماثلة حملها الى المعسكر المصري احمد بك . وخلاصة هذا الرد ان الولاء للسلطان بالافعال لا بالاقوال وان السباهيين الذين اوفدوا لقتال المنادى انما فعلوا ذلك مدافعين عن الحدود العثمانية اذ سبق للمناديين ان اقتربوا جدًا من بيره‌جك بداعي التجسس واعتدوا على قرى اورفه ونهبوا مطحنة معينة الى ان يقول » وقد حدث ان فقد بعض هؤلاء السباهيين خيولهم واخذوا يبحثون عنها فوصلوا الى موضع تابع لعينتاب وبيره‌جك وكان هناك ثلاث مئة من الفرسان المناديين فخرج من بينهم

(٤٦٦) ابراهيم باشا الى الامير بشير الشهابي – ٥ حزيران سنة ١٨٣٩ : المحفوظات ج ٤ ص ١١٠
اطلب رسالة مصطفى بك الى اعيان بيلان : المرجع نفسه ص ١٢٠

قوة مؤلفة من نحو ثلاثين فارساً واخذوا سلاح احد السباهيين وبتروا عنقه . ولا شك ان دولتكم لا تجدون الى انكار هذه الحادثة سبيلًا . ولست اراني في حاجة الى بسط مبلغ منافاتها لروح العبودية التي تدعونها . وايًا كان الامر فاني اخطركم مخلصاً بانكم اذا ايدتم اقوالكم بالافعال كما يأمر الشرع الشريف بلغتم في ظل مولانا السلطان درجة تحسدون عليها بين الاقران »[٤٦٧] .

وما ان وصل هذا كله الى مسامع العزيز حتى امر بضرب حافظ باشا واخراجه بالقوة من الاراضي المصرية . ففي السادس عشر من حزيران كتب حسين باشا الى ابراهيم باشا يقول « ان الجناب العالي يامر بضرب العدو ورده على اعقابه نظرًا لتوغله في الاراضي المصرية وان ادى ذلك الى مقاتلة جيشه الكبير في نزب » . ثم اردف هذا بكتاب اخر في التاريخ نفسه يقول :« لقد وصل مندوب من قبل المارشال صولت وهو يرغب في مقابلة السرعسكر باشا . ولكن الجناب العالي سيعيقه عن السفر الى برالشام الى ان يتسنى للسرعسكر ضرب العدو ضربة قاضية ومجابهة الدول بالامر الواقع . فتقدموا حالًا واستعجلوا في ضرب العدو »[٤٦٨] .

وتحرك الجيش الى توزل وعبر نهر ساجور وانتقل منها الى مزار فوصلها في الساعة العاشرة صباحاً وضرب الطليعة العثمانية فيها – الايين من المشاة وخمسة مدافع وخمس مئة جندي غير نظامي – فانسحبت الى نزب واصبح المصريون على بعد ساعتين عن العثمانيين. وقام سليمان باشا يستكشف الاراضي اذ لم تك هناك خارطات تفصيلية دقيقة كما هي الحال في هذه الايام . وأدرك ابراهيم ان اقتحام مراكز العدو مجابهة امرٌ عسير فرأى ان يدور حول ميسرة الترك ليزحزحهم من مراكزهم المحصنة وشرع ينفذ هذه الخطة . وأشار فون مولتكه وزملاؤه الالمان على حافظ باشا بوجوب مهاجمة المصريين اثناء حركة الالتفاف هذه وقبل ان ترسخ اقدامهم في مواقعهم الجديدة. ولكن زملاءهم الاتراك ابوا ان يغادروا استحكاماتهم ويغامروا في قتال في العراء. وفي سهل مكشوف. واكمل المصريون حركة التفافهم هذه واحتلوا اكمة عالية تكشف مراكز العدو ونصبوا مدافعهم عليها . ثم اصلوا ميسرة الترك نارًا حامية وهجموا عليها فتلقى الاتراك الهجوم بثبات وشجاعة واستمرت نار الحرب وحمي وطيسها ونفدت ذخيرة المدفعية المصرية فتقلقل المشاة من الجناح الايمن المصري وارتدوا الى الورا.

---

(٤٦٧) ابراهيم باشا الى حسين باشا : المحفوظات ج ٤ ص ١١٦ و ١١٨–١١٩

(٤٦٨) حسين باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٤ ص ١٢١–١٢٢

فصدر الامر الى الفرسان بالهجوم فاقدموا ولكنهم اضطروا الى التراجع . ولكن ابراهيم تمكن بعد وصول المدد بالعتاد من وقف هـذا التقهقر . وما فتئ حتى بدأت كفة المعركة تميل اليه . فاستغل سليمان باشا هذا التطور وعمّ القتال الجبهة باسرهـا واصيب الفريق خالد باشا برصاصة قاتلة فلجأ الترك الى الفرار تاركين كل شيء . ووراءهم بما في ذلـك خيمة حافظ باشا واوراقه واوسمته . واستولى المصريون على عشرين الف بندقية ومئة واربعين مدفعاً . وخسر العثمانيون اربعة آلاف وخمس مئة قتيل وجريح وحوالي الخمسة عشر الف اسير . وبلغت خسائر المصريين ثلاثة الاف رجل بين قتيل وجريح[٤٦٩] .

وكتب ابراهيم الى مصر يفيد ان القتال بدأ بين الجيشين حوالي الساعة الواحدة من يوم الاثنين في الثالث عشر من ربيع الاخر (٢٦ حزيران سنة ١٨٣٩) وانه دام ساعتين فقط وان الخصم ولّى الادبار لا يلوي على شيء . في الساعة الثالثة . وان الجناح الايمن كان بقيادة سليمان باشا والايسر بقيادة عثمان باشا والقلب بزعامة وكيل باشا (اي احمد منكلي باشا) وان كلا من هؤلاء سيرفع تقريره مختوماً بخاتمه . وانه لم يخسر من كبار الرجال سوى ابراهيم بك . ثم يرجو الا يكون موقف السلطة المصرية موقفها بعد حمص وقونية : « فاذا كان لكم كلام في هذا الامر ارجو الافادة الان لا بعد سنتين »[٤٧٠] .

وقسم ابراهيم جيشه بعد نزب الى قسمين نظامي وغير نظامي فأمر الاول بالتقدم نحو قونية والثاني بالسير على اورفة وخربوط واكد المسيو كايي مندوب الحكومة الفرنسيـة ان عدم وجود المؤن في نواحي الفرات اضطره الى اجتياز الحدود والى الدخول في بلاد العـدو وامر بتشكيل جيش من اسرى العثمانيين لارساله الى الحجـاز[٤٧١] . فخشي العزيز شطط القوات المصرية وتوغلها في بلاد العدو وكتب الى ابنـه بوصول مندوب افرنسي جديد الى الاسكندرية يطالب بعدم التقدم وبوصول مندوب تركي جديد عاكف افنـدي ولذا فانه يوجب سحب القوات المصرية الى ضفة الفرات الغربية[٤٧٢] .

وتوفي السلطان محمود الثاني قبل ان تصل اخبار الهزيمة هذه الى آذانه وتولى ابنه عبدالمجيد

(٤٦٩) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي بك ج٣ ص ٣٠٠ – ٣٠٦ التـاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير للقائمقام عبد الرحمن زكي بك ص ٤٦٠–٤٨١ تاريخ محمد علي العسكري للجنرال ويغان ج٢ ص ١٠٢–١١٨

(٤٧٠) ابراهيم باشا الى حسين باشا – عن مزار ٢٦ حزيران – المحفوظات ج٤ ص ١٢٣–١٢٤

(٤٧١) ابراهيم باشا الى حسين باشا : المحفوظات ج٤ ص ١٢٤ و١٢٥

(٤٧٢) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج٤ ص ١٢٦ و١٢٧ و١٢٨

بعده ولم يبلغ السادسة عشرة. فعاد محمد خسرو باشا الى الحكم . وخاف قائد الاسطول العثماني احمد فوزي باشا مغبة حكم خسرو باشا وخليل باشا وعظمت وساوسه . فزين له وكيله عثمان باشا ان يلتجئ الى محمد علي باشا خصم خسرو باشا القديم ويسلمه الاسطول فينال مكافأة وحسن الجزاء. فاصغى فوزي باشا لهذه المشورة وكتب الى العزيز يبين ان الخضوع لخسرو وامثاله مضر بمصلحة الامة وانه سينتظر الجواب على رسالته هذه في مياه رودوس . فاجابه العزيز بان اهمية الموضوع وخطورة الموقف تقضيان ان يتبادلا الاراء شفاهاً . وطلب اليه ان يأتي بالاسطول الى مياه الاسكندرية للبحث في الموضوع[٤٧٣] . والتقى الاسطول العثماني وهو لا يزال في بحر ايجه بقطع من الاسطول الفرنسي بقيادة الاميرال لالاند وذلك في الخامس من تموز سنة ١٨٣٩ . فاتصل احمد فوزي باشا بزميله الافرنسي واطلعه على ما اضمره وعزم على تنفيذه ورجاه الا يعترضه في ذلك . فاجابه الاميرال لالاند انه ليس في التعليمات التي تلقاها من حكومته ما يخوله هذا الاعتراض[٤٧٤] . ولدى وصول احمد فوزي باشا الى رودوس اوفد وكيله الى مصر ليخبر العزيز بما عزم عليه . فابتهج العزيز ابتهاجاً عظيماً وانفذ معتمداً على السفينة البخارية النيل يبلغ القبودان باشا سروره . ثم اقلعت الدننمة العثمانيـة من رودوس بقيادة القبودان باشا الى مصر فبلغت مياه الاسكندرية في الرابع عشر من الشهر نفسه . وكان الاسطول المصري خارج البوغاز يجري بعض التمارين البحرية بقيـادة مصطفى مطوش باشا فدخل الاسطولان الى الميناء معاً وعدد سفنهما خمسون سفينة حربية تقل نحو ثلاثين الف مقاتل وعليها نحو ثلاثة الاف مدفع . وخرج القبودان باشا من سفينته في الخامس عشر متجهاً نحو البر فحيته مدافع الاسطول المصري بتسع عشرة طلقة وذهب تواً الى سراي راس التين يحيط به رهط من كبار الضباط . ولدى وصوله سلّم سيفه الى حبيب افندي المعاون ودخل على العزيز فرحب به اجمل ترحيب . وبعد القهوة والشبوق امر العزيز بانصراف الحضور وخلا بضيفه خلواً طويلاً[٤٧٥] .

وتعاقبت الكوارث فأصابت الباب العالي ثلاث مرات في ثلاثة اسابيع :هزيمة نزب ووفاة محمود وخيانة القبودان . فأصدر السلطان الحدث عفواً « لوقاية عباد الله والابتعاد عن سفك دماء المسلمين » واعلن استعداده للتعامل مع العزيز على اساس « مضى ما مضى » وأنعم عليه بوسام « ساطع » كالوسام الذي يحمله جميع الوزراء العظام و«بالقطر المصري على ان يتوارثه

(٤٧٣) محمد علي باشا الى قبودان احمد باشا : المحفوظات ج ٤ ص ١٢٧

(٤٧٤) الاميرال لالاند الى وزير البحرية: مجموعة ادوار دريو عن مصر واوروبة ج١ص١٣٦-١٤١

(٤٧٥) القنصل كوشله الى المارشال صولت – ١٥ تموز سنة ١٨٣٩ : المرجع نفسه ص ١٤٩-١٥٢

ابناؤه من بعده» شرط ان يقوم بجميع واجبات التبعية وفرائض العبودية واوفد عاكف افندي كاتب دار شورى الباب العالي ليشرح للعزيز فحوى الارادة السنية ويزف اليه بشرى صدورها ويبسط مبلغ الحاجة الى الاتحاد في سبيل جمع كلمة المسلمين وعدم تفرقهم نظراً للظروف الدقيقة التي تحيط بالدولة العلية وليدلي بالاسس التي يقوم عليه الاتحاد والاتفاق بين الطرفين(٤٧٦) .

وقام عاكف افندي كما مرّ بك ووصل الى مصر واطلع العزيز على المهمة الموكولة اليه فكتب العزيز الى محمد خسرو باشا يحيطه علماً بالعفو السلطاني وبعقد النية على توجيه ايالة مصر اليه بشكل وراثي فيشكر له نواياه الحسنة ويفيد انه اتخذ تدابير مماثلة للوصول الى الصلح ولكنه يستمسك في الوقت نفسة بالايالات الشامية . وكتب الى خليل باشا في الوقت نفسه يؤكد ان محمد خسرو باشا لا يزال على ضلاله القديم وانه لا يمكنه ان يتفاهم معه. ثم كتب الى والدة السلطان يؤكد عبوديته وولاءه واخلاصه ويشير الى مفاسد خسرو باشا مبيناً اغراضه الشخصية راجياً السعي لابعاده خدمة للدين والدولة(٤٧٧) . وكتب ايضاً الى شيخ الاسلام يأسف لوفاة السلطان محمود ويبتهج لجلوس السلطان عبد المجيد ثم يلقي نظرة عامة على علاقاته بالباب العالي فيجعل محمد خسر باشا مسؤولاً عما مضى ويطلب رفته من الوظيفة ويقول انه ارسل نسخاً عن كتابه هذا الى جميع الوزراء في الآستانة والروملي ربر الاناضول كما انه ارسل كتابين بالمعنى نفسه الى والدة السلطان واسما سلطان وانه اجاب عاكف افندي لدى اجتماعه بـه بالمعنى نفسه . وكتب العزيز في الوقت نفسه (٢٥ تموز) الى ابنه ابراهيم ينبئه بما اتخذه من وسائل « لبث الدعاية في عاصمة السلطنة وفي الولايات ضد محمد خسرو باشا »(٤٧٨) .

ورأى محمد خسرو باشا في انحياز القبودان باشا الى جانب العزيز خيانة كبرى فكتب الى ضباط الاسطول يحرضهم ويثيرهم على رئيسهم كما كتب الى العزيز بوجوب اعادة الاسطول الى الآستانة . فاجابه العزيز انه لا يرى في انحياز الاسطول ومجيئه الى الاسكندرية خيانة او اعانة بل دليلاً ساطعاً على قلة ثقة رجال الدولة المخلصين في خسرو باشا وعلى الحاحهم في عدم التعاون معه(٤٧٩) .

ووصلت اخبار هذه الكوارث الى عواصم اوروبة فاستولى على حكوماتها شيء من

(٤٧٦) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ج ٤ ص ١٣٠-١٣١

(٤٧٧) ١٨ تموز سنة ١٨٣٩ : المحفوظات ج ٤ ص ١٢٨ و١٢٩-١٣٠

(٤٧٨) المحفوظات ج ٤ ص ١٦٦

(٤٧٩) محمد علي باشا الى محمد خسرو باشا : المحفوظات ج ٤ ص ١٦٧-١٦٨

القلق وأبدت الاهتمام اللازم بالامر . وكان ديساج اخصائي الخارجية الفرنسية في امور الشرق قد كتب في الثامن والعشرين من ايار سنة ١٨٣٩ الى كوشله قنصل فرنسة العام في الاسكندرية يؤكد وجوب الاستمساك بمبدأ سلامة الدولة العثمانية لدفع الخطر الروسي عن المضايق والخطر البريطاني عن مصر وبالتالي وجوب بقاء مصر جزءا من الدولة العثمانية ووجوب اعتدال العزيز في مطالبه. وأبان ديساج في رسالته هذه ان فرنسه وبريطانية والنمسة تستهدف ان تجعل من حلّ المسألة المصرية الماثلة قاعدة اساسية لحل المسألة الشرقية بكاملها[٤٨٠] . ومن هنا تدخل فرنسة المنفرد في شهر حزيران وايفاد كل من الكابيتان ستولتز والكابيتان كالي الى الآستانة والاسكندرية لتدارك الخطر ومن هنا ايضاً سكوت حكومتي بريطانية والنمسة عن هذا التدخل . ثم جاءت الكوارث تترى فقابلها الفيكونت بالمرستون بهدوء ورباطة جأش وقال الى القائم باعمال السفاره الفرنسية في لندن « ليس هنالك ما يدعو الى تعديل الخطط الموسومة » . لكنــه خشي في الوقت نفسه انه اذا سكت عن مطامع العزيز في بر الشام ووافق على بقاء هذا القطر في عهدته فانه لدى وفاته ستتدخل فرنسة لابقائه في قبضة ابراهيم من بعده ويكون بذلك قد مهّد السبيل لتجزئة الامبراطورية العثمانية[٤٨١] . ولمس الداهيــة النمساوي البرنس مترنيخ هذا الظن المتبادل بين لندن وباريز منذ اللحظة الاولى فعلق بما يلي :« هنا سرُّ هذه المعضلة بريطانيــة ترغب في الحد من قوة الباشا وفرنسة ترمي الى المحافظة على هذه القوة ان لم نقل انماءها »[٤٨٢] . وكان قـد فهم القيصر الروسي كل الفهم وادرك انه مخلص في محافظته على سلامة الدولة العثمانية فصاغ مذكرتــه الشهيرة التي حازت القبول في جميع عواصم اوروبة وقضت بتدخل الــدول مجتمعين لحل الازمة الطارئة[٤٨٣] .

وكان الباب العالي قد استرخى وقبل بالرضوخ لمطالب العزيز والوصول الى تفاهم مباشر معه وازمع على ايفاد مفيد بك الى القاهرة في السابع والعشرين من تموز من السنة نفسهـا للتأكيد بان مهمة عاكف افندي اغا انحصرت في اعلان الجلوس السلطاني وان ما فاوض به عاكف افندي لم يكن نهائياً البتة[٤٨٤] . وفي صباح هذا اليوم نفسه وفي الساعة الخامسة

(٤٨٠) نبير ومحمد علي لفرانسوا شارلرو : ص ١٥–١٩

(٤٨١) انكلتره والقرم للدكتور هارولد غبزلي ص ١٠٦–١٠٧

(٤٨٢) المرجع نفسه ص ١٠٦

(٤٨٣) نبير ومحمد علي : المؤلف نفسه ص ٢١

(٤٨٤) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ١٧٨

وفد على محمد خسرو باشا معتمد بونسونبي الخاص الجنرال غرازانوفسكي ينقل اليه اتفاق الدول الخمس على التدخل في المسألة المصرية وينذره بسوء العاقبة ان هو رفض هذا التدخل . وفي اليوم التالي اي في الثامن والعشرين من تموز قدم سفراء الدول الخمس الى الباب العالي مذكرة مشتركة يطلبون بها عدم ابرام اي امر في شأن المسألة المصرية الا باطلاعهم وموافقتهم . وفي السادس من آب أعلن معتمدو الدول في الاسكندرية نص المذكرة نفسها الى العزيز ايضاً . وكان هو قد اخذ علماً بها مسبقاً عن طريق القنصلية الفرنسية[٤٨٥] .

(٤٨٥) انكلتره والقرم – المؤلف نفسه : ص١٠٨–١٠٩

الفصل الثاني عشر

الثورة في سورية والحركة العامية في لبنان

١٨٣٩ - ١٨٤٠

وانضم الى صفوف المعارضة الذين فقدوا نفوذهم منذ بدء الاحتلال المصري ومن جرائه والى الذين رأوا في خروج العزيز على السلطان مخالفة للشرع الشريف والدين الحنيف آخرون من عملاء الآستانة استؤجروا خصيصاً لايقاد نار الفتنة في بر الشام فجابوا البلاد طولاً وعرضاً يؤكدون قرب الاجل ويحضون السوريين واللبنانيين على الثورة. ويستدل من الابحاث التي قام بها الدكتور هارولد تمبرلي في ملفات وزارة الخارجية البريطانية ان البارون بونسونبي السفير البريطاني في الآستانة بذل اقصى جهوده طوال مدة الاحتلال المصري لاثارة روح التذمر بين السوريين واللبنانيين من الحكم المصري واعدادهم للثورة وانه لم يعمل على «اشعال» الثورة الا بعد ان بدأ القتال بين السلطان وبين العزيز في شهر ايار من السنة ١٨٣٩[٤٨٦].

١ ـ في اريحا وجسر شغور

وهكذا فاننا نرى لهيب الثورة التي بدأ بها حاجي عمر اوغلو في جبل الاكراد ومصطفى بك كوجوك علي في جبال باياس في شهر ايار من السنة ١٨٣٩ يمتد الى ادلب فاريحا وجسر شغور في تموز من السنة نفسها. ففي اوائل هذا الشهر هجم احمد العبسي واولاده وبعض الفراريين من الجيش من جبل اريحا على قرية اريحا ونهبوا امتعة اورطتين من اورط الالاي الرابع والثلاثين وجرحوا الناظر وفروا هاربين. وفرّ الشيخ عبد الرحمن عمرو في الوقت نفسه من وجه التحقيق في القدس والتجأ الى التلال المجاورة للخليل واظهر الخروج على الحكومة المصرية. وقام احد المتقاعدين

---

(٤٨٦) مؤلفه انكلترة والفرم ص ٤٢٤-٤٢٥

السباهيين في دمشق عثمان المرعشلي في منتصف تموز يستغرب الاحتفال بالنصر في ترب فيقول « ألم نتخلص بعد من اكاذيب المصريين أمن الممكن كسر جيش استانبول المكون من تلك الالاف من العساكر ان جيش استانبول قد هزم جيش مصر وحاصر ابراهيم باشا في حلب ».

٢ ـ دمشق وجوارها

ونرى الحكمدار شريف باشا يخاطب السرعسكر في هذه الاونة نفسها فيقول : لقد تبدل الحال في هذه النواحي (دمشق) منذ خمسة الى عشرة ايام . فقد تكاثر عدد اللصوص وقطاع الطرق في طريق سعسع وفي الطرق المؤدية الى حوران . فان من فرّ من جماعة شبلي اغا العريان قد عمد الى اللصوصيــة والنهب وراح عرب السلوط يقطعون الطريق على الناس ويسلبون المارة حتى اصبح من المتعذر على فئة قليلة من الخيالة ان تجتاز الطريق . وقد نهبوا الفرسان الذين يحملون الرسائل واستولوا على البريد الذي اتى عن طريق سعسع وقتلوا احد الخيالين ولا يعلم ماذا تم بالخيــال الاخر . وعرب السلوط على تفاهم مع الحورانيين لا يتعرضون لهم اما العساكر والشوام ومن اليهم من الناس فانهم اذا ما وقعوا في ايديهم عمدوا الى نهبهم . ولقد طغى بنو حميدي من عربان بني صخر والدروز والسلوط وعرب الجبل والحورانيين على اتفاق مع بعضهم فاذا مس احـدهم اي ضرر هب الجميع الى نصرته . هـذا ولم يدفع الحورانيون اي شيء من الاموال الاميرية او الغلال المرتبة عليهم . ومن المحقق انه ليس في نيتهم ان يقدموا اي شيء منها . ثم انــه من الملحوظ ان تقوم فتنة في القريب العاجل . والخيالة الذين يترأسهم شبلي اغا الموجود مع المير جواد الحرفوش قد انحدروا من جبل القلمون بعد ان وصل المير المذكور وأمّوا الغوطة والمرج ومنها ساروا الى حوران فزاكية حيث اخذوا يقطعون الطريق . ان هناك فتنة يريد هؤلاء الناس ان يقوموا بها ولكنهم يرجئونها الى حين رفع الغلال من البيادر[٤٨٢].

واختان علي آغا خزينة كاتبي مولاه وصديقه السرعسكر فاخذ ينفث السموم في صدر معارفه وجلسائه ويقوض ثقتهم بالحكومة المصرية . وتفصيل هذا ان علي اغا تودد الى الشهابي الكبير والى ابراهيم باشا في اوائل الفتح فاكرمه ابراهيم واحبه وقدمه على غيره وجعل من بيته مقرًا له في دمشق وتودد اليه فناداه «بابا علي » فعظم شأنه بين اقرانه واشتدت شوكته وقصده الدمشقيون وابناء القرى المجاورة لحل مشاكلهم مع الحكومة فقدموا له الهـدايا وقبلها . ثم خشي زوال الحكم المصري وعودة العثمانيين الى البلاد فاصغى الى دعاتهم وقبل الدعوة . وفي الاونة التي نحن بصددها انتدبه محمد شريف باشا لاصلاح ذات الحال في حوران

(٤٨٢) المحفوظات ج ٤ ص ١٣٥-١٤٣

واوفد معه للغاية نفسها كلا من شمدين اغا الشهير والامير خليل سعد الدين . فاتصل بالشيخ محمود الرفاعي زعيم المعارضة في حوران واصرّ عليه ظاهرًا بوجوب الاذعان لاوامر الحكومة المصرية والتعاون معها ولكنه حضه باطناً على الصمود قائلًا ان مدة الحكم المصري اصبحت قصيرة وان عساكر السلطان اصبحت بالقرب من حلب فنقل الشيخ فاضل المحاميد هذا الكلام الى محمد شريف باشا الذي رفعه بدوره الى السرعسكر ابراهيم باشا(٤٨٨) . وتعددت الوشايات على علي اغا فحوكم وترتب جزاؤه بالقتل . وقُطع راسه ورُمي في باب السرايا طوال نهار كامل .

وشاع مثل هذا عن الامير فندي الشهابي احد انسباء الشهابي الكبير وقيل انه دعا الناس اليه في عين اللبوة بالقرب من راشيا « وتفوه باخبار خطرة » . فكتب محمد شريف باشا الى الشهابي الكبير يلفت نظره الى ذلك فاستبعد الامير اللبناني « ان يقدم مير فندي على التفوه بمثل هذه الاخبار » . ورجا الحكمدار ان يحقق في الامر حتى اذا ثبتت الامور المنسوبة تولى هو بنفسه تنفيذ العقوبة . واهتم السرعسكر للامر واوجب على الحكمدار ان يخبر زميله حاكم لبنان عمن نقل اليه هذه الاخبار(٤٨٩) .

٣ ــ عجلون وكتب الشيخ محمود الرفاعي الى اهالي جبل عجلون يحرضهم على « الفتنة » فقاموا يعترضون على اشياء واشياء . وفي طليعة المعترضين مصطفى الزبدة وصلاح عبد الرحمن ودرغام العباس واحمد المصلح وبركات الاحمد . وجاء في رسالة وجهها هؤلاء الاعيان انفسهم الى حسن اغا اليازجي وغيره من ممثلي السلطات المصرية في عجلون ان السبب في قيامهم هو اعمال الظلم التي يرتكبها محمد اغا الشوربجي والخواجه موسى نسيب يوحنا بك البحري . وقال شيوخ القرى في عريضة اخرى مؤرخة في الثاني عشر من آب سنة ١٨٣٩ ان المتوجب عليهم كان في اوائل حكم « ابراهيم باشا » مئة وخمسين كيساً . ثم بعد ذلك اخذ منهم خمس اهالي القرى لتعمير القرى المستجدة وترتب حال هؤلاء على الباقين وجُند سبع الباقين فترتب مال هؤلاء ايضاً على الباقين(٤٩٠) . واستمرت ثورة عجلون واتسع نطاقها واشترك فيها البدو منهم عرب صقر وعرب غزاويد وغيرهم فاضطرب السرعسكر وأمر

(٤٨٨) المذكرات التاريخية للخوري قسطنطين الباشا ص١٨١–١٨٣ اطلب ايضاً تقارير احمد شريف باشا في هذا الموضوع المحفوظات ج٤ ص ١٣٣–١٣٥ و١٨٦–١٨٧

(٤٨٩) محمد شريف باشا الى ابراهيم باشا – ١٧ آب سنة ١٨٣٩ : المحفوظات ج٤ ص ١٩٠

(٤٩٠) المحفوظات ايضاً ج٤ ص ١٨٩

باخمادها وانتدب اسماعيل عاصم بك حكمدار حلب لتنفيذ هذه المهمة بالاضافة الى مهمته في حوران[٤٩١] . ولم يوفق اسماعيل بادئ ذي بدء. فكتب اليه السرعسكر يؤنبه ويستفزه للقيام بالواجب وبطريقته الخصوصية فقال: واذا كنت تؤثر الراحة على العمل في مسألة عجلون متعللًا باوجاع وعلل مصطنعة فها هو الاوتوزبر سليم باشا فانه استدعي الى مصر لانه لم ينجح في مسألة الجديدة . واذا ارسل احد بدلًا منك فحينئذٍ تفقد مركزك وتسوء سمعتك ولا تبقى لك اية قيمة عسكرية تبرر لك تقلد الاوسمة والنياشين . وهاءنذا اخطرك من الان فاذا ظهر منك اي كسل فاياك ان تقول اضاعف الضغط في اللحظة الاخيرة وانهي المسالة. أقسم بالله ابلغ الامر الى مصر وافضحك[٤٩٢] .

٤ ــ بلاد بشاره وفي اوائل تشرين الثاني من السنة ١٨٣٩ رفع الشيخ حسين شبيب ابن الشيخ فارس الناصيف لواء الثورة في بلاد بشاره من اعمال لبنان الجنوبي مطالباً برفع المتسلمين من بلاده واعادة الحكم اليه كما كانت الحالة في عهد والده متعهدًا بدفع الاموال وتقديم الغلال وبصيانة الامن والعدل في بلاده في ظل الحكومة المصرية[٤٩٣] . وجمع حوله نحوًا من ست مئة نفر اربع مئة وخمسون مسلحون بالبنادق ومئة وخمسون بسلاح بسيط كالفرد والطبنجه والخنجر واليطقان والعصي . وحضر اليه جماعة من بلاد بعلبك من رجال الامير خنجر الحرفوش يعدونه بالمعونة . ولدى وصول هؤلاء « قويت براعته وصار يتلفظ باقوال خارجة عن الطريقة بقوله اذا كان لا يجاب الى سؤله فانه سيزداد شقاوة حتى يسري ضرره الى النواحي الموجود بها » . فاوعز ابراهيم باشا الى محمد شريف باشا ان يطلب معونة الشهابي الكبير امير لبنان ومعونة مدير ايالة صيدا الشيخ محمود عبد الهادي . فارسل الشهابي الكبير حفيده الامير مجيد على راس قوة صغيرة مؤلفة من خمس مئة رجل . وقام الامير مجيد الى النبطية ومنها الى ميس فيارون حيث احتك بالشيخ حسين واكرهه على الفرار الى الوعر[٤٩٤] .

(٤٩١) ابراهيم باشا الى اسماعيل عاصم بك المحفوظات ج ٤ ص ٣١٩ ١٨٠-١٨١ و١٩٨ و٢٠٥
(٤٩٢) ابراهيم باشا الى اسماعيل عاصم بك – ٩ ايلول سنة ١٨٣٩ – المحفوظات ج ٤ ص ٢١٤
(٤٩٣) حسين شبيب الى محمد علي باشا – ١٦ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ – المحفوظات نفسها ج ٤ ص ٢٧١-٢٧٢
(٤٩٤) الشيخ محمود عبد الهادي الى محمد شريف باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٢٦٩-٢٧١

٥ ـ العزيز وابنه وموقفهما من الثورة

وعظم هذا كله على السرعسكر وحسب له حسابه فكتب الى والده يقول: « لقد انتهت معركة نزيب بانتصارنا واقيمت معالم الفرح في كل مكان وعلى الرغم من هذا لم يخلد اهالي عربستان الى الهدوء ولم يقلعوا عن العصيان . وقوم هذا شأنهم منا لا يتركون شيئاً لا يفعلونه ضدنا اذا شاهدوا السفن الاجنبية تقترب من الموانئ . لنفرض اننا تقدمنا الى الامام وهزمنا الروس فما الذي نستطيع ان نفعله بعد ذلك. كنا صرفنا لمسيحيي الجبل اي لبنان اربعة الاف بندقية نظراً للظروف الحاضرة ولكن الدروز اكثر استعداداً منهم للعصيان فاذا اتفقوا مع بعضهم فلا شك ان اهالي عربستان تقوم باجمعها علينا . ولا يغيب عن الاذهان ان اهالي حلب قالوا للعساكر الذين قبضنا عليهم من جيش استانبول « واسفاه على خبز السلطان فانكم لم تستطيعوا اتقافنا » . وان علي اغا خزينه كاتبي زاده قتل من اجل هذه الاقوال . ومن المجزوم به ان العرب والشاميين اتفقوا على ان يقطعوا علينا طريق الرجعة في حالة انهزامنا[٤٩٥] . وعاد الى الكتابة في منتصف تشرين الاول من السنة نفسها فقال لو ارادت انكلتره وفرنسه ان تبثا جنوداً في سواحل الشام فلن تستطيعا الا في عكة وطرابلس لان طرق سائر الجهات ليست صالحة[٤٩٦] .

٦ ـ الحركة العامية في لبنان

وخاب سعي العزيز لدى حكومات الدول في ان تنظر في امره وتقدر ظروفه وهاله امر اتفاقها ضده فعزم على الصمود في وجهها ومضى على رأيه في هذا فقرر جلب قواته من اليمن ونجد والحجاز[٤٩٧] وانشأ الالايات الجديدة في مصر واشرف بنفسه على انشائها وادخل فيها الطلبة اللبنانيين الذين كانوا قد التحقوا بمدرسة الطب في القصر العيني . فذاع الخبر في لبنان ان العزيز يجند هذه المرة من المسلمين والنصارى . وشاع في اثناء ذلك خبر قدوم عساكر مصرية الى بعلبك وطرابلس وورد مركب الى بيروت مشحوناً ثياباً عسكرية فظن اللبنانيون انها مهيأة لهم وازدادوا اضطراباً وتقمقموا ودار بينهم لسان العصيان[٤٩٨] . وذكر العزيز في غضون هذا كله اي في اوائل العام ١٨٤٠ نصائح ابراهيم المشار اليها اعلاه فأمر باسترجاع الاسلحة التي

(٤٩٥) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا – ٥ ايلول سنة ١٨٣٩ – المحفوظات جـ٤ ص ٢١٠–٢١١

(٤٩٦) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٢٤٦

(٤٩٧) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٢٩٠

(٤٩٨) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٨٨–٥٨٩

وزعها على النصارى اللبنانيين في ابان ثورة الدروز سنة ١٨٣٨ فثار ثائر اللبنانيين وتشاوروا في الامر فألفوا جمعية للدفاع عن لبنان انخرط في عضويتها عدد لا يستهان به من الوجوه والاعيان على اختلاف المذاهب والطوائف . وقر قرار الاعضاء بالاجماع على امور اربعة اولها الامتناع عن تقديم الاسلحة التي وزعت عام ١٨٣٨ حتى يعيد العزيز ما كان قد اخذه من الاسلحة من لبنان عام ١٨٣٥ والثاني عدم الاذعان لاي تجنيد جديد والثالث الامتناع عن تسليم اي شخص يلجأ الى لبنان ويستغيث باهله ولو كان قد فر من الجيش والرابع انشاء صندوق عام للدفاع عن لبنان يتبرع اليه كل لبناني بمبلغ شهري يتراوح بين نصف قرش وثلاثة غروش[٤٩٩] .

واتصل هؤلاء الاعيان في اوائل ايار بالشهابي الكبير فذكروه بما جرى بينهم وبينه في اواخر العام ١٨٣١ عندما استدعاهم اليه واطلعهم على العهد الذي كان يربطه بالعزيز وكيف انهم قاموا معه الى عكة وساروا امام الجيش المصري الى دمشق وحاربوا الدولة في طرابلس وحمص وحماه ثم كيف ناصروا الحكومة المصرية على الثوار في صفد وطرابلس وجبال النصيرية فأدخلوهم في طاعتها وعادوا الى اوطانهم راجين ان تقابلهم الحكومة المصرية بالمثل فترفع عنهم « كافة المظالم » ولكنها جاءت بالعقوق فجردتهم من سلاحهم وجندت اولادهم وجارت عليهم في ذلك « فسكت » الحريم وعلقت الرجال في الاشجار ورتبت مال الاعانة وجبته عن الاحياء والاموات حتى الذين ماتوا في الحرب قدامها ثم قهرتهم وذلتهم فكلفتهم القيام باستخراج الفحم الحجري ونقله الى الساحل لقاء بدل تافه واكرهت البنائين على العمل في كولك بوغاز وعكة وحملت الجميع على محاربة «اخوانهم» في حوران — نقول ذكّر الاعيان الامير الحاكم بهذا كله واكدوا خضوعهم له وعدم رغبتهم بتولي الحكم ورجوه ان يستصدر ارادة سنية خديوية برفع المظالم المشروحة وان يتم ذلك بمعرفة « وكلاء فرنسة وانكلترة المعظمتين »[٥٠٠] .

وعلى الرغم من هذا كله شرع الشهابي الكبير في اواخر ايار من السنة نفسها اي بعد شهر من الزمن في جمع السلاح الذي وزع على النصارى في السنة ١٨٣٨ فهب شبان دير القمر

---

(٤٩٩) مسيو بورّه الى المارشال صولت — ٥ اذار سنة ١٨٤٠ — مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج ٢ ص ١٦٨—١٧٠

(٥٠٠) مسيو بوره الى المارشال صولت — ٥ ايار سنة ١٨٤٠ — مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٢ ص ٢٧٠—٢٧٢ قابل بما ورد في كتابنا الاصول ج٥ ص ١٠٨—١١٠

الى سلاحهم وتوجه بعضهم الى المقاطعات القريبة يحضون الاهالي فيها على الاحتفاظ بالاسلحة وعدم تسليمها[٥٠١] . وحذا حذوهم الكهول والشيوخ بعد ان يئسوا من الوصول الى حل مرضٍ مع الامير الحاكم فتحالفوا نصارى ودروزًا في « الخلوة » في دير القمر وبثوا الدعوة للعصيان في انحاء البلاد ودفعوا بالشبان الى مزبود على مقربة من صيدا بقيادة الشيخ يوسف فارس ابو نكد والشيخ بشير مرعي ابو نكد وتحت الراية النكدية «الحمراء» للتحرش بالجند المرابطين في صيدا وضواحيها . ففعلوا وادعوا انهم ظفروا بهم واخذوا منهم مئة وثمانين بندقية . ولكن محافظ بيروت آنئذٍ رأى فيما فعلوه أعمال شقاوة بين صيدا وبيروت[٥٠٢] .

فحذّر الشهابي الكبير رجالات البلاد « من الوقوع بهذا الغلط الذي يوجب خراب الديار وقلع الاثار وأمر بوجوب طرد مراسيل رجال الدير والقاع القبض عليهم وارسالهم اليه »[٥٠٣] . وكتب في الوقت نفسه الى محمد شريف باشا وابراهيم باشا والعزيز في الثامن والعشرين من ايار يقول: « تشرفنا بأمر شريف سرعسكري منيف يشير منطوقه العالي بان تسترجع البواريد العسكرية التي اعطيت ايام حركة الدروز . فلاح بفكرنا انه لما كان قد حصل بالسابق من دخول الوهم والوسوسة عليهم ربما تسول لهم نفوس جهلهم الامتناع عن اعطاء البواريد ويحصل اختلال . فجعلنا نذاكر الافكار هل نظهر الامر ونبادر لنفوذه ام نتجاسر ونقدم معروضاً للاعتاب الشريفة بما افتكرناه وننظر كيف يصدر الامر الشريف . وفيما نحن في هذا التفكير شاع الخبر من جهة صيدا انه صدر الامر الشريف باخذ البواريد من عيسوية الجبل بواسطة تحرير حرره لنا عبدكم اخينا امير الاي السادس يستهمنا بسرعة ارسال البواريد . فلما شاع الخبر عند الجميع وتأكد فما امكننا كتم الامر الشريف الصادر بهذا الخصوص . فاقتضى اننا بادرنا لذلك ولكن جعلنا المبادرة بين مخطئ ومصيب فحررنا تنبيهات لبعض الجهات بطلب البواريد دون بعض لننظر ماذا يكون. ومن جملة الجهات الذين حررنا لهم دير القمر . فاهالي القرية المذكورة رجع الوهم الاول اليهم ودخلت الوسوسة في عقولهم فاظهروا الامتناع وارسلوا اعلاماً لكل الجهات بذلك الخصوص . ثم قدموا لنا معروضاً يشتمل على الرجا بابقاء البواريد عندهم . فجاوبناهم ان هذه القضية ليست مفوضة لراينا بل هي منوطة بالامر الشريف السرعسكري وعرفناهم انهم يقدموا البواريد العسكرية ويكونوا آمنين . وبتلك الساعة

---

(٥٠١) حروب ابراهيم باشا المصري للقس انطون الحلبي ج٢ ص ١٢–١٣

(٥٠٢) محمود نامي بك الى حسين باشا : المحفوظات ج٤ ص ٣٣٩–٣٤٠ – راجع ايضاً ابراهيم باشا بسوريا لسليمان بك ابو عز الدين ص ٢٥٩–٢٦١

(٥٠٣) كتابنا الاصول ج٥ ص ٨٢

بلغهم ان قرية من الذين نبهنا عليهم احضروا البواريد . فحالًا نهضوا جميعهم اي اهالي الدير عيسوية ودروز واحتملوا سلاحهم وتوجهوا يمسكوا الطريق الواردة منه البواريد لكي يمنعوا وصولها الى محلنا فما صادفوها . فتوجهوا للقرية وضربوا المأمور ووجدوه جامعاً عنده كم بارودة فاستخلصوها منه وارجعوها لاصحابها وارسلوا انفارًا لجميع الجهات يمنعوهم عن اعطاء البواريد . وعلى هذه الكيفية فربما الجميع يمتنعوا وتزداد القضية شدة والدروز يوافقوهم على ذلك . ولقد اعرضنا هذه القضية بذاتها للاعتاب الشريفة السرعسكرية راجين صدور امر دولته بما يستحسن لدى عنايته »[٥٠٤] .

وامتد لهيب الحركة هذه من تلال صيدا الى تلال بيروت وانضم اليها من الامراء الشهابيين الامير فارس حسن والامير يوسف سلمان ملحم والامير محمود سلمان ومن اللمعيين الامير علي منصور قايدباي والامير عبدالله شديد مراد والامير علي فارس ومن الحرافشة الامير خنجر ومن شيوخ الاقطاع الشيخ فرنسيس ابو نادر الخازن والشيخ عفيف حكم الخازن والشيخ نقولا الخازن والشيخ شمسين صفا الخازن والشيخ صالح هيكل الخازن والشيخ بشاره فرنسيس الخازن وابنه الشيخ حصن والشيخ عبس الخوري. ومن الاشداء ابو سمرا غانم البكاسيني واحمد داغر المتوالي ويوسف الشنتيري[٥٠٥] . واختلفت لهجة هؤلاء عن لهجة اهل دير القمر فقال الامير محمود سلمان الشهابي في نداء له وجهه في التاسع والعشرين من ايار الى اهالي اقليم الخروب : انه امتثالًا لاوامر حضرة مولانا السلطان عبد المجيد نصره الملك المجيد واتباعاً لفرمانه الشريف الصادر برفع المظالم وردع كل ظالم نرغب من محبتكم ان تتوجهوا صحبة العساكر المتوجهة من قبلنا الى الاولي . وان شاء الله تعالى بوقت قريب تحصل الراحة لجميع البلاد وينقطع الظلم عن العباد ويعود القديم الى قدمه[٥٠٦] .

وازداد عدد الثوار في ضواحي بيروت وانتخبوا لهم زعيماً الشيخ فرنسيس ابا نادر الخازن فاتخذ لنفسه لقب «سرعسكر النصارى» . واجمع راي الجميع على قطع الطريق على عساكر مصر فتوجه الامير محمود سلمان الشهابي الى صيدا ونواحيها والامير علي منصور اللمعي الى البقاع وابو سمرا الى طرابلس . وانتقل الاميران فارس ويوسف الشهابيان الى الحازمية وسائر اللمعيين الى الدكوانة . ثم هجم الثوار على الكرنتينا خارج سور بيروت واطلقوا

(٥٠٤) الامير بشير الشهابي الى محمد شريف باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٢٤٣-٢٤٤

(٥٠٥) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٩٠-٥٩٣

(٥٠٦) المحفوظات المصرية ج ٤ ص ٣٤١-٣٤٢

على من فيها الرصاص فصدّهم الارناووط المحافظون فيها . فألحّ الثوار على سور البلد فخرج اليهم موكب مصري واطلق مدافعه عليهم فانكفوا عن السور وكانوا نحو الف رجل واكثرهم مسلّح بالعصي . فاخذوا يهجمون على ابواب المدينة وينهبون المآكل[٥٠٧] . ووقعت حوادث مشابهة في سائر المقاطعات . وكتب الشهابي الكبير الى اخصائه ان يقوموا من ساحل بيروت الى الغرب الاعلى والى اللمعيين ان يقوموا الى القاطع[٥٠٨] .

وفي اول حزيران كتب الحكمدار المصري محمد شريف باشا الى الشهابي الكبير ان يمتنع عن طلب السلاح من الاهالي لحين وصول جواب السرعسكر وان يفهم الثوار ان ما توهموه هو غير واقع وانه لم يكن له رسم ولا اثر . وكان الامير الحاكم قد فعل شيئاً من هذا فأوفد في اليوم الاول من حزيران الشيخ بشاره انطون الخوري ومنصور مرهج وبشاره الجلخ الى شيوخ دير القمر يوعز باستعداده للصفح عما جرى وبوجوب طلب ذلك منه خطاً ففعلوا وقاموا اليه بمعية الشيخ بشاره الخوري وقبلوا الاتك[٥٠٩] . وفي الثاني من حزيران كتب ابراهيم باشا الى والده يلوم الشهابي الكبير لانه اخفى حقيقة الحال في منطقته ويرتأي معاملة الثوار بالتي هي احسن كي لا يتجر القناصل باخبار الثورة . فان حافظ الثوار على السكينة تركهم على حالهم واما اذا خاضوا في الموضوع وأكثروا الكلام فيه فهو يرى ان يقوم عليهم بثلاث الايات من عساكر اللاذقية فيؤدبهم ثم يعود الى مرعش[٥١٠] . وفي الثامن منه كتب كل من العزيز وابنه ابراهيم الى الشهابي الكبير يؤكدان ان ليس في نية احد منهما ان يجند احداً من اللبنانيين وانهما امرا برفع طلب البنادق موضوع البحث . فكتب الامير بذلك مبشراً واوفد ابنه اميناً الى ساحل بيروت مطمئناً حاملاً ارادة العزيز[٥١١] .

وفي الحادي عشر من حزيران «وقبل الغياب بساعة» قام الامير امين الشهابي الى بيروت فتوجه الى سن الفيل حيث الامراء اللمعيين واستدعى اليه «سرعسكر النصارى» من حرج بيروت فلم يحضر . ثم استدعى اليه بعض الوجوه من الثوار وحاول استرضاءهم

(٥٠٧) اخبار الاعيان نفسه ص ٥٩٢ اطلب ايضاً كتابنا الاصول ج ٥ ص٨٣–٩٤

(٥٠٨) اخبار الاعيان الاعيان ايضاً ص ٥٩١

(٥٠٩) المحفوظات ج٤ ص ٣٤٨ وحروب ابراهيم باشا المصري ج ٢ ص ١٨–١٩ – راجع نص العريضة وجواب الامير في المحفوظات ايضاً ج ٤ ص ٣٦٥–٣٦٧

(٥١٠) المحفوظات ج ٤ ص ٣٥٣

(٥١١) كتابنا الاصول ج ٥ ص ٩٧–٩٩ وحروب ابراهيم باشا ج٢ ص ٢١–٢٢ والمحفوظات ج٤ ص ٣٧٠–٣٧١

وطلب اليهم ان يعودوا الى اماكنهم فوعدوه بالاجابة في اليوم التالي . فانتظرهم في عين الشباح في ضواحي بيروت فلم يجيبوه فتوجه الى بتدين . ثم كتب الامير الكبير الى الامير ملحم الشهابي والامير سلمان سيد احمد الشهابي والامير ملحم حيدر الشهابي ان يتصلوا بالثوار ويدعوهم ففعلوا واجابهم الثوار اننا لا نرجع الى اماكننا الا اذا قبل الامير بهذه الشروط: وهي اولًا اننا لا ندفع الا مالًا واحدًا ثانياً ان يرفع بطرس كرامه من ديوانه ثالثاً انيضع في ديوانه من كل طائفة اثنين رابعاً ان يرفع عنهم السخرة وحفر المعدن اي الفحم الحجري وخامساً ان يبقي لهم السلاح » وذلك كما تلقنوه سراً من الامراء »[٥١٢] .

وعاد امين الى والده ينقل اليه تصلب الثوار ويُعزيه الى تدخل الدول مؤكدًا ان افرنجيًا اتصل بهم من قبل قنصل سردينية وحرضهم على الهجوم على بيروت وان يوسف الزنانيري ترجمان قنصل النمسة قام الى زحلة يحرض اهلها على الثورة وان نعمه طراد ترجمان قنصل الانكليز قدم الغلال الى الثوار وان افرنجياً اتصل بهؤلاء. في التاسع من حزيران وحرضهم على الاستمرار في القتال قائلًا ان سفينة مشحونة بالسلاح ستصل قريباً واضاف ان تشديد الافرنج لاهل البلاد ظاهر كالشمس وترددهم عليهم ايضاً اذ انــه هو بنفسه رآهم عندهم[٥١٣] . وكتب الامير ملحم حيدر الشهابي الذي فاوض الثوار باسم الامير الكبير — كتب في منتصف حزيران الى الامير الكبير يقول « نهار البارح بعد طلوعنا من الحرش وصل من كسروان مقدار مئة نفر مسلحين وموضوع على راس كل منهم شارة صليب نيشان وقدامهم خيال فرنجي ساحب سيفه ومعهم بيرق ثلاثة اشكال احمر وازرق وابيض نيشان فرنساوي وعامل لهم تعيين لكل نفر يومي غرشين ونصف وبعده حضر الامير الفرنساوي وترجمان قنصل الفرنساوي » .

وكتب محمود نامي بــك محافظ بيروت الى سليمان باشا الفرنساوي في اليوم نفسه ان هذا الامير الافرنسي هو الفيكونت اونفروا وانه افرنسي الاصل سبق له ان خدم في الجيش الافرنسي ثم قصد الآستانة وانتقل منها الى مدرسة عينطوره في لبنــان ليدرس اللغة العربية وانه ارسل الى تاجر في بيروت يطلب اليه ان يستورد له بارودًا ورصاصاً وان التاجر ابى فعاد الفيكونت وطلب اليه ان يستورد له البارود والرصاص الى قبرص . ثم افاد محمود نامي بك

(٥١٢) اخبار الاعيان ص ٥٩١

(٥١٣) علي حبيب بك الى سليمان باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٣٧١–٣٧٣ ورسالة الامير امين الى والده – المرجع نفسه ص ٣٧٤

انه ثبت لديه ان الفيكونت المذكور موفد من ذلك الجانب اي من جانب الباب العالي وان سفينة رومية من طراز بريك على وشك الوصول الى ميناء البترون (لبنان) بالذخيرة المطلوبة من قبرص . وافاد المحافظ ايضاً ان افرنسياً آخر يدعى سليمان سبق له ان استخدم في المحجر الصحي فطرد منه ان هذا الافرنسي يتنقل بين الزوق وبين بيروت وان خليل المدور ترجمان قنصل فرنسة في بيروت على اتصال بالعصاة يمدهم بمادة الكبسول وان اربعة آخرين من رعايا فرنسة في الحرج مع الثوار . واشتد حماس الرعايا الافرنسيين للثوار وشملهم القاصد الرسولي بعطفه فقام راهب افرنسي يتجول في قرى المتن وكسروان يحرك الاهالي ويحرضهم على الهياج والالتحاق بالثوار ويعدهم بقدوم مراكب فرنساوية مشحونة ذخيرة وسلاحاً لاجل امدادهم[٥١٤] . وخشي المحافظ ان يكون عبدالله الافرنسي البارون درمنياق الذي انفصل عن الجيش واقام في طرابلس ان يكون قد اتصل بالثوار وتعاون معهم . واشتد حماس المسيو بوره قنصل فرنسة في بيروت للثوار النصارى فافتضح امره واضطر وكيل الخارجية الفرنسية ان يردعه عن تشجيع الثوار ويوصيه بادلاء النصح اليهم كي يستكنوا ويعودوا الى منازلهم وقراهم[٥١٥] .

وهكذا فاننا نرى الشهابي الكبير يكتب الى العزيز في منتصف حزيران متثبتاً من تدخل الاجانب ناسباً تصلب العصاة الى تشديد اولئك معلناً ان ما تطلبه العصاة من الامير ملحم الشهابي وزميليه كان مكراً منهم وخداعاً اذ انهم لم ينتظروا الجواب بل حالاً توجه منهم فرقة الى المتن لاجل تحريك سكانه والتوجه الى غربي البقاع وحاصبيا وراشيا لايقاد نار الفساد وتوجهت فرقة اخرى الى زحلة والمعلقة وبلاد بعلبك للغاية نفسها . ولذا فانه يرى ان تخميدهم بالتطمين والتأمين لا يجدي نفعاً نظراً لجهلهم وغرورهم ودخول يد الغير بينهم مما يزيدهم شقاوة وفجوراً[٥١٦] . ويقول المؤرخ المعاصر الشيخ طنوس الشدياق ان الامراء الشهابيين واللمعيين شددوا الثوار سراً وحثوهم على التصلب والثبات وان الافرنج كانوا يأتون اليهم ويحرشونهم على الدولة المصرية ويشددونهم ويحققون لهم قدوم المراكب الحربية لاسعافهم . وانه على اثر هذا توجه الامير محمود الشهابي الى جهة صيدا ومعه احمد داغر

---

(٥١٤) الامير ملحم الشهابي الى الامير امين الشهابي ومحمود نامي بك الى سليمان باشا والامير بشير الشهابي الى محمد علي باشا : المحفوظات ج ٤ ص ٣٨١ و٣٨٢–٣٨٤ راجع ايضاً رسالة المعلم بطرس كرامه الى يوحنا بحري بك في الموضوع نفسه والمجلد نفسه ص ٣٨٥

(٥١٥) ديساج الى كوشله : نيبر ومحمد علي لفرانسوا شارل رو ص ٩٣ و ٨٨–٨٩

(٥١٦) الامير بشير الشهابي الى محمد علي باشا — ١٦ حزيران سنة ١٨٤٠— المحفوظات ج ٤ ص ٣٨٢

المتوالي والامير منصور اللمعي الى المتن ليجمع رجالًا من هناك ويسير بهم الى البقاع وان ابا سمرا غانم توجه الى طرابلس فابقى مئة نفر محافظين في انطلياس ونهر الكلب ووصل الى غزير فتبعه الشيخ يوسف حمزة حبيش والشيخان بطرس وحنا حبيش . وانه نهض بعد ذلك الى الفتوح فتبعه الشيخ زعيتر راشد الدحداح وجماعة ووصل الى المنيطرة فتبعه الحاديون بمئتي نفر ثم قام الى جبة بشري فجمع منها رجالًا ونزل بهم الى زغرتا فلما بلغ والي طرابلس قدومه ارسل اليه اربعة الاف نظامي بمدافع فاقتتل الطرفان وانكسر ابو سمرا وقتل من جماعته سبعة ومن الجيش المصري عشرون ثم عاد ابو سمرا فالتقى الجيش في قرية ايعال فكسرهم معملًا في اقفيتهم السلاح آخذًا منهم مدفعاً وقاتلًا خمسين مقابل عشرين(٥١٧) .

وكان قد وقع بعض اعيان الدروز وبعض اعيان النصارى عهدًا على انفسهم باتفاق الكلمة والعمل الموحد وذلك في السابع من حزيران في كنيسة انطلياس وبشهادة قسها اسبيريدون العرموني(٥١٨) . فازداد الشبان نشاطاً وحماساً واندفعوا للتخريب والمناوشة في بيروت وصيدا والبقاع .

٧ ــ العزيز واخماد الحركة

ووردت هذه الاخبار تترى على الشيخ الجليل عزيز مصر فضاق صدره وهدد في ساعة غضبه انه سيتحرك هو بنفسه الى لبنان بسبعين الفاً مع الدونانمة السعيدة(٥١٩) ثم علم باقصاء خصمه خسرو باشا عن مقام الصدارة فظن انه آن الاوان لمصر ان تنال بغيتها فآثر البقاء في الاسكندرية مضطرًا . ولكنه نظرًا لما كان قد شاع عن سفره بالذات الى لبنان رأى الا يرسل العساكر بقيادة قائد عادي فقرر ارسالهم بقيادة حفيده عباس باشا وكتب الى سليمان باشا يحيل اليه وضع الخطط الحربية اللازمة وقرر ارسال الالاي الرديف الاسطانبوليين والالاي المشاة السادس والعشرين والثلاثين وعشرة سركردات من الباشبوزق وبطارية من مدافع الجبل الخفيفة . وكتب الى الشهابي الكبير : « احتراماً لشخصك لا يجب ان يهجم العسكر على من منحتهم الامان ولا ان يطلب اليهم تسليم السلاح وانما يضرب العسكر العصاة وينزع اسلحتهم حرباً وقهرًا »(٥٢٠) .

(٥١٧) اخبار الاعيان ص ٥٩٣ – ٥٩٤ وجاء في تقرير سليمان ثابت بك اميرالاي الفرسان الرابع والعشرين المرابط في طرابلس انه قتل من الثوار في موقعة ايعال ما لا يقل عن اربع مئة نفس: المحفوظات ج٤ ص ٤٠٣ و ٤٠٤

(٥١٨) كتابنا الاصول ج٥ ص ١٠٠

(٥١٩) محمد علي باشا الى الامير بشير الشهابي – ٩ حزيران سنة ١٨٤٠ – المحفوظات ج٤ ص ٣٧٠

(٥٢٠) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا – ١٧ حزيران سنة ١٨٤٠ – المحفوظات ج٤ ص ٣٧٧–٣٧٨

وكان ابراهيم باشا قد أمر عثمان باشا منذ الخامس من حزيران بالزحف على الجبل عن طريق بعلبك زحلة بخمسة الايات اذا قضت الظروف وامر سليمان باشا بجل ذلك بما لديه من الجنود في بيروت وصيدا وعكة[٥٢١].

فجهز سليمان باشا خمسة الايات من المشاة والاياً من الفرسان وعزز حامية بيروت لمنع اهاليها من الاتصال بالثوار وارسل يطلب عثمان باشا والالفه الخمسة من حماه وجلهم من أبناء جبل نابلس وكتب الى العزيز في الثامن عشر من حزيران انه لدى وصول عباس باشا الى بيروت وعثمان باشا الى زحلة سيباشر بالزحف على العصاة[٥٢٢].

وفي الرابع والعشرين من حزيران وصل عثمان نور الدين باشا بعساكره الى بعلبك . وفي صباح اليوم التالي قام قاصدًا مركز العصاة في حشبيه فلم يرَ احدًا منهم . فتابع سيره الى زحلة وعلم لدى وصوله الى الفرزل ان الثوار معتصمين في بير هاشم في جبل مواجه للفرزل. فأمر فرسان الباشبوزق بالصعود اليهم ففعلوا ولكنهم عادوا على اعقابهم نظرًا لصعوبة الارض. وقام الثوار من بير هاشم الى قرية بوارش واعتصموا بها لوعورة ارضها ولقربها من الطريق الرئيسي بين دمشق فالبقاع وبيروت . وبلغ عثمان باشا زحلة وعسكر خارجها في محل يقال له ترحيم . وفي الثلاثين من حزيران نزل الثوار من مراكزهم الى السهل في منتصف الطريق بين ترحيم وبين زحلة . فهجم عليهم الباشا بالاي من الفرسان ومدافع ثلاثة وجماعة من الباشبوزق فقتل منهم جانباً وشتت الباقين ».وبقت رؤوسهم لوحدها وجثثهم لوحدها »[٥٢٣].

ووصل عباس باشا بمركب ناري الى بيروت في الثلاثين من حزيران وتكامل عدد العساكر في جميع الجهات فاوفد الشهابي الكبير حفيده الامير مسعود ليقوم مع العسكر الذي ينهض من صيدا كما ارسل حفيده الامير مجيد ليواكب عباس باشا في بيروت . وكان قد ارسل حفيده الثالث الامير محمود الى زحلة ليبقى قريباً من عثمان باشا واسماعيل عاصم بك[٥٢٤].

وفي السادس من تموز نشب قتال عنيف بالقرب من صيدا اذ قام الثوار من مجدلونا الى ساحل

---

(٥٢١) ابراهيم باشا الى سليمان باشا : المحفوظات ج٤ ص ٣٦٣-٣٦٤

(٥٢٢) سليمان باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ج٤ ص ٣٨١ و ٣٨٢ اطلب ايضًا كلام الامير بشير الشهابي في الصفحة ٣٧٢ من المجلد نفسه .

(٥٢٣) الامير بشير الشهابي الى محمد علي باشا – اول تموز سنة ١٨٤٠ – المحفوظات ج٤ ص ٣٩٧-٤٠١ . وجاء في اخبار الاعيان ص ٥٩٥ ان الثوار انحدروا من المريجات الى السهل فحدثت واقعة هائلة بينهم وبين عثمان باشا فقتل منهم مئة وتسعة عشر رجلًا وانهزم الباقون الى المريجات منخذلين .

(٥٢٤) الامير بشير الشهابي الى محمد شريف باشا : المحفوظات ج٢ ص ٤٠٥-٤٠٦

البحر وانقسموا الى فئات ثلاث فاتجه شبان المناصف الى الرميلة وشبان الشحار الى بياضة علمان وشبان الدير الى البرغوثية . وبدأ هؤلاء بضرب العسكر المصري وما ان شاهدوا افراده يتجندلون وراء المتاريس حتى استفرسوا فهجموا عليهم وازاحوهم عنها ثم ارتدت العساكر عليهم فردوهم وهكذا دواليك حتى نفد الرصاص من جعب الثوار فاضطروا للتراجع بموازاة النهر بعد ان خسروا ثلاثة عشر قتيلًا مقابل عدد اكبر بكثير ولعله فاق الثلاث مئة[٥٢٥] . وفي الثامن منه نهض الامير فارس والامير يوسف الشهابيان بجماعتها من الحازمية فالتقاهما الامير اسماعيل برجاله الى قرن الزيتون وقصدوا قتال العسكر المصري في بيروت . ولما وصلوا الى سن الفيل كانت سبأقتهم قد وصلت الى الاشرفية فالتقاهم الارناؤوط والنظام وهجموا عليهم فانهزموا وتبددوا وقتل منهم سبعة عشر[٥٢٦] . وفي العاشر منه قام عثمان نور الدين باشا بعساكره من ترحيم والى جانبه الامير محمود حفيد الامير الكبير الى ممر ضهر البيدر – طريق دمشق بيروت – وزحف منه على الثوار الذين كانوا قد اعتصموا في الجرد فوق قرية بوارش فشتت شملهم . وكان معه في هذا الزحف كل من اسماعيل عاصم بك حكمدار حلب والامير محمود الشهابي والشيخ محمود عبد الهادي مدير ايالة صيدا والشيخ سليمان عبدالهادي متسلم نابلس وعدد من النابلسيين . وبعد ان قضى ليلته في بوارش قام منها الى كفرسلوان ومكث فيها اربعة ايام . وكان قد ارسل كتيبة من النابلسيين الى حمانا لاحتلالها ففعلت وسلبت ونهبت ثم عادت الى قرية الرمتانية لقضاء الليل فيها . وقام عثمان باشا من كفرسلوان الى بقليع فوافاه اليها الامير بشير الشهابي وشرع في جمع السلاح فقدم اليه الشنتيري وبرأ ذاته فاعطاه امين الامان وجاء بعده الامير حيدر اسماعيل اللمعي نزيلًا فأمنه امين بقسم . ثم قبض جنود الامير امين على الامير علي قايدباي والامير عبدالله مراد والامير منصور مراد والامير فارس وابنه الامير علي . فأمر الشهابي الكبير بارسالهم جميعهم اليه ولدى وصولهم الى بتدين وضعوا في « محرس » . « ودخل الخوف والهلع على الجميع فالتجأوا الى الامان مقدمين بالوقت والساعة الخضوع والطاعة »[٥٢٧] . ولم يبقَ خارجًا عن الطاعة سوى « جمهور

(٥٢٥) حروب ابراهيم باشا للقس انطون الحلبي ج٢ ص ٤٠ – ٤١ راجع كتابنا الاصول ج ٥ ص ١٤٠–١٤١

(٥٢٦) اخبار الاعيان ص ٥٩٠ الامير بشير الشهابي الى محمد علي باشا : المحفوظات ج٤ ص ٤١١

(٥٢٧) الامير بشير الشهابي الى محمد علي باشا – ١٤ تموز سنة ١٨٤٠ – المحفوظات ج٤ ص ٤١٠ – ٤١٢ وابراهيم باشا الى محمد علي باشا – ١٦ تموز – المحفوظات ج٤ ص ٤١٤ وعثمان باشا الى محمد علي باشا –٢٠ تموز–المحفوظات ج٤ ص٤١٨ اطلب ايضًا اخبار الاعيان ص ٦٠٠–٦٠١

الساحل » اي ساحل بيروت . فقام الجيش المرابط في بيروت بقيادة عباس باشا وسليمان باشا في الخامس عشر من الشهر نفسه ومعها الامير مجيد حفيد الشهابي الكبير الى الحازمية بالقرب من بيروت . ثم نهضوا منها قاصدين حمانا . ولما وصلوا تجاه قرية المكلس التي تطل على نهر بيروت اطلق عليهم الامير خنجر الحرفوش وجماعته الرصاص . فارسل اليهم سليمان باشا بعض الارناؤوط فتفرقوا وفرّ الامير خنجر الى جرد العاقورة وأحرق الارناووط المكلس ونهبوا المنصورية وبيت مري ودير القلعة وعادوا الى المعسكر . وكان الشهابي الكبير قد وجّه ابنه الامير خليلًا بجمهور من رجاله المجتمعين عنده لضرب «جمهور الساحل» فولّى هؤلاء منهزمين قبل وصول جماعة الامير الحاكم اليهم وتوجه كل منهم الى محله . وفرّ الامير محمود سلمان الشهابي فجدوا في طلبه ولم يدركوه . فكتب هو الى الامير عباس كنج الشهابي ان يتشفع به لدى الشهابي الكبير . فأجابه ووضعه في محرس . وقبض احد جنود الامير على الامير يوسف الشهابي وسار به الى بتدين فوضعه الامير الحاكم في محرس ايضاً . وحدث مثل هذا الى الامير فاعور الشهابي . وارسل الامير الحاكم جنودًا من قبله فالقى القبض على الشيخ حمود وولده الشيخ قاسم والشيخ عباس نصيف النكديين ووضعهم في الحبس . وقام الامير خليل من ساحل بيروت الى كسروان فجمع الاسلحة بقساوة واكره من لا سلاح له ان يشتري سلاحاً ويقدمه . واغلظ القول على من لم يكن من حزب والده . وقبض على الشيخ نقولا الخازن وارسله الى بتدين . اما الشيخ فرنسيس « سرعسكر النصارى » فانه فرّ من مخبأه الى قبرص وتبعه اليها الشيوخ بشاره وحصن وروفائيل الخازن . وقام عباس باشا وجيشه من ضواحي بيروت الى خان الحسين ومنه الى بتدين(٥٢٨) .

ورأى الشهابي الكبير « ان راحة الاهالي لا تتم الا بزوال المفسدين منهم » فوافق على نفي اربعة من الامراء الشهابيين الى سنار وهم الامير فاعور والامير يوسف والامير فارس والامير محمود وثلاثة من الامراء اللمعيين وهم الامير حيدر والامير علي والامير عبدالله وارسلهم الى صيدا «حسب الامر العالي» ومنها الى عكة فمصر . ورأى ايضاً ان الاشياخ النكديين حمودًا وقاسماً وعباساً منذ حضورهم الى لبنان بعد نفيهم الى مصر « استعملوا اسباب الفساد وانتظروا حدوث الحركات فحثوا دروز لبنان على مساعدة دروز اللجاه وحرضوا كثيرًا من الناس على

(٥٢٨) الامير بشير الشهابي الى محمد علي باشا : المحفوظات ج٤ ص ٤١١-٤١٢ ومحمود نامي بك الى حسين باشا : المحفوظات ج٤ ص ٤١٤-٤١٦ واخبار الاعيان ص ٦٠٠-٦٠١ وحروب ابراهيم باشا المصري ج٢ ص ٤٣-٤٧

ارتكاب العصيان ووزعوا الاسلحة سراً دون ان يتظاهروا بشيء خوفاً منهم على ابن عمهم الشيخ نصيف الذي كان لا يزال في القاهرة مع ولده وان المصلحة تقضي برمي القبض عليهم وارسالهم الى مصر »[٥٢٩] . واضاف الى هؤلاء شيخاً حازنياً واحداً هو الشيخ نقولا وستة واربعين عامياً ارسلوا الى الاسكندرية في مركبين من ميناء عكة مقيدين ازواجاً ازواجاً »[٥٣٠] .

ونحن نرى ان الشهابي الكبير كان مخلصاً كل الاخلاص في موقفه هذا فانه على الرغم من امتعاضه من سياسة الجانب المصري في بعض الاحيان كان لا يزال يؤثر الاستمرار في التعاون مع العزيز لما لمسه في شخصه من تجددٍ وتحرر ولما كان بين الاثنين من تعاهد وتعاقد . ولما خشي ان يحل بلبنان من ظلم واهمال وجور في حال رجوع الاتراك اليه . ودليلنا على هذا انه رفض التعاون مع الباب العالي عندما عرضه عليه عميل السفارة البريطانية في الآستانة المستر ريتشارد وود عام ١٨٣٥ . فقد قال هذا العميل في تقرير رفعه الى رؤسائه انه اتصل بالشهابي الكبير عملاً باوامر السفير وابان له ما يحدق به من خطر ان هو استمر في التعاون مع مصر وانه وضّح له الموقف الدولي وارجحية اعادة بر الشام الى السلطان وان الامير وعد بالتعاون مع السلطان اذا ضُمن النصر له ولكنه اضاف ان بر الشام يصبح قاعاً صفصفاً قبل تمكن الاتراك من الاستيلاء. عليه قال المستر وود هذا واضاف : « اني استنتجت من هذا الكلام الاخير ان بشيراً سيواظب على تعاونه مع ابراهيم نظراً لتأثير الفرنساويين عليه »[٥٣١] . وقال المسيو كوشله قنصل فرنسة العام في الاسكندرية في تقرير رفعه في الرابع عشر من تموز سنة ١٨٤٠ الى المسيو تيير رئيس الوزارة الفرنسية ووزير الخارجية ان العزيز شديد الثقة بالامير بشير وولائه وانه قال انه يعتمد عليه بقدر ما كان يعتمد على ابنه ابراهيم[٥٣٢] . ويجب الا يغيب عن البال ان بشيراً كان قد ذاق الامرين في عهد الاتراك وقاسى ظلمهم وان العزيز كان قد فرج الغمّ عنه مرارًا وأوصى به تكرارًا وهدّد اخصامه وتوعدهم بالعقوبة واحترم استقلاله بعد الفتح وعزز مكانته وان الامير الشيخ كان قد ناهز الرابعة والسبعين حين تفتر الهمم وتصطك الركب ويضيق الافق ويقصر الامل .

(٥٢٩) الامير بشير الشهابي الى محمد علي باشا – ٢٣ تموز سنة ١٨٤٠ – المحفوظات ج٤ ص ٤٢٠ – ٤٢٢

(٥٣٠) اخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق ص ٦٠١

(٥٣١) الملحق الاول لكتاب الدكتور هارولد تمبرلي انكلتره والقرم ص ٤٨١

(٥٣٢) مجموعة ادوار دريو : مصر واوروبة ج٣ ص ٢١

الفصل الثالث عشر

معاهدة لندن

١٥ تموز سنة ١٨٤٠

وفرضت الدول تدخلها فرضاً . وتبادلت الرأي في ظل مترنيخ في عاصمة النمسة . وخولت سفراءها في الآستانة ان تتقدم من الباب العالي بمذكرة مشتركة تمنع بها الوصول الى أي اتفاق بين السلطان وبين العزيز لم توافق هي عليه أولاً . فقدم السفراء هذه المذكرة في الثامن والعشرين من تموز سنة ١٨٣٩ . ولكن ما لبثت هذه الدول ان اختلفت اختلافاً لا أَمل في تلافيه بسهولة .

واول ما بدأَ الخلاف فيه مصير الاسطول العثماني . فما كاد وزير الخارجية البريطاني الفيكونت بالمرستون يسمع بانحياز الاسطول العثماني الى جانب العزيز حتى كتب الى البارون ادولف بوركني القائم بالاعمال الفرنسي في لندن والى اللورد غرانفيل السفير البريطاني في باريز يطلب موافقة الحكومة الفرنسية على برنامج أعمال بحرية مشتركة تكره العزيز على اخلاء سبيل الاسطول العثماني واعادته الى السلطان[٥٣٣] . فأجاب المرشال صولت بلطف وأَناقة « ان الاعمال الحربية توقفت في الشرق وانه ليس هنالك ما يدل على العودة اليها ان برًّا او بحرًا وان انحياز الاسطول في مثل هذه الظروف عمل يؤسف عليه ويجب اصلاحه ولكنه ليس من الاعمال المخطرة التي توجب اللجوء الى التذرع بما أُشير علينا به . والقيام بعمل عدواني من هذا النوع ضد عمل محمد علي لا يسهل الوصول الى الهدف الذي ترمي اليه انكلترة

---

(٥٣٣) الكتاب الازرق البريطاني : المجلد الاول ص ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٨ — ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٥٥—٢٥٦

وفرنسة معاً . فاذا ما حُطم الاسطول المصري وحُطم الباشا معه حُطمت الدولة العثمانية ايضاً . وسياستنا اليوم ومنذ بدء الازمة تقضي بألا ندع الآستانة تطلب معونة من الخارج دون موافقتنا »[٥٣٤] . وفي السادس والعشرين من آب اي بعد هذا بثلاثة اسابيع لمس القائم بالاعمال البريطاني في باريز السر هنري بولور ان حكومة المارشال صولت تعارض اللجوء الى العنف في معاملة محمد علي ان في الحد من طموحه او في اكراهه على اعادة الاسطول الى السلطان[٥٣٥] .

وكان القيصر نقولا الاول يبتعد عن المؤتمرات الدولية خشية اتخاذ قرارات بسلامة الدولة العثمانية[٥٣٦] ففرق بين المحافظة على استقلال الدولة وبين ضمان سلامتها واعرب عن استعداده للتعاون مع الحكومة البريطانية في الحد من مطامع العزيز وحضه على الاكتفاء بحكم مصر الوراثي واظهر رغبته في عدم تطبيق مواد معاهدة هنكار اسكله سي[٥٣٧] . فلفت هذا كله نظر الوزير البريطاني وجعله يغير موقفه من القيصر وحكومته ولاسيما وان هذه العروض جاءت في وقت كان قد بدأ الخلاف يدب فيه بين الحكومتين البريطانية والافرنسية . وأنس القيصر بهذا فجعل رئيس حكومته الكونت شارل فون نسلرود يفيد السفير البريطاني في بطرس برج المركيز كلانريكارد في السابع والعشرين من آب انه نظرًا لتحسن نوايا الحكومة البريطانية نحو روسية فان القيصر يرغب في تحسين هذا التحسن الى الدرجة القصوى وفي توثيق التفاهم السعيد بين الدولتين ولذا فان جلالته قرر ايفاد البارون دي برونوف احد كبار المحظوظين من رجال السياسة لديه في مهمة خاصة الى لندن[٥٣٨] .

وقام البارون دي برونوف الى لندن فوصلها في الخامس عشر من ايلول سنة ١٨٣٩ مزودًا بالتعليمات التالية : اولًا في انه يجب على الدول البحرية ان تتخلى عن عقد اتفاق دولي لضمان سلامة الدولة العثمانية . ثانياً ويجب ايضاً ان تتخلى هذه الدول عن الفكرة التي تقضي بدخول اساطيلها في بحر مرمرا في حال وصول قوات روسية لحماية الآستانة من جيش ابراهيم باشا . ثالثاً في ان القيصر يوافق على المبدأ القائل بوجوب اقفال المضايق في وجه سفن

(٥٣٤) المارشال صولت الى بوركني – ٦ آب سنة ١٨٣٩ – مذكرات غيزو ج٤ ص٥٣٢–٥٣٥

(٥٣٥) الكتاب الازرق البريطاني ج١ ص٣٢١

(٥٣٦) القائم بالاعمال البريطاني في برلين الى بالمرستون – ٢٥ تموز سنة ١٨٣٩ – الكتاب الازرق البريطاني ج١ ص٢٣٦–٢٣٧

(٥٣٧) الكتاب الازرق البريطاني ج١ ص ٢٩٩–٣٠٠ و ٣٧٥

(٥٣٨) كلانريكارد الى بالمرستون : الكتاب الازرق البريطاني ج١ ص٣٧٥

جميع الدول الحربية في السلم والحرب معاً . رابعاً وهو مستعد ايضاً ان يعلن ان معاهدة هنكار اسكله سي لن تجدد وانه اذا اقتضى ارسال قوة روسية لتعاون الباب العالي فانما يتم ذلك بموجب اتفاق الدول لا من جراء المعاهدة المذكورة[٥٣٩] . واتصل البارون دي برونوف فور وصوله الى لندن بالفيكونت بالمرستون فابان له استعداد القيصر لتبني وجهة النظر البريطانية بكاملها فيما يتعلق بالدولة العثمانية ومصر للمساهمة في جميع الاجراءات التي قد تصبح لازمة لتنفيذ وجهة النظار هذه وانه مستعد للتعاون مع انكلترة والنمسة وبروسية ومع فرنسة او بدونها . وأضاف ان القيصر وان كان يرى الفائدة من انضمام فرنسة فانه يفضل شخصياً ابقاءها خارج هذا التكتل . وهو يشعر بانه جدير بالثقة ويأمل ان توليه اياها الحكومة البريطانية دون اي تحفظ فتترك له امر الدفاع عن الآستانة وآسية الصغرى وتتولى هي ما يلزم اجراؤه في البحر المتوسط وفي الساحلين المصري والشامي[٥٤٠] .

وعرف بالمرستون مدى تأثير هذه العروض في نفوس وزراء فرنسة فأطلعهم عليها في حينها راجياً ان يتوصل بذلك الى تفاهم معهم حول القضية المصرية التركية . ولكنه لم ينقل اليهم رغبة القيصر في ابقاء دولتهم خارج التكتل الاوروبي . فاستدعى اليه الكونت هوارسيوس سيباستياني سفير فرنسة في لندن واطلعه على ما تقدم واظهر ميله الى قبوله ورجاه ان ينقله الى حكومته ففعل . وما ان اطلع المارشال صولت على عروض القيصر واستعداد بالمرستون لقبولها حتى اضطرب ثم كتب الى سيباستياني يقول انه استغرب سذاجة بالمرستون على الرغم من ثقافته وتيقظه وانه لا يرى في العروض الروسية سوى مطامعها المعروفة ومحاولة للتفرقة بين الحكومتين[٥٤١] .

ورأى مجلس الوزراء البريطاني في جلسة عقدها في اول تشرين الاول من السنة نفسها ان يعدل القيصر اقتراحه فيسمح باشتراك الاسطول البريطاني في الدفاع عن الآستانة اذا قضت الظروف بذلك . فنقل بالمرستون قرار المجلس الى المفاوض الروسي واستفاض في شرحه فأجاب البارون دي برنوف ان الرأي في ذلك هو رأي القيصر وانه ليس عليه الا ان ينقل ذلك اليه[٥٤٢] .

---

(٥٣٩) البوسفور والدردنيل لسرجيوس غوريانوف ص٦٣ و ٦٧

(٥٤٠) حياة بالمرستون للسر هنري بولور ج٢ ص ٣٠٠ — من بالمرستون الى بولور في ٢٤ ايلول سنة ١٨٣٩

(٥٤١) صولت الى سيباستياني — ٢٦ ايلول — الكتاب الازرق البريطاني ج١ ص ٤٠٦-٤٠٨

(٥٤٢) برونوف الى نسلرود — ٨ تشرين الاول — الكتاب الازرق البريطاني ج١ ص ٤٤٢-٤٤٦

وفي السابع والعشرين من ايلول نقل الكونت سياستياني الى الوزير البريطاني اقتراحاً فرنسياً جديداً قضى بتخلي العزيز عن ادنه وباحتلال كريت مدى الحياة وبقاء الباقي من اراضيه في يده بشكل وراثي . فاجاب الوزير البريطاني باقتراح آخر يتضمن قبول الحكومة البريطانية بالحكم الوراثي في مصر وايالة عكة ما عدا حصن عكة شرط ان توافق الحكومة الفرنسية على الاشتراك في عمل العنف اذا قضت الظروف باكراه العزيز على قبول مقترحات الدول[٥٤٣] . ولكن المارشال ابى ان يوافق مبيناً صعوبة التنفيذ متذرّاً ان القضية ليست في يده وحده وانما تعود الى العزيز في النهاية . فأصغى الكونت بالمرستون الى الكونت سياستياني كل الاصغاء اثناء نقل جواب المارشال . وعند الانتهاء قال له : « اني باسم مجلس الوزراء اسحب ما كنت قد وافقت عليه في اقتراحي السابق من حيث اعطاء محمد علي ايالة عكة ملكاً وراثياً[٥٤٤] .وما ان نقل السفير الفرنسي الى حكومته حتى قامت هذه تبرر موقفها للسفير البريطاني في باريز فاكدت انه لو كان بامكانها لاعادت مصر نفسها الى السلطان وأبانت ان القضية قضية الوصول الى ما يمكن تطبيقه لا الى ما ترغب هي فيه .فهي لا ترى ان الوسائل اللازمة لاخراج محمد علي من بر الشام موفورة لدى الدول فليس بامكانها هي ان تقدم قوة عسكرية لهذه الغاية كما انه يتعذر على بروسية والنمسة القيام بالعمل نفسه وكذلك انكلترة فانها ليست مستعدة لارسال جيش الى الشرق . وهكذا فان اللجوء الى العنف سيؤدي الى ظهور جيش روسي في عاصمة السلطان . وهو امر يُضعف السلطان في معنوياته اكثر بكثير من تقوية تابعه محمد علي[٥٤٥] . اما بالمرستون فانه ردّ على هذا كله بقوله انه ليس بمقدور العزيز ان يقاوم قوة اوروبية مشتركة وان ظهور الروس في الآستانة باسم الدول جمعاء لا يؤدي حتماً الى امتيازات خاصة تحد من سلطة السلطان[٥٤٦] .

وفي اثناء هذا كله كان البارون دي برونوف قد عاد الى مركزه في شتوتغارت واتصل بحكومته مبيناً نتيجة مفاوضاته في لندن . فسُرّ القيصر مما وصل اليه ممثله ورأى انه اذا قبل بشروط بالمرستون انحل التحالف الفرنسي الانكليزي وحلّ محله تفاهم بين الامبراطورين الشرقيين من جهة وبين انكلترة من جهة وتخلّص هو من التحالف الغربي المزعج . وأمر

(٥٤٣) سياستياني الى صولت – ٢ تشرين الاول – مذكرات غيزو ج٤ ص ٥٥٤
(٥٤٤) سياستياني الى صولت – ١٨ تشرين الاول – مذكرات غيزو ج٤ ص ٣٦٦–٣٦٧
(٥٤٥) غرانفيل الى بالمرستون – ٢٥ تشرين الاول – الكتاب الازرق البريطاني ج١ ص ٤٥٧
(٥٤٦) المجموعة نفسها ج١ ص ٤٩٠–٤٩١

ممثله ان ينقل موافقته على مشروع بالمرستون وان يفاوض لعقد اتفاق بهذا المعنى[٥٤٧] . فقام برونوف الى لندن في اوائل كانون الثاني سنة ١٨٤٠ يحمل الاقتراح التالي : اولاً تسوية الخلاف التركي المصري تسوية دولية تضمنها اوروبة . ثانياً اعطاء محمد علي مصر وبر الشام حتى قلعة عكة بشكل وراثي واعادة الاراضي الباقية تحت حكمه الى السلطان . ثالثاً اذا امتنع عن قبول هذه التسوية تفرض عليه فرضاً من قبل الدول . رابعاً اذا توغل ابراهيم باشا في آسية الصغرى تنزل روسية جنودها لحماية الآستانة باسم الدول وتمخر سفن الدول عبر الدردنيل الى بحر مرمرا . خامساً ولدى الانتهاء من هذه المهمة وبعد اخضاع محمد علي يقفل الباب العالي المضايق في وجه جميع السفن الاوروبية[٥٤٨] . فاستدعى الوزير البريطاني سفير فرنسة اليه واطلعه على الاقتراح الروسي ثم اضاف قائلاً ان البارون نومان قد وصل من فيينة لينقل موافقة حكومته على الاقتراح الروسي وبامكاني ان اؤكد ان بروسية ستوافق ايضاً ولذا فاني ارجو الا ترفض فرنسة التعاون معنا[٥٤٩] .

وامتعض المارشال الفرنسي وخشي سوء العاقبة واحتار في امره فصبَّ غضبه على الكونت سياستياني ممثله في لندن ونسب اليه عطفاً خاصاً على الاتراك جعله يوافق بالمرستون في رايه. فاستدعاه الى باريز وعين مكانه فرانسوا غيزو الذي كان قد اشتهر بدفاعه عن الوضع الراهن في الشرق[٥٥٠] . وأوصاه بوجوب السعي لاعطاء محمد علي حكماً وراثياً في بر الشام ومصر معاً ولجعل الحد الفاصل بينه وبين السلطان جبال طوروس لا صحراء سيناء..ولكن قضية معاش الدوك دي نيمور التي اثيرت في المجلس النيابي الفرنسي ادت الى سقوط وزارة صولت قبل ان يتمكن غيزو من القيام بما اوكل اليه . وكان رئيس الوزارة الجديد لويس تيير قد رفع صوته عالياً في المجلس النيابي في الثالث عشر من كانون الثاني مدافعاً عن التحالف الفرنسي البريطاني مبيناً اهمية المحافظة على السلم في اوروبة . فاستبشر الوزير البريطاني بوصوله الى منصة الحكم في فرنسة وأمّل به خيراً[٥٥١] . ولكن غيزو خشي سخط الرأي العام الفرنسي بقدر ما خشيه سلفه المارشال فلم يجرؤ على القول باكراه العزيز واللجوء الى العنف في معالجة

(٥٤٧) كلانريكارد الى بالمرستون – ٢٢ تشرين الثاني – ونسلرود الى كيسيليف بالتاريخ نفسه : المجموعة نفسها ج١ ص ٥٠٢ و ٥٠٤–٥٠٥

(٥٤٨) المجموعة نفسها ايضاً ج١ ص ٥٢٩–٥٣١ راجع ايضاً مذكرات غيزو ج٤ ص ٥٥٩–٥٦١

(٥٤٩) انكلترة ومملكة اورليان للاجور جون هول ص ٢٥٨

(٥٥٠) مذكرات غيزو ج٤ ص ٣٧٠

(٥٥١) بالمرستون الى بوفايل –١٢ اذار سنة ١٨٤٠– الكتاب الازرق البريطاني ج١ ص ٦٠٠–٦٠٣

مشكلته . ولذا فانه أوصى السفير الفرنسي في لندن بوجوب المماطلة لكسب الوقت وافساح المجال للعزيز لتسوية قضيته مع الباب العالي مباشرة ولاضجار الدول واستخراج حلٍ منها افضل واقرب لصالح العزيز(٥٥) .

وكان الوزير البريطاني قد طلب في الخامس والعشرين من كانون الثاني الى الحكومة العثمانية ايفاد ممثل الى لندن يفاوض في امر ابرام اتفاق دولي لحل المشكلة المصرية . فقر قرار هذه الحكومة على ايفاد سفيرها في باريز نوري لهذه الغاية . وما ان وصل نوري افندي الى لندن في مطلع نيسان حتى حرر رسمياً الى ممثلي الدول في لندن ينبئهم بالصلاحيات المعطاة اليه لعقد اتفاق يحل المشكلة المصرية . وأضاف ان السلطان مستعد لمنح محمد علي حكماً وراثياً في مصر مقابل تنازله عن سائر الايالات التي وجهت الى عهدته سابقاً ومقابل اعادة الاسطول العثماني الى مياه البوسفور(٥٥٣) . فاجاب هؤلاء جميعهم بانهم مستعدون للتعاون معه في تنفيذ رغائب حكوماتهم الصديقة التي تجلت في مذكرتهم المشتركة المؤرخة في السابع والعشرين من تموز سنة ١٨٣٩ . اما غيزو فانه اعترف بتسلم المذكرة الموجهة اليه واضاف انه سيعرضها على حكومته(٥٥٤)

وكان البرنس مترنيخ يخشى امتناع فرنسة عن التعاون مع سائر الدول فيرى انه سوف لا يرسل قوة عسكرية الى الشرق لاجلاء المصريين عن بر الشام او الصمود في وجههم في محل آخر وان بروسية ايضاً ستمتنع هي ايضاً عن ارسال مثل هذه القوة لعدم وجود اية مصلحة لها في الشرق توجب مثل هذا العمل ويرى كذلك انه ليس لانكلترة قوات برية يمكن ارسالها الى الشرق وان قوى انكلترة والنمسة وروسية البحرية قد لا تكفي لمراقبة الاسطول الفرنسي والقيام باعمال حربية اخرى في آنٍ واحد . ولذا فانه اصر على ممثله في لندن ان يتصل بالسفير الفرنسي لايجاد حل يمكّن فرنسة من الاشتراك في الاتفاقية الدولية المنتظرة(٥٥٥) . فقام كل من ممثل النمسة البارون فيليب نومات وممثل بروسية فرايهر فون بيلوف يحثان السفير الفرنسي في لندن على ايجاد حل لتردد فرنسة وتاخرها عن التعاون مع زميلاتها وصديقاتها(٥٥٦) . وطال امد التفاوض فتجاوز الشهرين ايار وحزيران وتاخرت نتائجه . وظلّ تيير من

(٥٥٢) مذكرات غيزو ج٥ ص ٦٤

(٥٥٣) نوري افندي الى بالمرستون-٧ نيسان سنة١٨٤٠-الكتاب الازرق البريطاني ج١ص ٦٢٤-٦٢٥

(٥٥٤) المجموعة نفسها ج١ ص ٦٢٧

(٥٥٥) مذكراته الالمانية ج٦ ص ٤٢٩-٤٣٩

(٥٥٦) مذكرات غيزو ج٥ ص ٧٨ و ٨١-٨٢ و ٨٢-٨٣

جرائه وظن انه بامكانه ان يضغط على بالمرستون لتعديل موقفه من العزيز بواسطة النمسة وبروسية[٥٥٧] .

ومما زاد في مماطلة الافرنسيين تقرير سفيرهم في الآستانة عن توقع عزل محمد خسرو باشا من منصب الصدارة في السابع عشر من ايار ووقوع هذا العزل في السابع من حزيران . فانهم أشاروا على العزيز بوجوب اغتنام الفرصة والظهور بمظهر التودد والعبودية للسلطان الحديث لعله يفلح في الوصول الى حل مشكلته دون تدخل الدول . فالاميرال ادوار ده بونتوا سفير فرنسة في الآستانة كتب الى القنصل كوشله يتوقع عزل محمد خسرو باشا في السابع عشر من ايار ويوصي العزيز بارسال من يقوم بفروض العبودية للسلطان ويفاوض في حل المشكلة . وما ان تيقن العزيز وقوع العزل حتى أوفد سامي بك أحد كبار رجاله الى الآستانة في السادس عشر من حزيران يهنئ السلطان بالمولودة الجديدة « موهبة » وبتغيير الصدر الاعظم ويطلب اليه ان يأمر بعودة الاسطول اليه اما بامارة أحمد فوزي باشا أو امارة موطوش باشا وبجول نجل العزيز محمد سعيد بين يديه[٥٥٨] . ووصل سامي بك الى الآستانة ومثل بين يدي الحضرة السلطانية فانعم السلطان عليه بهدية ثمينة وزوده برسالة الى العزيز يطلب فيها اعادة الاسطول بقيادة محمد سعيد بك دون ان يسمح باجراء اية مفاوضة معه . فعاد الى حيث اتى ووصل الاسكندرية في الثالث والعشرين من تموز[٥٥٩] .

وكان من جملة العوائق التي أخرت انجاز المعاهدة الاختلاف الذي نشب في شهر اذار بين الحكومة البريطانية وبين حكومة نابولي حول احتكار الكبريت في صقلية . وما ان بدأ فرديناند باعداد قوة عسكرية في صقلية للدفاع عنها حتى أمرت الحكومة البريطانية الاميرال السر روبرت ستوبفورد ان يحاصر الشاطئ ويصادر سفن نابولي ويرسلها الى مالطة . فتوسط رئيس الوزارة الفرنسية لحل المشكلة وقبل الطرفان بذلك ولكن التسوية لم تتم قبل أوائل تموز . ومما شغل رجال السياسة عن المسألة المصرية في هذه الآونة نفسها نقل رفاة نابوليون الاول من جزيرة القديسة هيلانة الى الانفاليد في باريس . وكان الملك لويس فيليب شديد الرغبة في هذا الامر ولم يقل عنه رغبة رئيس وزارته المؤرخ تيير .

---

(٥٥٧) تيير ومحمد علي لفرانسوا شارل رو ص ٥٥—٥٩

(٥٥٨) ده بونتوا الى كوشله وكوشله الى تيير : مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٢ ص ٢٩٣—٢٩٤ و ٣١١—٣١٣ و ٣١٣—٣١٥

(٥٥٩) كوشله الى تيير — ٢٣ تموز — مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ٥٥

وكان لا بد من موافقــة الحكومة البريطانية فجرت مفاوضات شغلت الحكومتين فترة من الزمن .

وفي غضون هذا كله حلّ شكيب افندي محل نوري افندي ووجه في الحادي والثلاثين من ايار مذكرة الى ممثلي الدول ابان فيها ما تقاسيه بلاده من عــدم الاستقرار وما يتوجب على ممثلي الدول من اسراع في العمل لتجنب ما لا تحمد عقباه(٥٦٠) . ثم عزل محمــد خسرو باشا ووصل نبأ عزله في الثــاني عشر من حزيران فاهتم الممثلون للامر واستدعى الوزير البريطاني سفير فرنسة اليه وطلب منه تبيان موقف حكومته من العرض النمساوي البروسياني الاخير وذلك بشكل واضح لا يدعو الى الشك . وتضمن هذا العرض الحكم الوراثي في مصر والحكم مدى الحياة في جزء من بر الشام . فطلب المسيو غيزو الى الوزير البريطاني ان يمهله الجواب كي يتمكن من استشارة حكومته . ففعل . وفي السادس عشر من الشهر نفسه كتب تيير يفيد انه ليس بامكانه ان يعرض اقتراح نومان عــلى العزيز لانه سوف لا يلقى القبول ولان حجج العزيز في الرفض سوف لا تلاقي جواباً مقنعاً(٥٦١) .

وهكذا عندما يئس الجميع من امكانية التعاون مع فرنسة عقدوا اجتماعين سريين في بيت الفيكونت بالمرستون في الحادي والعشرين والثامن والعشرين من حزيران واتفقوا على اسس المعاهدة لحل المشكلة . ولما كان لا بد من عرض هــذه الاسس على مجلس الوزراء البريطاني طلب بالمرستون الى زملائه المفاوضين ان يمهلوه لهذه الغاية فوافقوا . وما ان فعــل حتى لاقى من زملائه الوزراء معارضة شديدة اساسها عــدم رغبتهم في الانفصال عن فرنسة وحلّ التحالف معها . فهدد بالمرستون بالاستقالة وأبان في رسالته الى اللورد وليم ملبورن ان عدم التعاون مع الدول الثلاث سيؤدي حتماً الى تقسيم الدولة العثمانية الى دولتين مستقلتين كل الاستقلال احداها تدور في محور روسية والاخرى تتبع فرنسة وانه سوف يضمحل نفوذ بريطانية في الاثنتين وتضحى مصالحها التجارية(٥٦٢) . ووافق هذا كله وصول تقارير ضافية من الكولونيل هودج في الخامس من تموز تبين تفاقم الثورة في لبنــان فوافق جميع الوزراء على عقد المعاهدة موضوع البحث ما عدا اللورد هولاند واللورد كلارندن(٥٦٣) . وفي الثامن من تموز أعلن بالمرستون الى زملائه المفاوضين انه نجح في اقناع زملائه الوزراء بوجوب عقد

(٥٦٠) شكيب افندي الى بالمرستون : الكتاب الازرق البريطاني ج١ ص ٦٥٨–٦٦٠

(٥٦١) انكلترا والمملكة الاورليانية للاجور جون هول ص ٢٦٧–٢٦٨

(٥٦٢) حياة بالمرستون للسر هنري بولور ج٢ ص ٣٥٩–٣٦٠ و ٣٦١–٣٦٣

(٥٦٣) حياة اللورد جون رسل لسبنسر وولبول ج١ ص ٣٦٢

معاهدة دون فرنسة[٥٦٤] . وفي الخامس عشر من تموز وقع ممثلو الدول الاربع معاهدة مع السلطان لنشر السلم في الشرق دون فرنسة .

وجاءت المعاهدة هــذه في ديباجة سبعة بنود . ونصت الديباجة ان اصحاب الجلالة ملكة بريطانية وامبراطور النمسة وملك بروسية وقيصر روسية نظرًا لسلوك محمد علي العدائي وللخطر الذي احاق بالدولة العثمانية ومراعاة للود الذي يربط بينهم وبين السلطان ورغبة في السلم وفي صيانة الدولة العثمانية واتباعاً لنص المذكرة المشتركة التي قدمت للباب العالي في السابع والعشرين من تموز سنة ١٨٣٩ ومنعاً لاهراق الدماء في بر الشام فقــد اتفق اصحاب الجلالة وعظمة السلطان على عقد المعاهدة الآتية : وتبع هذه المعاهدة ملحق اعتبر جزءا منها. واليك خلاصة شروط المعاهدة والملحق :

اولًا : يخول محمد علي وخلفاؤه حكم مصر الوراثي . ويكون له مدة حياته حكم المنطقة الجنوبية من بر الشام المعروفة بولاية عكة بمــا فيها مدينة عكة نفسها وقلعتها[٥٦٥] شرط ان يقبل ذلك في مدة لا تتجاوز عشرة ايام من تاريخ تبليغه هــذا القرار وان يشفع قبوله باخلاء جزيرة كريت وبلاد العرب واذنه وان يعيد الى السلطان اسطوله .

ثانياً : اذا لم يقبل محمد علي هذا القرار في مدة عشرة ايام يحرم الحكم على ولاية عكة ويمهل عشرة ايام اخرى لقبول الحكم الوراثي لمصر وسحب جنوده من جميع الاراضي العثمانية وارجاع الاسطول العثماني فاذا انقضت هذه المهلة دون قبول هذه الشروط كان السلطان في حل من حرمانه ولاية مصر .

ثالثاً : يدفع محمد علي جزية سنوية للباب العالي بنسبة البلاد التي تعهد اليه ادارتها .

رابعاً : تسري في مصر وولاية عكة المعاهدات التي ابرمتها السلطنة العثمانية وقوانينها ويتولى محمد علي وخلفاؤه جباية الضرائب باسم السلطان على ان يؤدوا الجزية ويتولوا الانفاق على الادارة العسكرية والمدنية في البلاد التي يحكمونها .

خامساً : تعد قوات مصر البرية والبحرية جزءا من قوات السلطنة العثمانية ومعدة لخدمتها .

---

(٥٦٤) المسالة الشرقية لمازن كليفر ص ١٦١-١٦٣

(٥٦٥) وحددت هذه المنطقة في ملحق المعاهدة كما ياتي : يبدأ الحــد من رأس الناقورة على شاطئ البحر الابيض المتوسط في مصب نهر السيسبان في شمال بحيرة طبرية ثم يتبع الشاطئ الغربي لهذه البحيرة فالضفة اليمنى لنهر الاردن فالشاطئ الغربي لبحر الميت ومن نهايته يمتد على خط مستقيم الى راس خليج العقبة . ثم يتبع الشاطئ الغربي لخليج العقبة ثم الشاطئ الشرقي لخليج السويس حتى مدينة السويس ذاتها .

سادساً : يتكفل الحلفاء في حالة رفض محمد علي لهذه الشروط ان يلجأوا الى وسائل القوة لتنفيذها . وتتعهد انكلترة والنمسة في خلال ذلك ان تتخذا باسم الحلفاء وبناء على طلب السلطان كل الوسائل لقطع المواصلات بين مصر وبر الشام ولمنع وصول المدد من احداها الى الاخرى ولتعضيد الرعايا العثمانيين الذين يريدون خلع طاعة الحكومة المصرية والرجوع الى الحكم العثماني وامدادهم بكل ما لديها من المساعدات .

سابعاً : اذا لم يذعن محمد علي للشروط المتقدمة وجرد قواته البرية والبحرية على الآستانة يتعهد الحلفاء بان يتخذوا بناء على طلب السلطان كل الوسائل لحماية عرشه وجعل الآستانة والمضايق في مأمن من كل اعتداء[٥٦٦] .

(٥٦٦) راجع بمجموعة دربو مصر واوروبة ج٣ ص ٢٤٨ – ٢٥٧ وتاريخ الحركة القومية في مصر لعبد الرحمن الرافعي بك ج٣ ص ٣١٧–٣١٨

الفصل الرابع عشر

الجــلاء

١٨٤٠ - ١٨٤١

الدول والعزيز وثار ثائر فرنسة حكومةً وشعباً لمـا حلّ بها من عزلة وخذلان ونادت جرائدها المتطرفة والمعتدلة بالاستعداد للحرب ووافقت الحكومة على ذلك وارصدت مبلغاً طائلاً من المال لتضيد اسطول البحر المتوسط ودعت صفي ١٨٣٦ و ١٨٣٩ لخدمة العلم وسعى سفراء فرنسة في برلين وفينة والآستانة لاعادة النظر وتاجيل التنفيذ. وكتب لويس فيليب الى نسيبه ليوبولد ملك بلجيكة الذي كان آنئذ في لندن ان يعمل بمثل ما تقدم[٥٦٧]. واوفد المسيو تيير مندوباً خاصاً الى مصر الكونت فاليفسكي ابن نابوليون غير الشرعي ليقنع الباشا بقبول ما يسمى الامبرال ده بونتوا الحصول عليه في الآستانة وباعطاء فرنسة حق المفاوضة باسمه لدى السلطان[٥٦٨].

ولم يؤثر شيء من هـذا في نفسية الوزير البريطاني الفيكونت بالمرستون فكتب الى اللورد غرانفيل في الرابع من آب يقول ان اجراءات فرنسة الحربية لا مبرر لها وان الحكومة البريطانية سوف لا تأخذ علماً بها وسوف لا تطلب اعتمادات اضافيـة من مجلس العموم وان القوى البحرية البريطانية في البحر الابيض المتوسط كافية لتنفيـذ مقررات معاهدة الخامس عشر من تموز[٥٦٩]. وكتب الكونت نسلرود الى البارون ماين دورف سفير روسية في برلين

---

(٥٦٧) مذكرات غيزو ج٥ ص ٢٢٨ ومجموعة دوفرجيه للقوانين الخ ج٤٠ ص ٢٦٤ والكتاب الازرق البريطاني ج٢ ص ٦٠

(٥٦٨) تيير ومحمد علي لفرانسوا شارل رو ص ٩٥-٩٩

(٥٦٩) الكتاب الازرق البريطاني ج٢ ص ٦٢-٦٣

في الثامن منه ان فرنسة تصبح خطرة في اوروبة عندما تضمن معاضدة انكلترة وانها سوف تعود الى رشدها عندما تتيقن من انها عاجزة عن تفرقة الحلفاء. وانها ستتردد قبل اعلان الحرب على الحلفاء.[٥٧٠] . اما البرنس مترنيخ فانه اضطرب وخشي هبوب ثورة في فرنسة وشاركه في اضطرابه الملك فريدريك وليم الرابع وذهب الى ابعد من هذا فكتب الى حكومات اوربة يؤكد عزمه على المحافظة على حياد بروسية في حال نشوب حرب اوروبية[٥٧١] .

وقام فريق من الوزراء البريطانيين يظهرون اسفهم لانعزال فرنسة ويبينون استعدادهم لوضع حد لما جرى فظن المسيو تيير انه بامكانه ان يعدل قرارات مؤتمر لندن فاستدعى المسيو غيزو اليه ودرس الموقف معه واعاده الى لندن حاملًا عرضين جديدين لحل الازمة . وقضى العرض الاول بتاييد الوضع الراهن في الشرق دون حكم وراثي في مصر وبتدخل الدول الخمس لقسر المعتدي واعادته ضمن حدوده . وتضمن العرض الثاني تدخل فرنسة في المفاوضات الدولية على اساس اعطاء العزيز حكماً وراثياً في مصر وحكماً مدى الحياة في بر الشام. وعاد السفير الفرنسي الى لندن واتصل بالوزير البريطاني وتحدث اليه في موضوع هذين العرضين فأجابه الوزير بان سلامة الدولة العثمانية بمعاهدة خماسية امر حسن يجوز السعي اليه بعد الانتهاء من تنفيذ مقررات لندن الرباعية . ثم كتب في الحادي والثلاثين من آب مذكرة رسمية ردّ فيها على ملاحظات تيير وابان انه ليس لفرنسة الا ان تلوم نفسها لما حلّ بها من عزلة[٥٧٢] .

وأعلمت الحكومة الفرنسية العزيز بمضمون المعاهدة فحذرته من تطور الموقف الدولي وامكانية انزال عساكر انكليزية في بر الشام ونصحت اليه بوجوب الاستعداد لمقابلة الانكليز وردهم ووجوب ابعاد العساكر الاسطنبوليين الى داخل بر الشام كي لا يقعوا في شرك الانكليز[٥٧٣] . وفعل مثل هذا احد اعضاء مجلس العموم البريطاني الدكتور جون بورنغ فأعلم صديقه عزيز مصر بما آلت اليه المفاوضات الدولية في حينها في لندن[٥٧٤] . فكتب العزيز الى ابنه ابراهيم

---

(٥٧٠) مذكرات الكونت شارل نسلرود ج٨ ص ٣٥–٣٧

(٥٧١) مذكرات البرنس مترنيخ ج٦ ص ٤١٢–٤١٣ وتاريخ المانية في القرن التاسع عشر لتريتشكي ج٥ ص ٧٩

(٥٧٢) مذكرات غيزو ج٥ ص ٢٧٠–٢٧١ و ٢٨٧–٢٨٨ راجع ايضاً مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ٣٧–٣٩ و ١٩١–٢٠٥

(٥٧٣) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا – ٣١ تموز ١٨٤٠ – المحفوظات ج٦ ص ٤٢٤

(٥٧٤) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا – ٥ آب سنة ١٨٤٠

في الخامس من آب سنة ١٨٤٠ يقول : لقد ظهر مرة اخرى من كتاب الدكتور بورنغ ان برلمان لندن اصدر قرارًا في مسألتنا كما سبق لكم ان علمتم ذلك من كتابنا المؤرخ في غرة جمادى الاخرة — ٣١ تموز — لقد ظهرنا بمظهر البطولة والبسالة عندما اعلنوا علينا حرب الاعصاب وارادوا ان يقضوا علينا . فيجب علينا ان نقابل دسائسهم هذه بما يجب متذرعين بالمثل القائل ليكن ما يكون ويجب ان نثبت بالميدان فان متنا متنا مشرفين مكرمين وان عشنا عشنا كذلك . وهو امر تفرضه علينا روح البطولة والانسانية الحقة . واصبح لزاماً علينا ان نشمر عن ساعد القوة[٥٧٥] .

ولم يصل نبأ اتفاق الدول الاربع الى الآستانة قبل الثالث من آب من السنة نفسها . فهبّ وزراء الترك لتطبيق الاتفاق واوفدوا مستشار الخارجية رفعت بك ورئيس الليمان ابراهيم خوجه قبودان مصحوبين بالمستر ألسن « معاون الكولونيل الانكليزي » الى الاسكندرية فوصلوا اليها في الثالث عشر من آب وادخلوا حمام البحر للحجر الصحي[٥٧٦] . وفي السابع عشر من الشهر نفسه حمل رفعت بك الى العزيز خطاباً من الباب العالي يتضمن مقررات لندن ولم ينقل شيئاً يخرج عن مضمون هذه المقررات ولكنه « ادلى بها باسلوب لين يكاد يبلغ درجة الضراعة والابتهال » . فقدّر العزيز انه مرخص لرفعت بك ان يتوسع في مأموريته بعض الشيء ولذا فانه رد عليه بالرد اللازم « القاطع » فبات رفعت بك في حيرة من امره[٥٧٧] وعاد الى قناصل الدول يطلب معونتهم فدخلوا على العزيز وابلغوه بدورهم نص المقررات المعهودة وعرضوا عليه ان تكون مصر له ولورثته من بعده وعكة مدة حياته وامهلوه عشرة ايام يقبل فيها ما عرضوه عليه رسمياً ودونوا ما قالوه وحذروه عواقب الامتناع .

وكان فاليفسكي ابن نابوليون غير الشرعي يحض العزيز على الاعتدال ويحبب اليه معونة فرنسة والسماح لها بالمفاوضة باسمه فرأى العزيز ان ذلك « لم ينشأ عن حب فرنسة لمصر وانما نشأ عن رغبتها في الخروج من العزلة التي وقعت فيها وانه على الرغم من اعراضه في بادئ الامر فانه سيقبل مضطراً[٥٧٨] .

ومضى العزيز في استعداداته الحربية فأمر بغض النظر عن ارسال الجنود الى اللجاة

---

(٥٧٥) المحفوظات ج٤ ص ٤٢٦

(٥٧٦) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظاب ج٤ ص ٤٣٠

(٥٧٧) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج٤ ص ٤٣٣

(٥٧٨) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا —٣١ آب سنة ١٨٤٠— المحفوظات نفسها ج٤ ص ٤٤٣—٤٤٤
راجع ايضاً فاليفسكي الى تيير بمجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ١٨٠—١٨١

والاعتناء بالساحل الشامي وبوجوب تجنيد نصارى لبنان وتوزيعهم على الالايات الجهادية لايقاع الانكليز في اليأس وازالة عداوة المسلمين له في بر الشام[٥٧٩]. ونقل العساكر الاسطنبوليين من بيروت فأبعدهم الى بعلبك ووزع ضباطهم على سالايات الجيش وألحق قائدهم حسن رأفت باشا بالسرعسكر نفسه ورأى ان الضباط الاسطنبوليين من الاسطول السلطاني ويعين ضباط مصريين محلهم ويمزج انفار الاسطولين المصري والاسطنبولي[٥٨٠]. وأمر السرعسكر بوجوب بقائه قريباً من الساحل الشامي واستعان بمطارنة النصارى فنبهوا بوجوب الابتعاد عن العدو وهددوا بالحرم وعاونهم بذلك الاب اتيان العازاري الذي اوفد خصيصاً من فرنسة لردع الكاثوليك عن الثورة وحضهم على الانقياد لاوامر الحكومة المصرية واوعز الى علماء المتاولة بتحريض الاهالي على الجهاد في سبيل الدين لان القوة المهاجمة اجنبية وانعم على الامير بشير الكبير واولاده وبعض اعيان الدروز باوسمة لائقة[٥٨١]. وأمر بانشاء ابراج للاشارة بين مصر والعريش وعكة كما أمر بتحصين ثغور مصر وانتدب لهذه الغاية كلاً من ادهم بك وحكاكيان بك وبرتو افندي وسليم باشا[٥٨٢]. ورأى ابراهيم باشا ان يُنعم على سليمان باشا الفرنساوي بمبلغ من المال نظرًا لشدة حرصه وجشعه[٥٨٣].

ولما انقضى الموعد المعين بين القناصل وبين العزيز عادوا اليه مصحوبين برفعت بك ليتعرفوا الى ما استقر عليه رايه فألفوه على رفضه السابق. وحاول الكولونيل هودج قنصل انكلترة ان يقول شيئاً فأسكته العزيز وانتهت المقابلة. وكان العزيز قد كتب الى الصدر في الرابع والعشرين من آب اي قبل هذه المقابلة بيومين مؤكدًا خضوعه للسلطان موافقاً على الحكم الوراثي في مصر تاركاً ما تبقى لتعطف السلطان واتفق مع رفعت بك على اشياء معينة وطلب الى الصدر ان يصغي الى ما ينقله رفعت شفاهاً وكتب العزيز بمثل ما تقدم الى والدة السلطان ورشيد باشا. فأحب رفعت بك بعد فشل المقابلة بين القناصل وبين العزيز ان يعود الى الآستانة ولكن قنصل روسية ألح بوجوب بقائه فاضطر العزيز ان يستعين بباخرة فرنساوية لتنقل رسالته الى الصدر ومعها تعليقات رفعت على الموقف[٥٨٤]. ووافق على قيام الكونت

(٥٧٩) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات جـ٤ ص ٤٢٥ و ٤٢٦ و ٤٣٧
(٥٨٠) المحفوظات ايضاً جـ٤ ص ٤٣٨ و ٤٤٣ و ٤٦٢
(٥٨١) المحفوظات جـ٤ ص ٤٤٨ و ٤٥٦ و ٤٦٠ و ٤٦١
(٥٨٢) المحفوظات ايضاً جـ٤ ص ٤٤٨ و ٤٥٨
(٥٨٣) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات جـ٤ ص ٤٣٨
(٥٨٤) كوشله الى تيير : مجموعة ادوار دربو مصر واوروبة جـ٣ ص ١٤٨ – ١٥٠ راجع ايضاً ص ١٥٩–١٦٠ و ١٨٩–١٨١

فاليفسكي الى الآستانة ليمهد السبيل لرفعت بك فيها ويتعاون معه بعد رجوعه اليها[٥٨٥] .

وفي الخامس من ايلول في نهاية المهلة الثانية طلب رفعت بك وقناصل الدول مقابلة العزيز للوقوف على رأيه النهائي فاعتذر عن مقابلتهم بداعٍ صحي واستقبلهم بالنيابة عنه كل من بوغوص بك ناظر الخارجية وسامي بك الباشمعاون وابلغاهم خلاصة رسائل العزيز الى رجالات الآستانة وان في ذلك ما يعد قبولاً لقرارات لندن . فتشبث قنصلا انكلترة وروسية بوجوب اعادة الاسطول العثماني وصدور الامر بالجلاء عن بر الشام حالاً . فأجابها سامي بك بان قبول الحكم الوراثي في مصر هو في حد ذاته اذعان لاهم ما جاء في مقررات لندن وان قضية بر الشام اصبحت ثانوية يعود البت فيها الى الباب العالي والدول . فاعتبر القناصل جوابه رفضاً لمقررات لندن وحرروا محضراً بذلك وانسحبوا من مصر تاركين ما تبقى من المفاوضة لقائد القوى البريطانية البحرية الاميرال السر روبرت ستوبفورد[٥٨٦] .

وما ان وصل رفعت بك في التاسع من ايلول الى الآستانة حتى شرع وزراء الترك في درس الموقف على ضوء تقريره وتعليقاته ثم اتصلوا بسفراء الدول الاربع فلمسوا تصلباً شديداً في شخص اللورد بونسونبي سفير بريطانية فاعتبروا جواب العزيز رفضاً لمقررات لندن وحرر الصدر في السادس عشر من الشهر نفسه كتاباً الى العزيز ابان فيه استحالة الخروج عن قرارات لندن وبعد ان ذكر موقف العزيز من المهلتين أعلن له عزله من حكومة مصر ورد له المبلغ المالي (٥٠٠ كيس) الذي كان قد قدمه الى رفعت بك[٥٨٧] . وفي اليوم التالي عُين محمد عزت باشا والياً على مصر . فاجاب العزيز بعد عشرة ايام بكتاب بيّن فيه تعلقه بالدين والدولة واستعداده لرد العدو على اعقابه[٥٨٨] .

وأراد الوزير البريطاني الفيكونت بالمرستون ان يُسرع في تنفيذ قرارات لندن فأرفق نبأ اتخاذ هذه القرارات الذي أرسله الى سفير بريطانية في الآستانة بتعليمات خاصة توجب اثارة بر الشام وارسال المال والسلاح اللازمين لهذه الغاية . وأرسل الى الاميرال السر روبرت

---

(٥٨٥) فاليفسكي الى تيير – ٣ ايلول سنة ١٨٤٠ – مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ٢٠٨–٢٠٩

(٥٨٦) مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ٢١٤–٢١٩

(٥٨٧) المجموعة نفسها ج٣ ص ٢٣٢

(٥٨٨) مجموعة ادوار دريو ايضاً ج٣ ص ٢٨٥–٢٨٦

ستوبفورد ما يوجب قطع المواصلات البحرية بين بر الشام وبين مصر وحماية الثوار الشوام ونقل الجنود العثمانيين وانزالهم في ساحل الشام[٥٨٩] .

تنفيذ المقررات الدولية

الثورة في لبنان كان الاميرال السر روبرت ستوبفورد طوال شهر تموز في بحر ايجه لا يبعد كثيرًا عن جزيرة ميتيلانه ولم يرسل من مراكبه سوى اثنين الى مياه بيروت بامرة الكومودور السر تشارلز نابيير . وعندما تسلم اوامر القيادة في الثالث من آب خشي قوة الاساطيل الثلاثة الفرنساوي والمصري والعثماني وأمر الكومودور بمغادرة بيروت والالتحاق به . فثار ثائر اللورد بونسونبي في الآستانة واحتج على عمل الاميرال فاضطر هذا الى اعادة الكومودور الى بيروت في العاشر من الشهر نفسه وبسفينته . وكانت السفن المصرية قد برحت المياه الشامية قبل وصوله بجهة وجيزة فلم يتسنَّ له التحرش بها او اسرها[٥٩٠] . ولدى وصوله أصدر عن ظهر « القبق الحربي الملوكي الانكليزي » باورفول نداء سياسيًا الى اللبنانيين والسوريين اشار به الى اتفاق الدول في لندن والى فرمان كولخانه الاصلاحي وحضَّ الاهالي على الثورة مؤكدًا ان السفن المصرية لن تقوى بعد ذلك على ازعاجهم[٥٩١] . وكتب الى محمود نامي بك محافظ بيروت يشعره باتفاق الدول على اعادة بر الشام الى السلطان ويطلب اليه ان يضع الجنود العثمانيين الموجودين في بيروت تحت حمايته وان يعيد سلاح اللبنانيين اليهم . وارسل الى المستر نيفن مور قنصل انكلترة في بيروت يعلمه بقرارات لندن ويطلب اليه ان يبلغها الى قناصل الدول والتجار البريطانيين . وخرر في الوقت نفسه الى حسن رافت باشا قائد الجنود العثمانيين في بيروت ينذره بالنار ان هو حاول نقل جنوده الى محل آخر . وخصَّ الشهابي الكبير برسالة يدعوه فيها لطاعة السلطان ويعلمه بما تم في لندن . وكتب ايضاً الى الامير بشير قاسم (الثالث) يحثه على الانحياز الى جانب السلطان ويعده بالامدادات اللازمة[٥٩٢] . ثم اخذ في حجز السفن المصرية الشراعية التي كانت

---

(٥٨٩) مراسلات الاميرالية البريطانية رقم ٥٥٠٣ تاريخ ١٦ و ١٧ و ٢٣ تموز سنة ١٨٤٠ راجع ايضاً انكلترة والقرم للدكتور هارولد تمبرلي ص ١١٨-١١٩

(٥٩٠) سليمان باشا الى حسين باشا - ١٠ آب سنة ١٨٤٠ - المحفوظات ج٤ ص ٤٢٩ [ومحمود نامي بك الى حسين باشا في اليوم التالي ج٤ ص ٤٢٩-٤٣٠

(٥٩١) كتابنا الاصول ج٥ ص ١٥٨-١٥٩

(٥٩٢) كتابه الحرب في سورية ج١ ص ٣٤-٣٨

تنقل المدد وغيره بين مصر والشام وكتب الى سليمان باشا يقترح ايقاف حركتها فاجابه هذا معتذراً انه ليس لديه تعليمات تنبئه بوقوع الحرب بين حكومته وبين الحكومة البريطانية .

وكان اللورد بونسيبي سفير بريطانية في الآستانة قد استبق هذا كله فارسل في اواخر حزيران معتمده الخاص المستر ريتشارد وود الى لبنـــان للاتصال بالثوار واذكاء نارهم فأم بيروت واجتمع بوجوه « عامية الحرج » واشـــار عليهم ان يكتبوا الى الدولة العثمانية والى سفراء الدول ملتمسين انقاذهم من حكم « الدولة المصرية » ففعلوا وسلموه ما كتبوا فارسله الى الآستانة[٥٩٣] . ثم قام على ظهر البازجة ادنبره الى طرابلس ومنها الى بشري حيث اتصل بابي سمرا غانم زعيم الثورة هناك[٥٩٤] . وبعد عودة نابيير الى ميـاه بيروت كتب المستر وود الى الشهابي الكبير يذكره بالحديث الذي دار بينهما عام ١٨٣٦ ويؤكد تفاهم الدول الى ان يقول « ولم يجب تخشوا من وجـه من كون الاربع دول المشار اليهم يتعهدوا بان يعطوا جبل لبنان تلك الشرايع والحرية السالفة مع الانعامات التي كانت تتمتع بها الاهالي تحت احكام السلاطين »[٥٩٥] . فضم الشهابي الكبير رسالة وود الى رسالة نابيير وارسلها الى العزيز قائلاً : بتاريخه–١٦ آب– وردت لرقيق دولتكم تحريرات من طرف الانكليز وهي واصلة طي عرضحال العبودية بتشريفها بالنظر العالي كفاية . واما عبدكم هذا فاني أنا وعبيد اعتابكم اولادي واحفادي مستعدون كل وقت للموت بخدمة دولتكم من دون تردد ولا انتقاض»[٥٩٦] فاضطر وود والحالة هذه ان يعود الى شهابي آخر كان قد اتصل به في زيارته الثانيـة الى لبنان سنة ١٨٣٦ ووعد بتزعم الانقلاب شرط توفر السلاح لديه هو الامير بشير قاسم ملحم شهاب – اتصل وود ببشير الثالث هذا وعرض عليه الحكم فقبل ووعده خيراً[٥٩٧] . وقام يدعو للثورة من جديد بين الوجوه والاعيان ورجال الدين فاستمال شطراً وافراً من الدروز و « سلخ الموارنة عن فرنسة على حد تعبيره»[٥٩٨] .

وقابل العزيز المناشير بمناشير مماثلة فاذاع بان روسية وانكلترة اتفقتا على تجزئة الدولة العثمانية بحيث تصبح الآستانة حصة روسية وبر الشام حصة انكلترة وان رجال الدولة الذين

(٥٩٣) اخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق ص ٥٩٥

(٥٩٤) تقريره الخاص – انكلترة والقرم للدكتور هارولد تمبرلي ص ٤٨٢–٤٨٣

(٥٩٥) الامير بشير الشهابي الى محمد علي باشا : المحفوظات ج٤ ص ٤٣١–٤٣٢

(٥٩٦) المرجع نفسه ص ٤٣١

(٥٩٧) تقرير وود – انكلترة والقرم – ص ٤٨٢

(٥٩٨) تقريره المشار اليه آنفاً ص ٤٨٢

ذهبوا الى اوروبة قبلوا الرشوة وان الواجب يقضي بالدفاع على كل من يمكنه حمل السلاح[٥٩٩] ثم امر بتطبيق قوانين الحجر الصحي بكل شدة لمنع الاجانب من دخول بر الشام نظرًا لنشاطهم العدائي[٦٠٠] وباخراج قنصل انكلترة من بيروت وبتبديل قنصل فرنسة المسيو بورّه لما ابداه من تأييد للثوار وانتقاد لرجال الحكم في بر الشام[٦٠١] . وكتب سليمان باشا الى الشهابي الكبير ان فرنسة ستؤيد العزيز بالقوة اذا قضت الحاجة وان رجال الاسطول البريطاني في بيروت اصبحوا في حيرة من امرهم[٦٠٢] . ورأى العزيز ان تقابل القوة بالقوة فأمر باطلاق النار على السفن اذا حاولت الرسو في بعض المرافئ[٦٠٣] . وهب سليمان باشا بصفته قائد المنطقة الساحلية يحتاط للامر فأصدر في السادس والعشرين من آب تعليمات يومية قضت باعدام كل من يدخل مناشير من شانها ان تثير الشعب في البلاد او من ينقلها او يوزعها او يحتفظ بها اكثر من عشرة ايام بعد صدور هذه التعليمات. وقضت بمثل هذا ايضاً على كل من يدخل السلاح الى البلاد او يتجسس فيها او يوزع المال على الاهالي لحضهم على الثورة[٦٠٤] .وصرّح العزيز في اواخر هذا الشهر نفسه الى مندوب المسيو تيير انه لا يتوقع نزول الرجال الى الساحل الشامي بقصد اجلائه عنه قبل ربيع السنة ١٨٤١ ذلك ان مثل هذا العمل يتطلب ثمانين الفاً على الاقل وان هذا العدد من الرجال لا يتوفر لدى الدول قبل شهرين او ثلاثة اي في اوائل الشتاء. فتضطر الدول عندئذ الى تأجيل عمليات الانزال حتى اوائل الربيع . ثم أضاف انه بامكانه ان يدافع عن ممتلكاته سنتين او ثلاث[٦٠٥] .

ورأت الحكومة الفرنسية ان تصون العزيز من شر فتنة ثانية في لبنان فاستدعت قنصلها من بيروت لعدم تفهمه الموقف كما يجب واحلت محله المسيو ديلواز الذي كان يحقق آنئذٍ في مقتل البادري توما في دمشق[٦٠٦] . وطلبت الى المسيو بودان ان يقوم من دمشق الى لبنان

(٥٩٩) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا – ٢٥ آب سنة ١٨٤٠ – المحفوظات ج٤ ص ٤٣٩

(٦٠٠) بوغوص بك الى كوشله –١٨ آب– مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ١٣٠–١٣١

(٦٠١) سليمان باشا الى محمد علي باشا – ٢٦ آب – المحفوظات ج٤ ص ٤٤٠ و ٤٤٤ راجع ايضاً تيير ومحمد علي لفرانسوا شارل رو ص ١٢٧

(٦٠٢) ١٩ آب – المحفوظات ج٤ ص ٤٤٠–٤٤١

(٦٠٣) يوسف ايلا وكيل قنصل انكلترة في صيدا الى نيفن مور قنصل بيروت : كتابنا الاصول ج٥ ص ١٦٩

(٦٠٤) مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ١٧٣–١٧٥

(٦٠٥) فاليفسكي الى تيير – ٢٤ آب سنة ١٨٤٠ – المجموعة نفسها ج٣ ص ١٥٢–١٥٦

(٦٠٦) المجموعة نفسها ج٣ ص ٨٣

ليؤكد للشهابي الكبير وللبطريرك الماروني وللاباء العازاريين في عينطورة وللشيخ بطرس كرم انها لن تتنازل عن حماية الموارنة والدفاع عن حقوقهم المشروعة ولكنها لا ترضى عن المشاغبة التي يقوم بها البعض ضد حكومة العزيز . واوعزت في الوقت نفسه المسيو بيريتيه ان يقوم الى طرابلس وجبالها للغاية نفسها[٦٠٧] . ثم كتبت الى كوشله في الاسكندرية بوجوب الاتصال بالعزيز ونقل الاثر السيء الذي تركته قساوة عماله في بر الشام في نفوس الاوروبيين ووجوب ردع اولئك عن ارتكاب مثل هذه الاعمال . وينتظر من العزيز ان يمنح اللبنانيين الذين مارسوا الاستقلال عصوراً طويلة درجة من اللين في المعاملة ظفروا بها في عهد الدولة العثمانية[٦٠٨] . وقام بعد كتابة هذا بيوم واحد في الرابع من ايلول سنة ١٨٤٠ الاب اتيان رئيس الرهبنة العازارية الى لبنان عن طريق الاسكندرية ليحمل الى اللبنانيين نصائح الحكومة الفرنسية وتطمينات الحكومة المصريه[٦٠٩] .

وفي الخامس من ايلول موعد انتهاء المهلة الثانية والاخيرة التي اعطيت للعزيز من قبل الدول المتحابة أقلع الاميرال السر روبرت ستوبفورد من مياه الاسكندرية واتجه نحو بيروت فوصلها في الثامن منه[٦١٠] . وفي العاشر وصلت النقالات العثمانية من قبرص الى بيروت فأصبحت القوة التي عقد لواؤها للسر روبرت مؤلفة من اثنتي عشرة سفينة انكليزية وثلاث سفن نمساوية بامرة الاميرال باندييرا وثلاث سفن عثمانية بقيادة القبطان الانكليزي ووكر الذي عرف باسم ياور باشا ومن عشرين نقالة عثمانية . وجاء على ظهر هذه النقالات خمسة الاف مقاتل عثماني بينهم ابن السلحدار سودا وعباس لالا اغا وعلى راسهم محمد عزت باشا ومحمد سليم باشا . وحملت السفن الانكليزية الفاً وخمس مئة مقاتل انكليزي وعلى راسهم الجنرال السر تشارلس سميث كما نقلت المراكب النمساوية مئة مقاتل . وتضمنت الاوامر العليا بان يتسلم القيادة الاولى لجميع هذه القوى الجنرال السر تشارلس سميث ولكنه مرض فحل محله الكومودور البحري السر تشارلس نابيير المشار اليه آنفاً[٦١١] .

---

(٦٠٧) كوشله الى نيبر : المجموعة نفسها ج٣ ص ١٤٦–١٤٩ و ٢٣٩

(٦٠٨) مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ٢٠٧

(٦٠٩) المجموعة نفسها ج٣ ص ٢١٢

(٦١٠) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج٤ ص ٤٤٦

(٦١١) سليمان باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ج٤ ص ٤٥٠ كذلك كوشله الى نيبر : مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ٢٣٣–٢٣٤

نزول جنود الحلفاء

وكتب الاميرال الانكليزي وزميله النمساوي الى سليمان باشا يحتمان عليه تسليم بيروت لان حكومتيهما امرتاهما باحتلالها وانهما يرجوانه الا يضطرهما الى اهراق الدماء. وحددا له وقتاً قصيراً للغاية للاجابة ووعداه بشتى الوعود منها حاكمية بر الشام او قبرص . وفي مساء الحادي عشر من ايلول اطلقا المدافع على بيروت وتظاهروا بانزال العساكر في راس بيروت . وقامت النقالات العثمانية الى جونية فأنزلت عساكرها فيها بحماية البوارج فتصدى لها عساكر السكبان المقيمون في الزوق ولكن دون جدوى[٦١٢] . فقطع عساكر الحلفاء اشجار التوت وهدموا بيوتاً واعدين اصحابها بدفع قيمتها وركبوا المدافع حول المعسكر واخرجوا الاسلحة والعلايف من مراكبهم ووضعوا بارجتين تجاه نهر الكلب لهدم مجاز العساكر المصرية .

وكان السرعسكر المصري ابراهيم باشا قد نثر قواته نثراً فابقى معظمها على الحدود التركية ووزع بعضها في طول بر الشام وعرضها ولم يبق لبيروت وسواحلها سوى ستة الاف مقاتل موزعين بين بيروت والتلال المشرفة عليها وجرد كسروان فوق جونية . واراد السرعسكر بادئ ذي بدء ان يهجم على من نزل في جونية ولكنه عاد فعدل عن ذلك ولعله خشي نار البوارج المحكمة وعدم ملائمة الارض لمثل هذا الهجوم وقلة عدد رجاله وآثر انتظار فصل الشتاء وعدم تمكن البوارج من الاقتراب من الساحل[٦١٣] . وكان السرعسكر فيما يظهر واثقاً كل الثقة من ان اللبنانيين باتوا هادئين بعد فشلهم في حزيران وتموز وان الدروز منهم اصبحوا في عداد الموالين بعد ان رفع عنهم مال الاعانة وما كان يفرضه عليهم الامير الكبير من ضرائب خاصة. ولا عبرة لما جاء في كتاب بول مورييه في تاريخ محمد علي وما نقله عنه الدكتور محمد صبري والجنرال ويغان من انه لم يقع في خلد السرعسكر ان هدف الحلفاء الاول انما كان الاتصال باللبنانيين واثارتهم عليه . فالسرعسكر يشير في رسالة حررها الى سليمان باشا في الثالث والعشرين من ايلول الى ان هدف الحلفاء هو اثارة اللبنانيين ولكنه يوافق رئيس اركانه في ان الافضل هو ان يتابعا اعمال نزع السلاح من اللبنانيين وان يمنعا وصوله اليوم من جديد وان ينتظرا فصل الشتاء قبل البدء بالهجوم[٦١٤] .

(٦١٢) محمود نامي بك الى حسين باشا وسليمان باشا وابراهيم باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات ج٤ ص ٤٥١ و ٤٥٦-٤٥٧

(٦١٣) ابراهيم باشا الى سليمان باشا : مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ راجع ايضاً المحفوظات ج٤ ص ٤٦٤-٤٦٥

(٦١٤) مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ٢٨٣-٢٨٤

ومضى يومان على نزول الحلفاء في جونية ولم يأتِ احـد من اللبنانيين اليهم فآثر الكومودور السر تشارلز نابيير العودة بالعساكر الى قبرص لتمضية فصل الشتاء فيها وتمرينهم على القتال . ولكن المستر ريتشارد وود اصرّ على البقـاء. واشار بوجوب تسهيل وصول اللبنانيين اليهم وقام هو بثلاث مئة جندي من جونية الى غزير معرضاً بنفسه غير مكترث بالجائزة التي وعد بها الشهابي الكبير لكل من يفوز براس وود او باسر السرعسكر بقتله قتلاً . وما ان اتمّ عمله هذا وعاد الى المعسكر في جونية حتى اقـدم الكسروانيون عليه زرافات زرافات وبينهم امير المقاطعة ابن اخي الشهابي الكبير الامير عبدالله حسن الشهابي. فوزع وود الاسلحة وما فتئ حتى فرّق اربعاً وثمانين الف بندقية[٦١٥] . وقام محمد سليم باشا سرعسكر الدولة العليـة يطمئن الكسروانيين ويعلن باسم السلطان اعفاءهم من الضرائب ثلاث سنوات متتالية ويخول سرعسكر النصارى الشيخ فرنسيس الخازن « مضاربة الدوشمان القوم الخاسرين وربهم كافرين وان يغمد سيفه في اعناقهم ويجعلهم غنيمة له ولاعوانه » . وعين لكل نفر من هؤلاء مائدة غرشين في كل يوم ووزع عليهم مائدة شهر مسبقاً وخصص لكل نفر منهم اقـة بقصمات في اليوم . وحضهم ان يكونوا مطيعين « لمتوليهم » الشيخ فرنسيس ثابتين متوشحين بدرع البسالة والشجاعة[٦١٦] . وكتب محمد عزت باشا بمثـل هذا تقريباً الى اللبنانيين في بلاد جبيل والبترون وجبـة بشري والزاوية والكورة مولياً ابا سمرا غانم البكاسيني قيادة الثورة في هـذه المناطق موجباً الطاعة له[٦١٧] . وفي الثامن والعشرين من ايلول جعل محمد عزت باشا نفسه الشيخ صالح الخازن عقيداً على الثوار في بيت شباب وتوابعها موجباً الانقياد له والهجوم على المصريين كالاسد الكواسر[٦١٨] . وكان ريتشارد وود يعالج في الوقت نفسه ولاء الموارنة لفرنسة فرأى بثاقب نظره ان يستغل مناظرة قديمة بين النمسة وبين فرنسة حول حماية المؤمنين خارج اوروبة وان يستغلها لصالح بلاده فدفع بوكلاء النمسة وممثليها الى الميدان واعاد للذاكرة كفر رجال الثورة الفرنسية وخروج مبادئها عن اسس الدين الحنيف . وعاد الاب اتيان رئيس الرهبنة العازارية من حيث اتى معترفاً بفشله[٦١٩] . وفي اول تشرين الاول كتب الامير بشير قاسم الشهابي (الامير بشير الثالث) الى المستر

---

(٦١٥) نفريره – انكلترة والقرم للدكتور هارولد تمبرلي ص ٤٨٣

(٦١٦) كتابنا الاصول ج٥ ص ١٨٤–١٨٥

(٦١٧) المرجع نفسه ج٥ ص ١٨٣–١٨٤

(٦١٨) الاصول كذلك ج٥ ص ١٨٥–١٨٦

(٦١٩) كوشله الى نيير : مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ٢٩٠–٢٩١

نيفن مور قنصل انكلترة في بيروت يقول نظرًا للروابط القديمة الجارية بيننا وامتثالًا للامر الشريف الصادر لنا عن محمد سليم باشا وللتحرير الذي وجهه الينا جناب الكومودور المحتشم فاننا قد حضرنا مقدمين ذاتنا ذبيحة في خدمة الدول السيدة. وغادر معسكر المصريين بالقرب من بيروت خلسة وانضم الى معسكر الحلفاء في جونية[٦٢٠].

وكتب الاميرال القائد العام منذ بدء الاعمال فيما يظهر الى الامير بشير الثاني بالتسليم قائلًا انه ان سلم للدولة قبل ثمانية ايام يبقَ واليًا كما كان بل تكون الولاية له ولذريته من بعده. فاجاب الشهابي الكبير معتذرًا بوجود اولاده وحفدته بين عساكر ابراهيم باشا ومفترًا باخبار الفرنسيس بان مراكبهم قادمة لاسعاف العزيز[٦٢١]. ثم عاد فابلغ الاميرال سرًا انه مستعد للانضمام طالبًا ابقاءه حاكمًا بضمانة الدول الاربع واعطاءه مهلة لاستدعاء اولاده وحفدته من المعسكرات المصرية. فلم يوافقه الاميرال على الضمانة ولكنه رضي باعطاء المهلة مشترطًا التعجيل في اثبات حسن النية ضاربًا الثامن من تشرين الاول موعدًا نهائيًا للانضمام[٦٢٢].

وكتب ريتشارد وود في هذه الفترة نفسها الى انطون الحداد في دير القمر يعرض سلاحًا على اهل الدير عن طريق الجية. وفي السادس والعشرين من ايلول قدمت المراكب الى الجية بالسلاح فيما يظهر وانتظرت اهل الدير ساعتين فلم يلبوا الطلب وعندئذ اقلعت هذه المراكب الى صيدا وانضمت الى اخواتها هناك وكتب قادتها الى المتسلم بالتسليم فرفض فقصفت المدافع البلدة ولاسيما القلعة وبيت سليمان باشا الفرنساوي. ونزلت العساكر الى البر واقتتلوا مع المصريين وما فتئوا حتى اجلوهم عن البلدة وعينوا متسلمًا عليها السيد شاكر الاسير[٦٢٣]. وبعد هذا بثلاثة ايام انزلت قيادة الحلفاء الفين من الجنود وخمسة الاف بندقية الى ساحل الدامور واعلمت الاهالي بذلك فنزل اهالي الشحار الى الدامور وتسلحوا وتبعهم اهالي عبيه وامراؤها الشهابيون وبين هؤلاء الامير اسعد قعدان واخوه الامير يوسف وابنه الامير ملحم. فهرول السرعسكر المصري الى بتدين يجمع السلاح الجديد ويقطع العهود

(٦٢٠) كتابنا الاصول ج٥ ص ١٨٧–١٨٨ وكتاب الحرب في سورية لنابيير ج١ ص ٩٥–٩٦

(٦٢١) اخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق ص ٦٠٦

(٦٢٢) نابيير الحرب في سورية ج١ ص ٩٥–٩٦ و ١٢٥ ومخطوطات المتحف اللبناني – رسالة مغفلة معاصرة مفصلة بين اوراق السياسة الخارجية. وبنوع خاص تقرير الاميرال ستوبفورد الى مقر الاميرالية العام: اوراق الاميرالية البريطانية رقم ؟

(٦٢٣) حروب ابراهيم باشا للقس انطون الحلبي ج٢ ص ٥٤ و ٥٥

على نفسه بان كسروان تكون ملكاً للدروز الى الابد بكامل ارزاقها وعمارها وانه يرجع من جند من الشباب ولا يجي بعد ذلك لا فردة ولا « ميري »(٦٢٤).

وكان محمد عزت باشا كما اشرنا قد كتب الى ابي سمرا غانم البكاسيني يدعوه اليه فلبى ابو سمرا الدعوة ونهض الى البترون بخمسة انفار فاجتمع اليه فيها نحو خمس مئة نفر وقام بهم الى جبيل فالتقاه متسلمها بخمس مئة اخرى وسار معه الى جونية . فاكرمه محمد عزت باشا وسلمه اربعة الاف بندقية وارسله الى بلاد جبيل البترون وجبة بشرى . فجمع ابو سمرا اربعة الاف رجل من هذه المقاطعات وسار بهم الى اليمونة لمحاربة الامير مجيد حفيد الشهابي الكبير . فلما بلغ الامير مجيداً قدومه فرَّ بمن معه الى عيناتا حيث العسكر المصري . فتبعه ابو سمرا وقاتل المصريين وارهقهم(٦٢٥).

وقام الكسروانيون بعد ان تسلموا السلاح في جونية الى الجرد ليناوشوا عثمان باشا الذي كان قد احتل ميروبا وجوارها مهدداً جونية ومن فيها . وتوجهوا وكانوا الف رجل واقاموا بين الصخور الى غربي العسكر المصري واطلقوا عليه الرصاص خمسة عشر يوماً . وكان العسكر المصري يهجم عليهم غير ملح فقتل منه جماعة ومن الكسروانيين ثلاثة . ولما بلغ ابراهيم باشا تصلب الكسروانيين انطلق اليهم واضرم نار الوغى عليهم فانهزموا وجدّت عساكره في اثرهم ففرت سكان قرى الجرد الى الساحل وتهيأت العساكر العثمانية الى الهرب بحراً . ولكن ابراهيم باشا قتل وحرق ثم عاد الى وطا الجوز في الجرد(٦٢٦). وبلغ الكومودور نابيير ان عثمان باشا قائد القوات المصرية عازم على الرحيل بعسكره الى البقاع في فجر الرابع من تشرين الاول فجهز الامير بشيراً القاسم (الثالث) بالرجال والعتاد وأمره بارهاق المصريين في اثناء تراجعهم ففعل الامير وتأثر الباشا المصري حتى نبع صنين وأسر من رجاله ثلاث مئة طوعاً وجبراً . فارتفعت اسهم الامير في عيون الحلفاء(٦٢٧).

الامير بشير الثالث حاكم لبنان

وتأخر الشهابي الكبير بشير الثاني عن الموعد الذي ضرب له للانضمام الى الحلفاء . فأوعز الانكليز بعزله وبتوجيه حاكمية لبنان الى عهدة صديقهم بشير القاسم (الثالث). وكان ريتشارد وود قد توقع مثل هذا التردد من قبل الشهابي الكبير واستصدر فرماناً سلطانياً في الثالث من ايلول بعزل بشير الثاني وبتعيين

(٦٢٤) المرجع نفسه ج٢ ص ٥٦ و ٥٧ واخبار الاعيان ص ٦٠٧–٦٠٨

(٦٢٥) اخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق ص ٦٠٤–٦٠٥

(٦٢٦) المرجع نفسه ص ٦٠٦–٦٠٧

(٦٢٧) الحرب في سورية لنابيير ج١ ص ١١٦–١١٨ واخبار الاعيان ص ٦٠٨

بشير الثالث حاكماً محله . ونادى محمد عزت باشا ببشير الثالث حاكماً في التاسع من تشرين الاول وقام المستر ريتشارد وود والسر بولدوين ووكر يحملان فرمان الولاية واتصلا به في صفوف القتال معرضين نفسيهما للخطر اذ اضطرا ان يقطعا خطوط المصريين ذهاباً واياباً(٦٢٨) .

وقام هو يعلن تعيينه حسب العادة فحرر بذلك الى الوجوه والاعيان. ومما قاله الى البطريرك الماروني انه « تشرف بورود فرمان جليل الشان من طرف حضرة مولاه السلطان نصره العزيز الرحمن بتعيينه والياً وانه مرسل نسخة طبق الاصل ليشهرها البطريرك ويعممها على المطارنة ليكونوا بذلك مسرورين ولينبهوا على كافة رعاياهم لينالوا الراحة المديدة حيث قد اتضح لدى الجميع رفع المظالم عن الرعايا وحصل العمل بذلك في المحلات التي ولاتها بقيد الاطاعة »(٦٢٩) .

ومما يلفت النظر في هذا الفرمان السلطاني ان امارة لبنان هي « امارة جبل الدروز » وان الفرمان موجه الى بشير القاسم والى « مفاخر الاماجد والاعيان مشايخ قبائل الدروز » فقط ولا ذكر لغيرهم وان الامير نُصب « اميرًا على قبائل الدروز »(٦٣٠)

واراد رجال الدين من الموارنة ان يستغلوا الموقف فتقدموا من السلطات العثمانية مطالبين بالامتيازات نفسها التي تتمتع بها رجال الدين من الروم الارثوذكس منذ فتح القسطنطينية فقالوا بوجوب الاعتراف بسلطة البطريرك الماروني وبعدم سماع الدعاوى عليه خارج ديوان شيخ الاسلام وبوجوب اعفائه « من الانتقال والحوادث الاميرية والرسوم الجمركية والسخرة والخراج » والسماح له وللمطارنة بركوب الخيول المسروجة وارتداء الملابس الثمينة لكل منهم وحمل العكاز وسائر شارات السلطة الروحية وبالاقامة في المدن والجزر كل في مقر ابرشيته . وقالوا ايضاً بحق البطريرك في تنصيب القضاة من طائفته لفصل دعاوى الشعب والاكليروس بموجب « الشريعة السلطانية » في الاشياء التي لا تخالف « رسوم دياناتهم » وان تقوم وصية رجال الدين دون تدخل الحكام او بيت المال . ومما جاء في هذه الوثيقة الثمينة الا يكون الحاكم على لبنان و « انطيلبنان » اي لبنان الشرقي الا مارونياً شهابياً وان يكون تنصيبه من قبل الباب الهمايوني العالي « بدون توسط » وان يكون لديه ديوان شورى لادارة احوال الجبل وان تبقى الاموال الاميرية والخراجية وجزية الراس مالاً واحدًا وجزية واحدة(٦٣١) .

---

(٦٢٨) تقرير وود الى الخارجية البريطانية — انكلترة والقرم للدكتور هارولد تمبرلي ص ٤٨٣

(٦٢٩) كتابنا الاصول ج٥ ص ١٨٨-١٨٩

(٦٣٠) المرجع نفسه ج٥ ص ١٧٢-١٧٤

(٦٣١) كتابنا الاصول ج٥ ص ٢٠٨-٢١١

وبعد ان احتل الحلفاء صيدا كما تقدم ذكره وفعل اللبنانيون ما فعلوا بمؤخرة جيش عثمان باشا بين ميروبا وبين صنين رأت قيادة الحلفاء ان يصار الى احتلال بيروت من البر والبحر . فقام جنود الحلفاء وانصارهم اللبنانيون من جونية وكسروان الى مقاطعة القاطع وقصف الاسطول البريطاني في الوقت نفسه التاسع من تشرين الاول مدينة بيروت. فرأى سليمان باشا الفرنساوي في تقدم الحلفاء الى القاطع حركة التفاف خطرة فنهض من الحازمية بجوار بيروت ليلاً وترك خياماً ومؤونة وعلايف وامتعة كثيرة ومهمات عسكرية ومرضى وسرى بمن معه متجهاً نحو البقاع . فنهب اهل الساحل معسكر الحازمية ولحق مجاورو طريق الشام اواخر عسكره فنهبوا ما وصلت اليه يدهم . وفي اليوم التالي اي في العاشر من تشرين الاول وبعد شهر من الحصار البحري والقصف المتقطع استسلمت حامية بيروت على يد الاميرالاي عمر بك فدخلها الاميرال منتصراً اسراً رجال حاميتها كاسباً علماً مصريا فاخر به فيما بعد مفاخرة شديدة . وأصبح لدى الحلفاء مرفأ بحري هام يلجأون اليه عند الحاجة وينزلون به شتى العتاد[٦٣٢] .

موقعة بحرصاف وتولى الكومودور قيادة القوى الزاحفة من مقاطعة كسروان الى مقاطعة القاطع ونزل بها الى قعر وادي نهر الكلب ثم صعد الى قرية عين عار فقرنة شهوان . وما ان استقر به المقام في الثامن من تشرين الاول حتى ادرك ان قوى العدو قريبة جداً وان السر عسكر المصري نفسه يقودها متخذاً من درجة بحرصاف بصخورها ووعورتها وارتفاعها الفجائي نقطة دفاع في وجه الحلفاء . فأبقى الكومودور اربعة افواج من جنود الاتراك وما يقارب من الفوج عدداً من بحارته وبعض اللبنانيين وعدداً من الاسرى المصريين في قرنة شهوان بامرته وتحت تصرفه . ثم ارسل الامير بشير قاسم (الثالث) برجاله الى برمانا فبعبدات ليقوموا بحركة التفاف اخرى حول ميسرة السرعسكر المصري . وأمر عمر بك النمساوي ان ينزل من عجلتون بفوجيه الى اسفل وادي نهر الكلب ويصعد منها الى بيت شباب فبكفيا في حركة التفاف اخرى حول ميمنة السرعسكر نفسه. فقام النمساوي بمهمته خير قيام وساعده الحظ في ان احداً من المصريين لم يتصدَ له وهو في اسفل الوادي ووصل الى مؤخرة ابراهيم باشا في الوقت المحدد له . ولكن بشيراً الثالث كان عليه ان يقطع مسافة اطول وأصيب بالحمى في اثناء الطريق فتاخر عن الوصول في الوقت الملائم

(٦٣٢) انكلترة والقرم للدكتور هارولد غمبرلي ص ١٢٤ واخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق ص ٦١٠-٦١١

وبدأت المعركة قبل وصوله الى ضهور الشوير، وما ان سمع الكومودور صوت الطلقات النارية في مؤخرة ابراهيم باشا — نار عمر بك النمساوي — في الساعة الثانية من بعد ظهر العاشر من تشرين الاول حتى بدأ بالهجوم الوجهي. فناوشت كتيبة من كتائب الكومودور ميسرة المصريين ثم تقدم الاتراك للهجوم بقيادة محمد سليم باشا والجنرال يوقوس الالماني وتسلقوا الاكمة التي كان يحتلها المصريون. ولما بلغوا قمتها وواجهوا جنود ابراهيم انقطع هؤلاء عن اطلاق الرصاص والقوا سلاحهم مستسلمين. ثم تقدم الاتراك واعوانهم نحو الصف الثاني فاستقبلوا بادئ ذي بدء استقبالاً حامياً ولكن بعد نصف ساعة أدبر المصريون تاركين عتاداً كثيراً وست مئة اسير. وفصل الظلام بين المتحاربين فانهزم ابراهيم باشا بمن بقي من رجاله الى قرنايل فالبقاع. وكان ابراهيم فيما يظهر يتوقع هجوماً من قبل الحلفاء. فانتقى ميدان القتال بنفسه وطلب معونة من بيروت ومن زحلة ولكن حركة بشير الثالث الالتفافية حالت دون وصول اية معونة من زحلة واحتلال برمانا وتلالها قضى على اية امكانية من ناحية بيروت[٦٢٣].

ورجحت كفة الحلفاء. وانتهت المهلة المعطاة للشهابي الكبير ونودي بنسيبه بشير الثالث حاكماً على لبنان فرأى ان يستفيد مما عرضه الحلفاء عليه ومضى في رأيه فاستدعى اولاده واحفاده وجمع اوراقه وامواله وعقد ضميره على النزول الى صيدا للاستسلام. ووافق هذا كلّه وجود حنا بحري بك الى جانبه ففاتحه هذا كلاماً في هذا الموضوع مخافتاً فأجابه الشهابي الكبير «قل لباشتك البلاد اصبحت كلها صوتاً واحداً فلا فائدة من المقاومة». فقام بحري بك من بتدين الى عين زحلتا والتقى فيها بالسرعسكر المصري فأخبره بما جرى وعادا معاً الى البقاع[٦٢٤]. ونهض الامير الكبير بمن معه من بتدين الى صيدا في الحادي عشر من تشرين الاول ولدى وصوله الى جسر الاولي في خارجها أعلم المتسلم خالد باشا بحضوره فهبّ لاستقباله عند الجسر. وفي اليوم التالي دخل الامير الى صيدا بموكب حكومي شعبي عظيم. ثم قام من صيدا الى بيروت على ظهر مركب بحاري انكليزي لمواجهة الاميرال فاستقبله هذا بما لاق من الاكرام والاحترام ولكنه اعلمه ان لا مفر من التنازل عن

(٦٢٣) الحرب في سورية لنابيير نفسه ج ١ ص ١٤٧ — ١٤٩ وانكلترة والقرم للدكتور غبرلي ص ١٢٤-١٢٦

(٦٢٤) حروب ابراهيم باشا المصري للقس انطون الحلبي ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ والجواب على اقتراح الاحباب لمخائيل مشاقه — نسخة جامعة بيروت الاميركية ص ٢٩٨ والمذكرات التاريخية للخوري قسطنطين الباشا ص ٢١٤

الحكم ومغادرة البلاد وطلب أن يختار محلًا لاقامته خارج برّ الشام ومصر وفرنسة فانتقى جزيرة مالطة ولذا لُقِّب بالمالطي . ثم أرسل حفيده محمودًا يسأل الوزير امرًا يمنع التعدي على أرزاقه وذويه فأُعطي له وأرجع بولده وحفيده الى صيدا. ولما بلغها استدعى اليه ولده خليلًا وحفيده داود وابقاهما في المركب وخرج هو الى المدينة يتأهب للسفر . وبعد خمسة ايام عاد الى المركب مصحباً معه زوجته واولاده وزوجة ولده الامير قاسم وحفدته الخمسة اولاد الامير خليل وحفيده الامير رشيد قاسم (وكان امين ومحمود لا يزالان في المركب) ومدبر اموره بطرس كرامه وحوالي سبعين رجلًا من خدامه بينهم مؤرخه فيما بعد رستم باز[٦٣٥]

وكان بشير الثالث قد اتخذ من الشوير قاعدة لاعماله الحربية في المتن بعد القاطع فاحتفل فيها بانتصاره على ابراهيم باشا وقام الشويريون بقسط وافر من اعمال الفرح فقرعوا اجراس الكنائس والاديار وحرقوا البارود وتباروا بالسيف والترس واشتركت الشويريات في ذلك كله وانشدن :

يا مير بشير وفرّع الشقطيّه واضرب بسيفك ولا تقول خطيّه
باعت السلطان يقول يا قوي القلب اضرب واقتل وعلّي المشنقة عالدرب

ثم قام الامير من الشوير الى حمانا وجمع المناصب اليه وطلب اليهم أن يكتبوا صك اتفاق فيما بينهم وكانوا بمن معهم الفاً وخمس مئة رجل فنفروا منه لانه لم يبلّغ أحدًا منهم مأثوره ولانه جعل اخصّاءه من اقاربه واتخذ من الخواجه فرنسيس مسك البيروتي مدبرًا له . فشق ذلك عليهم ولا سيما اولئك الذين جرت العادة أن يكون المدبر منهم منذ فخر الدين حتى بشير . وطلب الامير الجديد الى الوزير العثماني ان يرسل عسكرًا الى حمانا للمحافظة من ابراهيم باشا فأبى . وفرَّ في هذه الآونة مجيد حفيد الشهابي الكبير من المعسكر المصري في بعلبك وقصد صيدا فوقع في يد بشير الثالث في حمانا فسيّره هذا الى بيروت فطيب محمد عزت باشا قلبه وبعث به الى مالطة[٦٣٦] .

---

(٦٣٥) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٦١٠ - ٦١١ راجع ايضاً حروب ابراهيم باشا المصري للقس انطون الحلبي ج ٢ ص ٦٣-٦٤ تجد اسماء عدد كبير من افراد الحاشية الذين رافقوه الى منفاه وليس في المراجع الفرنجية المنشورة ما يزيدك تفصيلًا او يخالف ما ورد اعلاه مخالفة ذات شأن .

(٦٣٦) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٦١١-٦١٢

عكة وبعد جلاء المصريين عن بيروت وساحلها والتلال المشرفة عليها جلوا عن طرابلس واللاذقية وادنة دون قتال وبقوا في ساحل فلسطين فاتجهت انظار الحلفاء الى عكة وكتب الوزير البريطاني الفيكونت بالمرستون في الخامس من تشرين الاول بوجوب احتلالها ولكنه اشترط ضمان النجاح. وتلقى الاميرال السر روبرت اوامر حكومته هذه في اواخر الشهر نفسه فأصدر أمره في التاسع والعشرين الى عمر بك النمساوي بالتقدم براً من صيدا الى عكة بألفي مقاتل واقلع هو من بيروت بعد ذلك بيومين بسفنه وبثلاثة الاف مقاتل عثماني بقيادة محمد سليم باشا. ووصل عمر بك النمساوي الى الناقورة في الوقت المحدد له اي في الثاني من تشرين الثاني الوقت نفسه الذي أطلت فيه السفن على عكة. ولكن الرياح جرت في ذلك اليوم بما لم تشتهِ سفن الحلفاء. فأرجئت الاعمال الحربية الى اليوم التالي[٦٣٧].

وكان العزيز قد أَمر بترميم عكة بعد ان استولى عليها في ربيع السنة ١٨٣٢ وألح بوجوب الاسراع في ذلك فباشر المهندس الايطالي رومانيوس اعمال الترميم في اواخر تموز من السنة نفسها[٦٣٨] وفي السنه ١٨٣٦ وضع الكولونيل شولتز البولوني تصميماً لتحسين الحصون والاسوار من جهتي البر والبحر ورفعه الى السرعسكر المصري ولكن هذا اجل النظر فيه لانه لم يكن يتوقع هجوماً منظماً من البحر. وفي آذار من السنة ١٨٤٠ أُرسل شولتز نفسه الى عكة للاهتمام باسوارها البحرية فوجدها كما عهدها حوائط عادية. ولما كان لا يمكنه ان يحولها الى أسوار منيعة نظرًا لضيق الوقت عمد الى تدعيمها بالتراب حتى أعلاها في نقاط متعددة وركّب مدافعها بما اوتي من فن وحكمة ولكن هذه كانت قليلة العدد لم تتجاوز بمجموعها الاثنين والسبعين بعضها من عيار ١٢ والبعض الآخر من عيار ١٦ و٢٤[٦٣٩]. وكانت سفن الحلفاء تحمل اربع مئة وسبعين مدفعاً من عيار ٣٢ و٦٨ و٨٠

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر الثالث من تشرين الثاني صب الحلفاء نيران مدافعهم على المدينة وأسوارها فاسكتوا بعض مدافع الاسوار البحرية وأحدثوا بعض الثغرات في هذه الاسوار. ولكنهم حوالي الساعة الرابعة وفقوا الى اصابة مستودع الذخائر الكبير بين السورين البريين وراء خان الحمير فتفجرت محتوياته وتهدم ثلث البلدة كما انفتحت فجوتان كبيرتان في السورين وذهب ضحية هذا الانفجار عدد كبير من الجنود المصريين قُدر بثلاثة

---

(٦٣٧) الحرب في سورية لنابيير ج ١ ص ١٩٧-٢١١

(٦٣٨) المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٢٠ و ٢٢ و ٥١ و ٥٦

(٦٣٩) تاريخ محمد علي لبول موربيه ج ٤ ص ٣٣٨-٣٤١

الاف. وعند المساء سكت الانكليز وباتوا ينتظرون الضحى لمتابعة القتال . وحاول الاميرال العثماني السر بولدوين ووكر انزال بعض الجواسيس في الساعات الاولى من الليل مرتين ولكنه لم يفلح .

واجتمع المسؤولون عن عكة في تلك العشية لتقرير المصير . وكان قد بدأ اليأس ينخر في قلب احدهم الشيخ سليمان عبد الهادي مدير ايالة صيدا وحليف العزيز وابنه ابراهيم. فأشار في هذه الجلسة التاريخية الى انهيار معنويات الجند من جراء تهديم الاسوار والى تزايد عدد المرضى والجرحى وصعوبة تامين المواد الغذائية فاستحسن رأيه كل من محمود نامي بك محافظ بيروت قبل سقوطها واسماعيل عاصم بك حكمدار حلب الذي كان قد تسلم قيادة الحامية بنفسه . اما الكولونل شولتز فانه أشار بالصمود في وجه الانكليز على الرغم مما جرى ورأى ان تستبدل المدافع المعطلة وان يصار الى حماية الفجوتين البريتين بالطرق الحربية العادية وأضاف قائلًا ليس أهون علينا من متابعة القتال ثلاثة ايام اخرى يعود الانكليز بعدها من حيث اتوا فلا يرجعون الينا الا بعد انتهاء فصل الشتاء . فعمل المجلس برأي سليمان عبد الهادي وقرروا الجلاء بسرعة تحت جناح الظلام ففروا جماعات جماعات فتخطفهم القرويون وأعادوا نصفهم تقريباً الى الانكليز في اليوم التالي . وبين هؤلاء الاسرى محمود نامي بك نفسه . ولم يبقَ في عكة من الرجال المحاربين سوى قسم من المدفعيين الذين قاموا بواجبهم حق قيام وما فتئوا حتى وصل الانكليز اليهم في اليوم التالي(٦٤٠) .

وبعد ان حاول الاميرال العثماني انزال جواسيسه الى عكة في مساء الثالث ومني بالفشل مرتين جاءه عند منتصف الليل نفسه من نقل خبر الجلاء السريع ورحب بالعثمانيين والانكليز والنمساويين . وفي صباح الرابع نزل الارشدوق فردريك النمساوي على راس قوة نمساوية مؤلفة من ثمانين مقاتلًا وأسرع نحو برج الخزنة فاحتله ورفع العلم النمساوي فوقه وتبعه الاميرال العثماني السر بولدوين ووكر بثلاث مئة عثماني فغيره وغيرهم . والقي القبض على الكولونيل شولتز جريحاً فنقل الى احدى السفن البريطانية . واستولى الحلفاء على خمس مئة وخمسين مدفعاً ومليونين ونصف المليون من الغروش كما القوا القبض على ثلاثة الاف اسير(٦٤١) وخسروا ضابطاً وسبعة عشر نفراً وتعطلت ثلاثة من مراكبهم .

---

(٦٤٠) تاريخ محمد علي لبول موربيه ج ٤ ص ٣٣٨-٣٤١

(٦٤١) انكلترة والقرم للدكتور هارولد تمبرلي ص ١٢٩ وتاريخ محمد علي لبول موربيه ج ٤ ص ٣٣٧ اطلب ايضاً تاريخ الاسطول المصري للاميرال ديرانفيل ج ٢ ص ٢٣٤-٢٣٦ وكتابنا الاصول ج ٥ ص ٢٢٠

وأسرع قائد القوات العثمانية محمد سليم باشا الى استغلال الموقف فحرر الى وجوه فلسطين وأعيانها بما تم له في عكة وقال في مرسوم له وجهه الى الشيخ احمد عبد الرحمن ابي عوش في قرية العنب — طريق يافة القدس — « نهار امس تاريخه قد نشرت أعلام الدولة العلية على أسوار مدينة عكة اذ قد حضرنا اليها بحرًا بالعساكر الظافرة واستولينا عليها في ظرف ساعتين ونصف واعلنا الامان فيها الى الجميع وكشف الله عن ابصار الفين وطلب الامان ثلاثة الاف » . وعين محمد عزت باشا والي صيدا الجديد محمد افندي حمدي قاضي القدس قائمقاماً من قبله لادارة شؤون فلسطين موقتاً ولارهاق العساكر المصرية واتقاء القبض على اسماعيل بك . فاتخذ القاضي القائمقام اجراءات عدة منها تثبيت اعضاء مجلس شورى القدس وتعيين حسن اغا المجرى تفكجي باشي واحمد اغا مراد طوبجي باشي والشيخ صبيح سوكه سيخاً شيخاً على بيت لحم والشيخ عطا الله محمود عريقات ناظرين على ناحية الوادي وعرب التعامرة والشيخ اسماعيل السمحان ناظرًا على ربع جبل القدس . وفعل ما يماثل هذا في مقاطعات غزة ويافه والخليل ونابلس وجنين وشفا عمر وغيرها[٦٤٣] . وتحفظ سجلات المحكمة الشرعية في القدس التفاتاً خاصاً نحو الشيخ عبد الرحمن العمر احد أعيان الخليل فتشير اليه بالتعبير «محسوب الدولة »[٦٤٢] .

ورأى قائد القوات البرية الجنرال السر تشارلس سميث ان طول الشاطئ الذي احتله وقلة الجنود لديه وضآلة تدريبهم رأى أن هذه الامور جميعها تجعل التوغل في داخل البلاد الشامية ضرباً من الجنون لا تجيزه القواعد العسكرية . أما الكومودور السر تشارلس نابير فانه ارتأى أن تتقدم جنود الحلفاء عبر السلسلة الغربية الى زحلة فصادف رأيه هذا معارضة شديدة من رئيسه الاميرال السر روبرت ستوبفورد ومن القائد البري الاعلى السر تشارلس سميث[٦٤٤] .

موقف العزيز

وكان العزيز لا يزال يعول على الامتناع بعكة بدليل ما اتخذه من اجراءات قبيل سقوطها . فانه كتب الى ابنه ابراهيم في الرابع والعشرين من تشرين الاول يقول ان كاتباً درزياً في الاسكندرية تبدو عليه علائم « الذكاء والشيطنة» ارتأى ارجاع المنفيين من زعماء الدروز الى لبنان ليعاونوا السرعسكر في سياسته الداخلية .

---

(٦٤٢) كتابنا الاصول ج ٥ ص ٢١٩ - ٢٣١

(٦٤٣) المرجع نفسه ج ٥ ص ٢٣٢

(٦٤٤) انكلتره والقرم للدكتور هارولد تمبرلي ص ١٢٩ — ١٣٠

ثم عاد فكتب انه منح رتبة الميرالية الى كل من نعمان جنبلاط ونصيف أبي نكد وخطار العماد وعبد السلام العماد وانه عينهم في مناصب في لبنان وسلمهم نياشينهم وارسلهم الى صوب السرعسكر[٦٤٥] . ولكنه عندما علم بفاجعة عكة حوالي التاسع من تشرين الثاني كتب الى ابراهيم يفيد ان البقاء في بر الشام سيتعذر عليه بعد سقوط عكة ولذا فانه يأمره بجمع العساكر وبالعودة بهم الى مصر[٦٤٦] .

وأبدى العزيز لمناسبة سقوط عكة وارتداد الشهابي الكبير قبل ذلك رباطة جأش ورجاحة عقل لا نجدهما الا في صدور أفذاذ الرجال . فقد قال رحمه الله في اواخر تشرين الاول الى قنصل فرنسة العام المسيو كوشله مشيرًا الى تخلي الشهابي الكبير كلاماً اثار اعجاب القنصل . فهذا يقول في تقرير له ان العزيز ذكر بشيرًا دون ألم او قدح وحاول ان يرفع عنه اللوم فيما صنع رافضاً ان ينسب اليه أية خيانة مرجعاً ارتداده الى الظروف القاهرة . وقال الى كوشله نفسه في التاسع من تشرين الثاني ولمناسبة سقوط عكة : لقد ارتكبنا الغلط في بر الشام ولكننا رفعنا المظالم ولا يوجد اليوم اية سلطة قادرة على ضبط الاحكام في هذا القطر . وقد يعود الشوام الي اذا سمح الظرف بذلك . لقد أحييت الزراعة والتجارة في بر الشام واحترمت جميع الملل والاديان ورفعت العوائد عن كاهل النصارى . وقد لا يمضي وقت قصير حتى يضيع كل هذا[٦٤٧] .

فرنسة والدول

وقامت فرنسة وقعدت حكومةً وشعباً عندما علمت بعزل العزيز من منصبه وبضرب بيروت وتهديها فتدنت أسعار البورصة وتغنى الفرنساويون بالمارسياز في الاندية والباحات ونادى الرعاع بالحرب قائلين لقد أخذ الانكليز بيروتنا ![٦٤٨] وحَرِب تيير واشتد غضبه فسطَّر في الثامن من تشرين الاول مذكرته الشهيرة الى زميله الفيكونت بالمرستون مؤكدًا فيها ضرورة بقاء العزيز في منصبه للمحافظة على التوازن الدولي تاركاً تعيين الحد الفاصل بين ممتلكاته وبين ممتلكات سيده وسلطانه في بر الشام الى الحرب القائمة فيها[٦٤٩] . وعرض الوزير البريطاني محتويات هذه المذكرة على زملائه الوزراء في جلسة

---

(٦٤٥) المحفوظات الملكية المصرية ج٤ ص ٤٧٠ و ٤٧٢-٤٧٣

(٦٤٦) المرجع نفسه ج٤ ص ٤٧٣

(٦٤٧) كوشله الى تيير : مجموعة ادوار دريو مصر واوروبة ج٣ ص ٤٠٦ - ٤٠٧ و ج٤ ص ٤٢ و ٤٤

(٦٤٨) المسالة الشرقية للفيكونت ده غويشن ص ٢٨٢-٢٨٣ و ٢٩٥-٢٩٦

(٦٤٩) تيير الى غيزو - الكتاب الازرق البريطاني ج ٢ ص ٢٧٠-٢٧٢

رسمية واقترح ابقاء العزيز في منصبه في مصر مدى حياته فقط فأسقط زملاؤه هذا الاقتراح حالاً وقامت التيمس تلح بوجوب قبول الاقتراح الفرنسي مؤكدة ان اقتراح بالمرستون الاخير لا يقول بـه الا من كان بسخف اللورد بونسونبي السفير البريطاني في الآستانه[٦٥٠] ولو وقف تيير عند هذا الحد ولم يهدد سفير بريطانية في باريز بالحرب اذا فشلت مفاوضاته هذه الاخيرة لكان ذلك أنفع وأنجع فانـه استفز زميله البريطاني واضطره ان يذكره بماضي فرنسة القريب وبمطامعها العسكرية واستعداد من تحالف ضدها في عهد بونابرت ان يعود الى تحالفه[٦٥١] . فاضطرب الملك لهذا كله وخشي سوءَ العاقبة ولاسيما وأن أحد الثوريين كان قد حاول اغتياله وان بعض الجرائد كانت قد ألحت الى وجوب تنازله فرفض أن يتبنى لهجة تيير العسكرية وأدى رفضه هذا الى استقالة وزارة ذاك فشكل الوزارة الجديدة المارشال ڤيكتور سولت وتولى وزارة الخارجية فرانسوا غيزو سفير فرنسة في لندن وذلك في التاسع والعشرين من تشرين الاول سنة ١٨٤٠ .

وحاول غيزو أن يستغل ظرف استقالة الوزارة السابقة لصالح فرنسة فقـال لبالمرستون مودعاً انه لا بد من استجابة بعض مطالب فرنسة للمحافظة على كرامتها ولتسهيـل مهمة الوزارة الجديدة السلمية . ثم عاد فاتصل بسفير بريطانيـة في باريز مقترحاً ايقاف الاعمال الحربية في بر الشام واعتبار الوضع الراهن فيها أساساً لحل المشكلة أو التعويض عما يفقـده العزيز من بر الشام بسلطة له في مكان آخر كجزيرة كريت مثلاً[٦٥٢] . ولكن شيئاً من هذا لم يؤثر في قلب بالمرستون الذي خشي أن يسيء الافرنسيون فهم مثل هذا الحل فيظنون أن تهديداتهم أثمرت فاينعت . وفي أول تشرين الثاني سطَّر رده الشهير على مذكرة تيير المؤرخة في الثامن من تشرين الاول فانكر على فرنسة أن يكون لكيان العزيز أية علاقة بالتوازن الدولي وأضاف أن بقاء جيش العزيز يهدد سلم الدولة العثمانية وسلامتها[٦٥٣] . فخيَّب غيزو بمذكرته هذه وأثار عاصفة من النقد في اوساط لندن أدت الى تبكيته في جريدة التيمس[٦٥٤] . ولم توافقه حكومات حلفائه على تطرفه هذا فكتب مترنيخ الى ممثل حكومته في لندن موافقاً

---

(٦٥٠) جريدة التيمس تاريخ ١٧ و ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٤٠

(٦٥١) بالمرستون الى غرانفيل : الكتاب الازرق ج ٢ ص ٣١٤-٣١٥

(٦٥٢) غرانفيل الى بالمرستون : الكتاب الازرق ج ٣ ص ١-٢

(٦٥٣) بالمرستون الى غرانفيل : حياة بالمرستون للسر هنري بولور ج ٢ ص ٣٤٧ الكتاب الازرق ج ٢ ص ٣٣٨-٣٤٠

(٦٥٤) عدد ١٣ تشرين الثاني سنة ١٨٤٠

على ابقاء مصر بيد العزيز حكماً وراثياً . وكتب نسلرود الى تيتوف ممثل حكومته في الآستانة بمثل ما تقدم . فعقد ممثلو الدول المتحالفة اجتماعاً في لندن أسفر في الرابع عشر من تشرين الثاني عن مذكرة دولية جديدة اشاروا بها على الباب العالي باعادة محمدعلي الى منصبه في مصر وكتب بالمرستون في التاريخ نفسه الى الاميرال السر روبرت ستوبفورد يأمره بارسال ضابط قدير الى الاسكندرية يطلب اعادة الاسطول العثماني في ظرف ثلاثة ايام واصدار الاوامر بالجلاء عن كريت وادنه وبر الشام وبلاد العرب نقول يطالب هذا فيمد انه اذا فعل العزيز توسطت الدول واشارت على الباب العالي بوجوب اعادته الى منصبه في مصر[٦٥٥] .

امام الاسكندرية وأوفد الاميرال السر روبرت ستوبفورد زميله القدير الكومودور السر تشارلس نابيير على راس عمارة بحرية الى الاسكندرية لتنفيذ اوامر حكومته . ولدى وصوله اليها حرر كتاباً الى بوغوص بك ناظر الخارجية المصرية يفيده به انه أوفد بصفة خصوصية الكابتان مونسيل احد معارف الحضرة الخديوية يلتمس اطلاق سراح امراء جبل الدروز (لبنان) وشيوخه الذين القي القبض عليهم في شهر تموز او لمبادلتهم بغيرهم من الاسرى . ويفيد ايضاً ان اكثر هؤلاء حبسوا بتحريض من الامير بشير امير جبل الدروز لمجرد الاشتباه بطاعتهم . ثم يضيف ان حكومة الامير المشار اليه كانت خالية من العدل والانصاف وانه ليست هنالك أية فائدة تجنى من بقاء هؤلاء في الاسر اذ ان جبل الدروز أصبح حرًّا سالمًا وبالتالي فانه لن يدخل في حكم محمدعلي مهما حدث في غيره من جهات بر الشام . وبعد أن فرش هذا الفرش انتقل الى صلب المهمة الموكولة اليه فقال انه مما لا شك فيه ان خديوي مصر يعلم ان الدول المتحدة موافقة على ابقاء حكومة مصر في عهدته بطريق الموارثة وانها مستعدة لتأمين ذلك. فهل يسمح سموه لهذا القائد البحري المسن أن يشير عليه بطريق سهل يؤدي الى الصلح مع السلطان ومع سائر دول اوروبة العظمى. اذا أعاد خديوي مصر الاسطول العثماني عن طيبة خاطر وبدون شرط أو قيد واستدعى جنوده من بر الشام تزول عندئذ مصائب الحرب والقتال ويقضي الخديوي بقية عمره راضياً مطمئناً ساعياً لتحقيق الوسائل التي تضمن الامن والدعة لسكان بلاده ويستطيع بذلك أن يضع أساساً لعرش بطالسة جديد . ان قوة عسكرية قوامها ستة آلاف تركي وثلاثة آلاف بحار قد استولت على صيدا وبيروت في شهر واحد وهزمت الجيش المصري في معارك ثلاث وقبضت على عشرة آلاف أسير الامر الذي أدى الى اخلاء جميع الموانئ الساحلية ومعابر

(٦٥٥) الكتاب الازرق ج ٣ ص ١٤-١٥ و ١٧ و ٢١-٢٢

طوروس وجبل الدروز مع العلم بان هذه الاعمال تمت امام جيش مؤلف من ثلاثين الف مقاتل . وقد استولى اسطول الدول على قلعة عكة مفتاح بر الشام في خلال ثلاث ساعات . واذا أصر حضرته على مواصلة القتال فهل يسمح لي أن أسأله ما اذا كان يضمن بقاءه في مصر . اني لمن المعجبين به للغاية وأفضل أن اكون صديقه على ان اكون عدواً له . وعليه فاني اقول له قول صديق مخلص : اذا لم يوافق على عقد الصلح مع السلطان سيفقد امله في الاحتفاظ بمصر . فعساكره الموجودون في بر الشام متذمرون والشوام مسلحون يناهضونهم . فاذا ضُم جانب من القوة العسكرية الى القدر الموجود من عساكر الترك وهُجم بهذه القوة على ابراهيم باشا سيضطر دولته الى القاء السلاح . وجميع جنود الاسطول العثماني متذمرون ايضاً وقد فرّ قائدهم منذ ايام مع بعض ضباطه والتجأ الى اسطولنا وما زال فيه . والجنود الشاميون الموجودون في مصر متشوقون للعودة الى بلادهم . وقد اوقف صرف مرتبات العساكر مدة مديدة . ولا يزال في الآستانة من الاسرى المصريين عدد يتراوح بين اثني عشر الف وخمسة عشر الف جندي وقد صرفت مرتباتهم والبسوا الملابس وجرى تنظيمهم وترتيبهم . فليتفضل حضرة الخديوي وليلاحظ ما يحدق به من خطر . فاذا سيقت هذه العساكر الى القطر المصري لظهر عندئذ ان مصر لا تعد بلدة لا يمكن فتحها وان الاسكندرية تشارك عندئذ عكة في مصائبها ومصيرها[٦٥٦] . وحاول العزيز الا يربط نفسه بالتمام فكتب الكومودور ثانية واضعاً النقط على الحروف فقبل العزيز بتنفيذ مطالب الانكليز شرط تسلمه قرار الدول الفخيمة اذ يكون هو قد اكمل اعداد الاسطول العثماني للرحيل كما قبل بتسفير الوجوه اللبنانيين حالما يصلون من سنار . ووافق ايضاً على ايقاف القتال فوراً وعلى ارسال ضابط من قبله بمعية ضابط انكليزي يحملان الامر بايقاف القتال الى ابراهيم باشا[٦٥٧] . وتم هذا كله في الثاني والعشرين والثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ .

الجلاء والعودة

وكان السرعسكر المصري قد جعل من زحلة قاعدة حربية منذ انهزامه في بحرصاف يجمع عساكره اليها وينتظر تطور الموقف واوامر والده . وحوالي منتصف تشرين الثاني تسلم من والده امراً سرياً يقضي بجمع الرجال والعودة بهم الى مصر فنهض بالعساكر وسار الى دمشق . وبلغ الامير اللبناني قيامه فنهض بعسكره من حمانا

(٦٥٦) المحفوظات الملكية المصرية ج٤ ص ٤٧٤-٤٧٥

(٦٥٧) المحفوظات نفسها ج٤ ص ٤٧٦-٤٨١

الى قب الياس وجمع ابو سمره غانم فرساناً حوله وتأثر السرعسكر حتى وادي الجدل فشنّ الغارة عليه وعاد الى قب الياس . ثم ارسل بشير الثالث اخاه الامير عبد الله والامير قيس ملحم بخمس مئة فارس الى نواحي دمشق لتقوية الشعب على الخروج عن الطاعة وارسل الامير اسعد قعدان الى خربة روحا للمحافظة على وادي التيم . ولما وصل الامير عبد الله والامير قيس الى قرية الصويره اقبل الامير مجيد الحرفوش بجماعته منهزماً من سعسع وانضاف اليها . وفي اليوم الثالث نهض الجميع الى بعلبك ومنهـا الى الزبدانه فالتقاهم الامير خنجر الحرفوش بفرسانه وانضاف اليهم[٦٥٨] .

ولدى وصول السرعسكر الى دمشق اصدر اوامره الى قادة القطع في الشمال بالانسحاب ففعلوا منتظمين محافظين على النظام . ولم ينهبوا سوى المعرة وحمص لان اهاليها رفضوا تقديم المؤن . ففي حمص اقفلت المطاعم ابوابها في وجوه الجند وابى الاهالي ان يبيعوا الجنود ما لزمهم من المواد الغذائية بيد ان قائد الجند قتل من ثبتت عليه جريمة النهب[٦٥٩] . وبعدما احتشد الجيش في دمشق وضواحيهـا وقع المطر بغزارة واستمر بضعة ايام وكان البرد قارساً فاضطر الجيش النازل في ضواحي دمشق ان ينتقل الى داخلها فاحتل عدداً كبيراً من الحوانيت والخانات والمقاهي والمنازل المحاذية للشارع ما بين السنانية وبوابة الله . واحتل ايضاً جوامع المدينة ما عدا الجامع الاموي وجامع السنانية فارتفعت اسعار المأكولات واحتكر الجيش المطاحن والافران وسخر الدواب فحدث ضيق شديد . وكان ابراهيم باشا في اثناء ذلك يعاقب بشدة من يحاول التملص من تقديم ما يطلب منهم من المؤن والعلف . وجدّ في تحصيل البواقي المطلوبة من دمشق والقرى المجاورة فسمح بنهب تلك التي احجمت عن تقديم المطلوب . وكان من الطبيعي ان يفر السوريون واللبنانيون من صفوف الجيش فيعودون الى اهلهم وينضمون الى المحاربين . وكان بين هؤلاء شبلي اغا العريان فاعترض قوافل الذخيرة عند سعسع واضطر السرعسكر ان يقوم اليه بنفسه[٦٦٠] ومن هنا ما اشرنا اليه سابقاً عن الامير مجيد الحرفوش وجماعته . وظهرت بوادر الخيانة بين الموظفين واتهم محمد شريف باشا نفسه بها . وتفصيل ذلك انه تزوج في اثناء اقامته بدمشق من ابنة علي اغا صهر نصيف باشا العظم . ولدى رجحان الكفة في صالح الحلفاء فرّ فردوس بك العظم اخو زوجة محمد

(٦٥٨) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٦١٢-٦١٣

(٦٥٩) مذكرات تاريخية للخوري قسطنطين الباشا ص ٢٢٥ و ٢٢٦

(٦٦٠) المذكرات نفسها ص ٢٢٦

شريف باشا الى جانب الحلفاء. وعاد خلسةً الى دمشق قبل وصول السرعسكر اليها واتصل بمحمد شريف باشا . فعلم بذلك يوحنا بحري بك ونقل الخبر الى ابراهيم باشا قبيل قيامه من زحلة . فلما وصل السرعسكر الى دمشق امر بالقاء القبض على الحكمدار للتحقيق وارجأ المحاكمة ليقوم الى مصر[٦٦١] .

وقبل خروجه من دمشق دعا السرعسكر اليه اعيان البلد ووجوهها وطلب اليهم ان ينتخبوا متسلماً عليهم فوقع اختيارهم على حسن بك الكحالة ثم نصح لهم ان يلازموا السكينة ويحافظوا على الامن وهددهم بالعودة اليهم والانتقام منهم ان هم اساءوا معاملة اي كان من المسيحيين او اليهود او المسلمين . وغادرهم في التاسع والعشرين من كانون الاول سنة ١٨٤٠ متجهاً نحو المزيريب بخمسة وخمسين الفاً من الجند وسبعة الاف من ذويهم[٦٦٢] .

وكان الجنرال السر تشارلس سميث قد اقيل من منصبه لعدم تفاهمه مع الكومودور السر تشارلس نابيير وخلفه في قيادة جيوش الحلفاء. الجنرال البارون اوغوستوس فون يوقوس الالماني العامل في صفوف العثمانيين وذلك في السادس عشر من كانون الاول من السنة ١٨٤٠ فنقل يوقوس مركز القيادة من بيروت الى حاصبيا ليقترب من قاعدة الجيش المصري وتقدم اللبنانيون من الزبدانة الى الهامة وكانت عساكرهم نحو الفي فارس . وكان الجنرال يوقوس قد ارسل جواسيسه الى دمشق نفسها يدعون جنود ابراهيم الى الانضواء تحت لواء السلطان ويعدونهم بالمكافأة وحسن المعاملة ففرَّ على اثر ذلك نحو مئة ضابط وثمان مئة جندي . واتصل خبر انسحاب المصريين باللبنانيين فدخلوا دمشق واعلنوا حكم السلطان فيها وعين محمد عزت باشا احمد اغا اليوسف متسلماً عليها . وتأثر اللبنانيون المصريين حتى الكسوة فادركوا مؤخرة الجيش وارهقوها وانضم اليهم نحو سبع مئة جندي اخرين فذهبوا بهم الى مقر الامير بشير الثالث في طبرية . ونقل الجنرال يوقوس مقره العام من حاصبيا الى صفد وأمر بتدمير جسر بنات يعقوب[٦٦٣] .

ووصل الجيش المصري الى المزيريب في الثاني والثالث من كانون الثاني سنة ١٨٤١ ولدى وصوله اليها قسمه السرعسكر الى فرق ست فارسل المشاة والخيالة بقيادة احمد منكلي باشا

---

(٦٦١) بحري بك الى حسين باشا : المحفوظات الملكية المصرية ج٤ ص ٤٩٢ راجع ايضاً الجواب على اقتراح الاحباب لمخائيل مشاقه ص ٣٠٠-٣٠٤ و ٣٠٦-٣٠٨

(٦٦٢) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا : المحفوظات نفسها ج٤ ص ٤٩٥

(٦٦٣) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٦١٣ المذكرات التاريخية المشار اليها انفاً ص ٢٢٣و٢٢٤ الجواب على اقتراح الاحباب لمخائيل مشاقه ص ٣٠٨-٣٠٩

الى غزة فالعريش والمدفعية بقيادة سليمان باشا الفرنساوي في طريق الحج الى معان ومنها الى العقبة فالسويس وتولى هو جنود الحرس والخيالة غير النظاميين واتجه نحو غزة ليبحر منها الى مصر . وسارت جميع هذه الفرق الى شرقي الاردن فلم يتسنَّ ليقموس مناوشتها . فاحمد منكلي باشا قام من المزيريب الى حسبان فذيبان فالكرك فبوغاز الجزيرة فتل الملح فغزة . وكانت طريقه هذه صعبة قليلة الزاد والماء ففقد من جنوده عددًا كبيرًا ولا سيما في مستنقعات بحر الميت واضطر بعضهم الى اكل لحوم الحيوانات الميتة واعشاب البرية . واخيرًا وصلوا الى غزة في الحادي والعشرين والخامس والعشرين والسادس والعشرين من كانون الثاني[٦٦٤] . اما سليمان باشا فانه كان أسعد حظًا ذلك انه لم يصادف اية عقبة من هذا النوع فبلغ معان وفير المؤونة وكان اهلها لا يزالون على ولائهم للحكومة المصرية فاستراح فيها خمسة ايام وقام منها الى العقبة ولكنه لم يحسن تقدير ما يحتاج اليه من الماء والزاد في هذه المرحلة ففقد الفًا وخمس مئة جندي من مجموع تسعة الاف واوصل الى القاهرة مئة وخمسين مدفعًا من مئتين على وجه التقريب[٦٦٥] . وقام ابراهيم باشا من المزيريب الى السلط فضرب العربان المتمنعين في قلعتها وكانت البلدة خالية من الغذاء . فخرج منها في اليوم التالي واتجه نحو اريحا مهددًا القدس لانه كان قد علم ان يوقوس عول على مهاجمة غزة وعلى البطش بحاميتها المصرية والاستيلاء على شونها ومستودعاتها . فلما اجتاز ابراهيم الاردن الى ضفته الغربية عند اريحا توهم يوقوس انه زاحف على القدس فارتد من غزة نحو تلك للدفاع عنها . وعاد ابراهيم الى شرقي الاردن متجهاً نحو الجنوب فلما بلغ الكرك مكث فيها اربعة ايام حاول في أثنائها ان يجد ما يعوزه من الزاد فلم يفلح لشدة عداء اهلها . وعندئذ قام منها الى الطفيلة فوجد ماء كثيرًا ولكنه لم يغنم بالقوت المطلوب وهكذا فان وطأة الجوع اخذت تشتد يوماً فيوماً وقام عربان المنطقة بمناوشته وما فتئوا حتى وصل الى غزة في الحادي والثلاثين من كانون الثاني من السنة ١٨٤١[٦٦٦] .

وكتب بشير الثالث الى رجاله في ضواحي دمشق ان يوافوه الى مرجعيون ففعلوا وقاموا جميعاً الى بلاد بشارة الى قرية ميس ومنها الى صفد ثم الى يافه . وفي اثناء ذلك كان العزيز قد سمح للشيخ نعمان جنبلاط والشيخ عبد السلام والشيخ خطار العماديين والشيخ نصيف

(٦٦٤) تاريخ حوادث سورية منذ السنة ١٨٤٠ حتى ١٨٤٢ لاشيل لوران ج ١ ص ٢٢٨-٢٣٣ راجع ايضًا نابيير الحرب في سورية ج ٢ ص ١٦٣

(٦٦٥) حوادث سورية لاشيل لوران ج ١ ص ٢٣٣-٢٤١

(٦٦٦) المؤلف نفسه ج ١ ص ٢٤١-٢٤٨

النكدي وولده الشيخ عباس ان يعودوا الى لبنان كما سبق فاوضحنا . فقاموا من مصر براً الى يافه . فلما بلغ رجال النكدية قدومهم نهض بعضهم من معسكر بشير الثالث لملاقاتهم وحضروا معهم الى باب المدينة يسلمون للسرعسكر العثماني فاستقبلهم هذا بالبشاشة وأمنهم ثم امرهم ان يتوجهوا الى معسكر الامير اللبناني . وفي اول الليل ساروا من المدينة نحو المعسكر اللبناني . ولما اقبلوا عليه التقاهم ذووهم باطلاق البارود فاضطرب السرعسكر العثماني وظن جنوده ان ابراهيم باشا قد داهمهم . فانهزم بعضهم نحو المدينة وغرق منهم اربعة فرسان في نهر العوجاء. واضطرب الوزير العثماني مما كان ونهض الى خيمة الامير اللبناني ليعلم الخبر فاخبره الامير بما كان ورجع الوزير الى يافه . وفي الصباح حضر الشيوخ الى خيمة الامير يسلمون عليه فازدرى بهم وبالقابهم وشاراتهم وأسمعهم كلاماً اخفض مقامهم فشق ذلك عليهم لانهم لم يذنبوا ضده. وخرجوا نافرين وتوجهوا الى عكة مغتاظين ثم عادوا الى الامير واكذوا الغيظ الى حين[٦٦٧] .

ويستدل من بعض الاوراق الباقية بين محفوظات السراي الملكية المصرية ان كبار رجال الجيش المصري في غزة فاوضوا قيادة الحلفاء في كيفية ترحيل جنودهم من غزة قبل وصول ابراهيم باشا اليها . فهنالك تعهد من امضاء ضابطين انكليزيين هورتن ستيوارت ورالف ألدرسن مؤرخ في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٨٤١ موجه الى احمد منكلي باشا يقضي بتقديم المعونة لتسهيل اعمال الجلاء وبعدم تعيين حاكم على غزة او الدخول اليها قبل خروج المصريين منها[٦٦٨] . ورأى ابراهيم باشا بعد وصوله الى غزة في الحادي والثلاثين من كانون الثاني انه لا بد له من البقاء فيها الى ان يتم الجلاء. وذلك لاسباب اهمها حالته الصحية وكان يشكو من اليرقان وتامين الجلاء واصلاح سوء الحال الذي اوجده بعض الضباط المصريين في علاقتهم مع الانكليز . ولكن العزيز أرسل اليه سفينة الحجاج لنقله الى مصر واوعز اليه ان يأمر الباشاوات الذين بمعيته بترحيل الجيش من غزة الى مصر[٦٦٩] .

الفرمان السلطاني

وأشارت الدول على الباب العالي كما سبق وقلنا بوجوب الغاء الفرمان الذي اعلن عزل العزيز من منصبه في مصر واستبداله بغيره يبقيه في منصبه ويبقي مصر له ولاولاده من بعده . فاصدر الباب العالي فرماناً سلطانياً في الثالث عشر من

(٦٦٧) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٦١٣-٦١٤

(٦٦٨) المحفوظات ج ٤ ص ٤٩٥

(٦٦٩) المحفوظات نفسها ج ٤ ص ٤٩٦

شهر شباط سنة ١٨٤١ يتضمن ثلاثة عشر بنداً قضى اولها بان يختار السلطان من يشاء من اولاد محمد علي المذكور او اولاد اولادهم الذكور اذا خلا مركز الحكم وبان يختار الباب العالي من يشاء للولاية اذا انقرض نسل الذكور دون ان يكون لاولاد الاناث حق في الحكم . ونصّ البند الثاني بوجوب ذهاب الخلف في الحكم الى الآستانة ليتلقى فرمان التقليد . وجاء في الثالث انه على الرغم من حق ولاة مصر الوراثي فان مرتبتهم تبقى مماثلة لمرتبة غيرهم من وزراء الدولة ان في المخاطبات او في المقابلات السلطانية . وقضى البند الرابع بتقيد مصر بالمعاهدات التي ابرمها ويبرمها الباب العالي وبخط كولخانه وبقوانين الدولة الاساسية . ونص الخامس بان تجبى الضرائب في مصر باسم السلطان وان يتبع في ذلك النظم نفسها المعمول بها في الدولة . وحدد السادس حصة الباب العالي من الضرائب فجعلها ربع ايرادات الحكومة المصرية وخصص الثلاثة الارباع الاخرى لنفقات الجباية والادارة العسكرية والمدنية وحاجات الحكومة والغلال التي ترسل سنوياً الى مكة والمدينة . وفرض البند السابع تنظيم لجنة لمراقبة هذا الدخل تؤلف طبقاً لاوضاع يقررها السلطان. وحتم الثامن بان تكون السكة في مصر باسم السلطان والا تختلف النقود الذهبية والفضية التي تضرب في مصر عن نقدي الآستانة في القيمة والنوع والعيار . ثم حدد البند التاسع عدد الجيش المصري فجعله ثمانية عشر الفاً في زمن السلم وترك للباب العالي الحق في رفعه الى اكثر في زمن الحرب. وقضى ان يتبع نظام التجنيد التركي الذي كان يقضي بجعل الخدمة العسكرية خمس سنوات . ونص البند العاشر بالا تختلف شارات الجنود والضباط وملابسهم وأعلامهم وأوسمتهم عن مثيلاتها في الجيش التركي . وكذلك ملابس البحارة والجنود والضباط في الاسطول واعلام السفن. وأعطى البند الحادي عشر لوالي مصر حق منح الرتب العسكرية لغاية رتبة صاغ قول اغاسي أما الرتب العليا فيُرسم بها من السلطان. ومنع البند الثاني عشر بناء السفن الحربية في مصر بدون اذن صريح بذلك من الباب العالي . ونص البند الاخير بانه لما كان امتياز الحكم الوراثي لمحمد علي واسرته مقروناً بالشروط السابقة فالاخلال باي منها يؤدي الى سقوط حقهم بها جميعاً . وأصدر السلطان في الوقت نفسه فرماناً آخر أسند به اقاليم السودان الى محمد علي[٦٧٠] . وأوفد الباب العالي سعيد محب افندي الى مصر ليحمل الفرمانين الى العزيز . ففعل ولكن العزيز لم يسمح بقراءة الفرمان الاكبر علناً لان الشروط التي تضمنها بوراثة المنصب الخديوي كان لا يمكن قبولها[٦٧١] . ومما قاله في هذا للكومودور نابيير ان البند الاول

(٦٧٠) الكتاب الازرق ج ٣ ص ٢٤٧ و ٢٥٠-٢٥١

(٦٧١) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ٤٩٧

الذي أفسح المجال لجميع اولاده وأحفاده في الحكم سيؤدي حتماً الى حرب طاحنة بينهم عند وفاته وأضاف ان حصر صلاحيته في ترقية الضباط الى الدرجة المبينة في البند الحادي عشر سينقص من هيبة الحكم ويفسد الجيش . واحتج العزيز ايضاً على البند السادس والبند الرابع ايضاً وطلب تعديلها[٦٧٢] . ووصل خبر هذا الاحتجاج الى الآستانة في اواسط آذار فهب رشيد باشا يغني اغنيته القديمة من ان هذه اللهجة ليست لهجة تابع وانها تنقص من سيادة الدولة فيما لو أصغي اليها واتصل بسفراء الدول طالباً رأيهم فوافقه بونسونبي كل الموافقة ولكن شتورمن النمساوي وغوينكز مارك البروسياني وتيتوف الروسي امتنعوا عن التعليق واكتفوا بالقول انهم أرسلوا يستطلعون رأي حكوماتهم في ذلك[٦٧٣] . وفي الثالث عشر من آذار كتب سفراء الدول في لندن مشتركين مع الفيكونت بالمرستون يلفتون نظر شكيب افندي السفير العثماني الى ما سبق لهم ان وقعوا في الحادي والثلاثين من كانون الثاني مبينين وجوب اعادة النظر في فرمان الثالث عشر من شهر شباط . وكتب بالمرستون الى بونسونبي بوجوب جعل الحكم في مصر في يد اكبر أولاد الحاكم ووجوب امتناع الآستانة عن التدخل الا في حالتي القصور والعجز الصحي . ووافق نسلرود زميله البريطاني كل الموافقة . اما مترنيخ فانه ذهب الى أبعد من هذا فهدد بانسحاب حكومته من تحالف لندن اذا امتنع الباب العالي عن تعديل الفرمان موضوع البحث تعديلاً يتفق ومحادثات لندن . واتخذ البارون فرتير البروسياني موقفاً مماثلاً لموقف زميله النمساوي[٦٧٤] . وما ان وصل هذا كله الى الآستانة حتى استقال كل من مصطفى رشيد باشا واحمد فتحي باشا اشد الوزراء موقفاً من العزيز ومشكلته . وفي العشرين من نيسان أعلن الباب العالي استعداده لتعديل بنود الفرمان موضوع البحث وقبوله بمبدأ تولي الاكبر سناً فالاكبر وبوجوب السماح للعزيز وخلفائه من بعده بتعيين جميع ضباط الجيش دون قائد فرقة وبتحديد مبلغ معين للمال المطلوب من مصر[٦٧٥] .

وفي اول حزيران من السنة ١٨٤١ أصدر الباب العالي فرماناً جامعاً حوى احكام فرمان الثالث عشر من شهر شباط والتعديلات المتقدمة . وأصدر فرماناً آخر جعل المال المطلوب من مصر ثمانين الف كيس كل سنة .

---

(٦٧٢) الكتاب الازرق ج ٣ ص ٣٤١–٣٤٤

(٦٧٣) الكتاب الازرق ج ٣ ص ٣٧١–٣٧٥

(٦٧٤) الكتاب الازرق ج ٣ ص ٣٦٤–٣٦٥ و ٣٧٨–٣٨١

(٦٧٥) الكتاب الازرق ج ٣ ص ٤١٩–٤٢٠

الفصل الخامس عشر

العمران

اثر الغرب الحديث

وكان ما كان من أمر الثورة الصناعية في اوروبة الغربية. فكثر الانتاج وتراكمت رؤوس الاموال واشتد الزحام على المواد والاسواق . ووقع اعظم هذه الاسواق في آسية ولاسيما شرقيها وجنوبيها . وبلغت الدولة العثمانية اقصى الكبر وعجزت وضعفت وقاربت الاجل . فاهتمت الدول الصناعية بمصيرها لوقوعها عبر الطريق الى الشرق ولاسيما في اطرافها العربية مصر والشام والعراق والجزيرة . وراجت سلع لانكاشير القطنية رواجاً عظيماً في اسواق الدولة العثمانية وكثر طلابها فارتفع مجموع ما صُدّر منها من ثلاث مئة وخمسة وخمسين الف جنيه استرليني في السنه ١٧٨٠ الى ثلاثين مليوناً وثمان مئة الف في السنة ١٨٢٥ وقتلت مثيلاتها المحلية لرخصها ومتانتها وجمال شكلها . وتدفق بنُّ المستعمرات البريطانية وسكرها الى هذه الاسواق نفسها فطرد غيره منها نظرًا لرخصه وجودته[٦٧٦] . وجرى مثل هذا وان لم يكن بالنسبة نفسها في تجارة الطليان والفرنسيس وغيرهما من شعوب اوروبة الغربية مع الدولة العثمانية وارتفعت صادرات هذه الى الجزر البريطانية وحدها مما كانت قيمته توازي مئتين وثلاثة واربعين الف جنيه في السنة ١٨١٢ الى مليون ومئتي الف في السنة ١٨٢٥[٦٧٧] . وكان معظم هذه الصادرات العثمانية العصفر الشامي والحرير اللبناني والقطن الفلسطيني ولاسيما قطن عكة ونابلس والنيلة الاردنية .

واشتدت عناية الفرنسيس بالحرير اللبناني . وكان انتاج الشيخ بشير جنبلاط وحده اكثر

---

(٦٧٦) تاريخ شركة اللفانت لالفرد وود ص ١٩٢-١٩٣

(٦٧٧) المؤلف نفسه ص ١٩٣

من الف واربع مئة اقة وانتاج لبنان بكامله من الف الى الف وخمس مئة قنطار وكان حله على دواليب خاصة تحرك باليد وتوضع قرب الينابيع . وقبيل الفتح المصري جاء الى بيروت نقولا بورتاليس ابن اتيان بورتاليس الشهير فوجد الحرير اللبناني رخيصاً للغاية وعوّل على انشاء معمل لحله بالطريقة الاوروبية ولكن الشهابي الكبير عارضه في ذلك . وعلى الرغم من هذا ابتاع الخواجه بورتاليس لنفسه قطعة من الارض في قرية بتاتر في كنف المشايخ الملكيين . ثم انشأ اخوه فورتوني اول معمل لحل الحرير فيها بالطريقة الاوروبية سنة ١٨٤١ وفي السنة ١٨٤٧ انشأ مورك دلك الافرنسي ورفيقاه سليجان وكوزي معملًا اكبر من هـذا في عين حماده من قضاء المتن[٦٧٨] .

وزاد عدد الاوروبيين في بر الشام وتجمعوا في بيروت مؤثرينها عـلى غيرها لقربها من الشهابي الكبير مستظلين بأمنه وحزمه وعدله فبلغوا في اواخر النصف الاول من القرن الماضي الاربع مئة وجعلوا منها مركزًا لاعمالهم في بر الشام ناثرين عملاءهم الوطنيين في دمشق وحمص وحماه واللاذقية وطرابلس وصيدا وعكة ونابلس ويافه . واحتفظت حلب بجاليتها الافرنجية القديمة ولكن ما ساد عاصمة الشمال من الاضطراب والفوضى من جراء تناحر الانكشاريين والاسياد ابقى عدد الافرنج فيها قليلًا جدًا . اما دمشق وحمص وحماه فانها لم تشجع هؤلاء على الاقامة فيها . وقل الامر نفسه عن سائر المدن الشامية خارج لبنان[٦٧٩] .

وادى اهتمام الدول الاوروبية بالشرق الاقصى وبمصير الدولة العثمانية الى تشجيع البحث والتنقيب عن بلدان الشرق الادنى والاقصى والمتوسط والى انشاء الجمعيات العلمية لهذه الغاية. فظهرت في السنة ١٨٧٨ الجمعية الهولندية الاسيوية في بتافية واقتصرت في اعمالها على ما يختص بالمستعمرات الهولندية . وقامت في السنة ١٧٨٤ جمعية بريطانية مماثلة في كلكوته. وفي السنة ١٧٩٥ انشأت الحكومة الفرنسية في باريز مدرسة لتعليم اللغات الشرقية الحيـة كان للعربية فيها نصيب وافر . وفي السنة ١٨٢١ اسس سلفيستر دي ساسي الجمعية الاسيوية الفرنسية . وظهر بعدها في لندن وفي السنة ١٨٢٣ جمعية بريطانية العظمى وارلنـدة الاسيوية الملكية. اما الجمعية الاسيوية لالمانية فانها لم تبرز الى حيز الوجود قبل السنة ١٨٤٥.

وكانت الاوساط الاميركية الخالصة لا تزال مستمسكة بآراء دينية خاصة راغبة في

(٦٧٨) مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري ص ١٦٠ — ١٦١ راجع ايضاً دواني القطوف لعيسى اسكندر المعلوف ص ٢٥٥

(٦٧٩) بيروت ولبنان لهنري غيز ج ١ ص ٨—١٤

احياء الكنيسة عن طريق تجريدها من بعض العقائد والطقوس والعودة بها الى بساطة الكتاب المقدس فاوفدت لجنة الاشراف على الارساليات الاجنبية جماعة من المبشرين الى بيروت وفي طليعتهم لاوي بارسنس وبلينيوس فسك . وصل هذان الى بيروت في السنة ١٨١٩ واستقاما فيها . وما ان باشرا أعمالها في الاوساط الارثوذكسية والمارونية حتى لمسا جفاء لا حدَّ له ما لبث ان انقلب الى عداء بغيض واضطهاد شديد ادى الى وفاة احد اتباعها اسعد يوسف الشدياق والى دخول اخيه فارس في دين الاسلام . فأيقنا ان لا مفر من انشاء كنيسة انجيلية مستقلة وان لا بد من تعليم الصغار والاحداث واعداد نشء جديد . وكان قد لحق بهما كل من يوناس كنغ واسحق برد ففتحوا مدرسة للذكور واخرى للبنات. وفي السنة ١٨٣٤ استقدموا مطبعتهم العربية من مالطة واقاموها في بيروت . وفي السنة ١٨٤٨ انشأوا مدرسة عالية لتعليم الذكور في عبيه برئاسة اسحق برد فنالت شهرة كبيرة .

وقامت رومه وقعدت لوصول هؤلاء الى لبنان فأوعزت الى العازاريين واليسوعيين ان يهتموا للامر واناطت بهم امر الدفاع عن الكثلكة في الشرق. ففتح الاب فروماج العازاري مدرسة عينطورة سنة ١٨٣٤ وانشأ اليسوعيون مدرسة للذكور في بيروت سنة ١٨٤١ وفي السنة ١٨٤٣ حوّل احدهم الاب بلانشه دار الامير حسن الشهابي في غزير الى مدرسة اكليريكية لجميع الطوائف الكاثوليكية في الشرق على الرغم من تعليمات رومه الاولى التي قضت باهتمام خاص بطلبة الروم الكاثوليك الاكليريكيين . وفي السنة ١٨٤٥ انشأ الاب بلانشه نفسه رهبانية مار يوسف للراهبات في بكفيا وتلاه الاب ريكادونّه فنظَّم رهبانية راهبات المحبة في معلقة زحلة في السنة ١٨٤٧. فخدمن العلم والدين بتربية الصغيرات في القرى المهملة .

وأدى هذا الاحتكاك بالغرب الى تطور مادي كبير . فراجت سلع الغرب ومنتوجاته الصناعية وأقبل الناس على شرائها واستعاضوا بها عما كانوا يصنعون . فحلت البفتة البيضاء (عنبر كيس) محل الانسجة القطنية اليدوية القديمة والجوخ الاوروبي محل الصوف المحلّي وبدأت حرائر فرنسة تستغوي النساء فيستعضن بها عما كان ينسج محلياً في حلب وحمص ودمشق . وكانت ازياء الرجال والنساء غريبة مستغربة أليق بالمراسح منها بالبيوت تشبه ملابس الاكراد بعمائمها وسراويلها وقنابيزها المفتقة وطرابيشها المشموطة وزرابيلها المقيطنة . وكان الرجال يلبسون القميص على ابدانهم ثم السروال القطني المصبوغ والمنتيان . ثم يضعون العمة على رؤوسهم ويتباهون بحجمها . ويحتذون المداس من السختيان الاحمر ونعله من جلد البقر وقليل من جلد الجمل . وكان لباس الشبان سروالاً من المقصور الابيض وقميصاً ومنتياناً وفوقه

كبران ازرق . والامراء منهم لبسوا السروال الابيض والمنطقة الحريرية الطرابلسية والقميص والمنتيان والكبران الازرق المطرز وعمة من الحرير او الكشمير ومستاً . والنسوة لبسن القميص الطويلة والقمباز المفقش او القنابيز المفقشة الملونة متراكة بعضها فوق بعض بقدر المستطاع . ووضعن على رؤوسهن الربطات الكبيرة او الطاسة او القرص . وشاع الطرطور في لبنان قرن مخروطي الشكل قاعدته عند الراس يصعد منعطفاً الى الامام حتى يتجاوز طوله نصف ذراع . وكان يصاغ من الذهب او الفضة ويوضع فوق الطربوش على الرأس ويرسل فوقه الشنبر فيغطيه ويسدل على الراس كاسياً جميع البدن او معظمه . وقد وصف المعلم بطرس كرامه احداهن به فقال :

ومطنطر فتكت لواحظه بنا	واذاع فينـا الفتك ثم اشاعا
فكأن خلقتـه لدى طنطوره	بدر اقام عـلى الجبين ذراعـا

ومن لباسهن العقائص وهي كرات فضية في اسفلها شراريب حريرية . ومنه ايضاً القفوية تؤلف من نحو خمسين جديلة حريرية مشبكة يعلق باطرافها نقود ذهبية وتطرح على الاكتاف مسترسلة . ومنه الشكة وهي نقود ذهبية ترصف على قطعة من القماش يعصب بها الجبين . ومنه المالويات رقاقات فضية شبه دائرة توضع الى جانب الراس مقابل الطرطور . ومنه الصنوبريات والصفا والعقد والسوار والخلخال والخاتم والحلق[٦٨٠] . وعاب الافرنج الشرقيات للطنطور الذي لم يكن له مسحة من الكمال فحرم الاساقفة والكهنة لبسه فابطل نحو السنة ١٨٤٨ واستبدل بالطرحة او المنديل . وادت ظروف الحرب الى استبدال العمة الثقيلة بالطربوش فاوعز ابراهيم باشا الى الشهابي الكبير واولاده ان يطرحوا العمائم ويلبسوا الطرابيش فشاع لبسها تدريجاً ولبس الشهابي الكبير الطربوش العسكري والعامة لبست المغربي وكان احمر طويلاً مسترسل الشرابة الزرقاء .

وبدأ استعمال الزجاج للنوافذ وشاع استعمال الاواني الزجاجية الاوروبية واقدم الناس على شراء الصحون الصينية والكاسات والملاعق والشوكات ودخل مع هذه تدريجاً بعض الكراسي الاوروبية والمناضد فبدأت تحل محل الدشك والطبلية . وفي السنة ١٨٣٣ كرّت العربة

(٦٨٠) دواني القطوف لعيسى اسكندر المعلوف ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ومجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري ص ١١-١٢ والروضة الغناء في دمشق الفيحاء لنعمان القساطلي ص ١٢٦ وتاريخ سورية لجرجي يني ص ٣٠٢-٣٠٣ وبحث الامير موريس الشهابي مدير الاثار في مجلة متحف بيروت ج ٦ ص ٤٧-٧٩

الاولى في بر الشام . وكان قد استقدمها قنصل انكلترة في دمشق المستر فرن فوصلت الى بيروت آتية من لندن وحُملت على ظهور الجمال الى دمشق . وما ان جرى تركيبها من جديد وكوّرت بها الخيول في خارج البلدة حتى خرج الالوف من الناس للتفرج عليها .

اثر الشرق المجاور

واضطرب الاتراك لمصيرهم وانزعجوا فهبوا يحاولون محاربة الغرب بسلاحه واخذوا عنه اشياء واشياء في فنون الحرب وما تطلبته من علوم. وكان سليم الثالث من افضل ملوكهم دمث الاخلاق مغرماً بالآداب محباً لترقية شعبه ورعاياه . ثم صار الملك الى ابن عمه مصطفى الرابع فلم يملك اكثر من سنة . وقام بعده اخوه محمود الثاني فطالت مدته (١٨٠٨–١٨٣٩) وكان كسليم هائماً بترقية شعبه ساعياً لانجاحه . فنقلت الكتب من اللغات الافرنجية الى التركية وعززت الطباعة في الآستانة فطبع من المراجع العربية نيف واربعون كتاباً منها المحيط للفيروزبادي وحاشية السيلكوتي على مطول التفتزاني ومراح الارواح لاحمد بن علي بن مسعود وعدد من كتب النحو والصرف وكافية ابن حاجب وغيرها[٦٨١] . وشعر بعض الولاة بواجبهم في هذا المضمار أو حدت بهم مطامعهم الشخصية فهبوا ينفخون ببوق الاصلاح او يحاولون شيئاً منه . وبين هؤلاء يوسف كنج باشا في دمشق وسليمان باشا وعبدالله باشا في عكة الذي اوجب التعليم الاجباري في احد مراسيمه الى متسلم بيروت[٦٨٢] . ومنهم ايضاً سليمان باشا القتيل اول من ايقظ العلوم والمنتمين اليها في العراق فانشأ في بغداد مدارس عدة وخلفه داود باشا الذي اقتفى اثره فأيقظ العراق بعد سبات عميق[٦٨٣] .

وكان ما كان من أمر العزيز وبعد نظره وطموحه ورحابة صدره وقد اشرنا اليه فلا مجال لاعادته هنا . وانما لا بد من الالماع الى قرب مصر من الشام وكثرة الشوام في دمياط والقاهرة والاسكندرية وغيرها من مدن القطر الشقيق وعدم انقطاعهم عن بلادهم الام والى اتساع التجارة بين البلدين وتوطدها وثباتها . فالبلدان آنئذٍ تكاملا بتجارتها فصدرت مصر الى الشام ارزها وقمحها وتمرها وسمسمها وسمكها المجفف وماء وردها وصوفها وحصرها واستوردت من بر الشام حريره وقطنه ونيلته وزيتونه وزيته وصابونه وتبغه وشمعه وعصفره

---

(٦٨١) تاريخ الدولة العثمانية لفون هامّر ج ١٤ ص ٤٩٢–٥٠٧ وفيه جدول بهذه المطبوعات .

(٦٨٢) المحفوظات اللبنانية : ملف التعليم والمدارس .

(٦٨٣) اطلب لغة العرب ج ١ ص ٩٨

وعفصه وقباقيبه وغير ذلك[٦٨٤] . ثم دخل الشوام في تبعة العزيز فجنوا ثمار أمنه وعدله واصلاحه كما سبق وقلنا في تضاعيف هذا الكتاب ولاسيما في الكلام عن الادارة . وما يجدر ذكره هنا هو ان العزيز عني بالعلم والتعليم بالشام فأمر بارسال الطلبة من الشام الى مصر للالتحاق بمدارسها فارسل محمد منيب افندي في صيف السنة ١٨٣٢ مئة واثنين من هؤلاء[٦٨٥] . وألحق سامي بك نفسه اولاد من نفي من الشام الى مصر بالمدارس[٦٨٦] . ثم رغب العزيز نفسه في صيف السنة ١٨٣٣ باستقدام بعض اولاد العرب من الالايات الجديدة ممن ألمّ بالقراءة والكتابة والحساب والرسم كي يدرسوا فن حصار القلاع[٦٨٧] . وفي أواخر السنة ١٨٣٤ انشئت في دمشق مدرسة حربية دعيت مدرسة الجهادية برئاسة «علي اغا»[٦٨٨] . وفي خريف السنة ١٨٣٥ نرى ابراهيم باشا يقترح انشاء مدرسة لتخريج الضباط « المحليين » في كل من حلب وعينتاب وكلس[٦٨٩] . ونراه في اوائل السنة يكتب الى سامي بك عن الورق والحبر اللازمين لطلاب المدفعية في حلب[٦٩٠] . ولعل هذه المدارس كانت على غرار مدرسة البياده في الخانقاه التي انشئت في ايلول من السنة ١٨٣٢ لتخريج ضباط الفرق . فيكون والحالة هذه منهاج الدروس فيها قد شمل مبادئ التحصين الاولية — مهاجمة الحصون والدفاع عنها — والطوبوغرافية ورسم الخطط وحركات البيادة واستخدام السلاح وواجبات الخدمة الداخلية ونظام الحاميات والاورط والبلوكات . او ان يكون كما ابانه الدكتور عزت عبد الكريم صرفاً ونحوًا ولغة فارسية ولغة تركية وحساباً وتدريب النفر والبلوك والاورطة والالاي[٦٩١] . ومهما يكن من امر برامجها فالواقع الذي لا مفر منه هو انها كانت محاولة جديدة في بابها لم يسبق للشوام ان راوا مثلها من قبل وان من رعاها بعنايته فكان واعياً يود اللحاق بالغرب في مضمار التعليم العسكري واتحاف شعبه بافضل ما توصل اليه العلم الحديث . ولذا فاننا نراه يكتب الى سامي بك فيلفت نظره الى مؤلفات الحاج اسحق افندي رئيس المهندسخانه البحرية السلطانية « في الحساب والجبر الهندسة وقطع للمخروط وحساب التفاضل والتكامل

(٦٨٤) كتابنا المحفوظات المصرية واسباب الحملة على سورية ص ٧١-٧٦
(٦٨٥) محمد منيب افندي الى سامي بك : المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٧٢
(٦٨٦) المية السنية الى محمود بك : المحفوظات نفسها ج ٢ ص ١٦٨
(٦٨٧) باقي بك الى ابراهيم باشا : المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٢٤٤
(٦٨٨) مجلس شورى الجهادية الى ديوان الجهادية : المحفوظات ج ٢ ص ٤٨٨
(٦٨٩) ابراهيم باشا الى سامي بك : المحفوظات ج ٣ ص ٥٣
(٦٩٠) المحفوظات ج ٣ ص ٨٧
(٦٩١) التعليم في عصر محمد علي ص ٢٩٣-٢٩٥

والحكمة الطبيعية وجر الاثقال والاجسام الصلبة والاجسام المائيـة والهوائية وعلم المناظر » لطبعها وتعميم فائدتها[٦٩٢] . واهتم ابراهيم بتعميم القراءة والكتابة بـين افراد جيشه وكتب الى والده في ذلك في العشرين من كانون الاول سنة ١٨٣٥ يفيد ان الضباط العرب اقدموا على درس الهندسة والمساحة وما شاكل ذلك من العلوم اللازمـة لرجال المدفعية وان اللواء احمد بك اكد انهم سيتعلمون هذه العلوم في وقت قصير وانه سرّ بهذا الخبر سروره بموقعة حمص . ثم يشير الى اثر التعليم في معنويات الانفار فيقول وقد كانت تقع حوادث الفرار من الايات المشاة والفرسان في اثناء وقوف الاعمال الحربية فأردنا الا نترك الجنود عاطلين فانشأنا مدارس في جميع الالايات ووضعنا قانوناً يقضي بعدم ترقية ضباط الصف من رتبة اونباشي الى رتبة يوزباشي الا بعد ان يتعلموا القراءة والكتابة . ومن ليس له قابليـة للقراءة والكتابة عليه ان يتعلم صنعة من الصناعات . وقد قلت حوادث الفرار مـنذ باشرنا في تعليم القراءة والكتابة والصناعة[٦٩٣] . فوافق العزيز عـلى ترقية البارزين من اولاد العرب في القراءة والكتابة الى رتبة يوزباشي[٦٩٤] . وذهب ابراهيم الى ابعد من هذا فكتب في مطلع السنة ١٨٣٦ يشير الى طريقة اتبعها نابوليون لاستعطاف العساكر واستغوائهم ويحبـذ تطبيقها فيرجو ان يعين لكل ذكر من اولاد العساكر في بر الشام نصف الراتب الذي يتقاضاه والده شرط ان يتعلم القراءة والكتابة فوافق والده على ذلك ولكنه لفت نظره الى ما عانته اوروبة من تعميم التعليم بين ابنائها واكتفى بتعليم عدد معين من ابناء هؤلاء[٦٩٥] .

وكان الدكتور كلوت بك قـد أسس مدرسة الطب البشري في مصر في السنة ١٨٢٧ وجمع حوله عددًا من الاطباء الاجانب وأسس المستشفيات الثابتة والنقالة فلما دخل بر الشام في حوزة العزيز انشأ كلوت بك عددًا من هذه المستشفيات في مدنه في عكة وصيدا ودمشق وحلب وغيرها كما الحق بفرق الجيش عددًا كبيرًا من مستشفياته النقالة . وأخذ هو يتجول في البلاد يتفقد شؤونها الصحية ويتعرف الى اطبائها المحليين فرأى ان يُلحق بعض الطلبة من ابنائها بمدرسة الطب . فخص هؤلاء بعشرة مقاعد من مئتين وخمسين . ووافق هذا كله رغبة شديدة في صدر الشهابي الكبير فانتقى كلوت بـك نصف العشرة من اللبنانيين . ونزل هؤلاء الى مصر في السنة ١٨٣٧ وكان اولهم واسبقهم غالب البعقليني . وجاء بعـده ابراهيم

(٦٩٢) المحفوظات ج ٣ ص ٧٧

(٦٩٣) ابراهيم باشا الى سامي بك : المحفوظات نفسها ج ٣ ص٧٢–٧٣ و ٩٤

(٦٩٤) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا : المحفوظات ج ٣ ص ٩٧

(٦٩٥) ابراهيم باشا الى سامي بك ومحمد علي باشا الى ابراهيم باشا: المحفوظات ج ٣ ص ١٠٢ و١٠٨

النجار ويوسف الجلخ ويوسف مرهج فملوك الامير خورشيد . وُلد غالب في بعقلين سنة ١٨١٨ وتعلم في مدرسة مار عبدا هرهريا وتخرج من مدرسة القصر العيني سنة ١٨٤٥ فخدم البطريرك يوسف حبيش ثم اقام في المختارة طبيباً خاصاً لسعيد بك جنبلاط[٦٩٦].

اليقظة الوطنية بدأت هذه عندما بدأ الاخذ باساليب اوروبة الحديثة . وبدأت في لبنان ثم انتقلت الى سورية وفلسطين . ويعود الفضل في بدئها في لبنان الى الافواج الاولى من خريجي مدرسة الموارنة في رومة الذين عادوا تباعاً الى لبنان حاملين اشياء واشياء . فقد قال البطريرك الدويهي عندما تخرج من هذه المدرسة وعرض عليه ان يدرس اللغات الشرقية في جامعة رومة قال خير لي ان اعود الى وطني فانشئ مدرسة ابتدائية في قريتي من ان التحق بهذه الجامعة التي قد تستغني عني . وهكذا كان على حد قول الاستاذ فؤاد افرام البستاني فان هذا البطريرك الماروني انشأ لدى عودته الى لبنان في اواخر القرن السابع عشر مدرسة مارت مورا في اهدن التي تستحق ان تذكر في فجر النهضة . ويقابلها مدرسة مار يوسف في زغرتا التي درّس فيها العربية والسريانية الراهب جبرائيل فرحات من صار فيما بعد المطران جرمانوس فرحات باعث النهضة التدريسية واللغوية[٦٩٧] . وتتابع ظهور المدارس في لبنان طوال القرن الثامن عشر من حوقا وبقرقاشا حتى مشموشة ووادي شحرور في السنة ١٧٥١ وجميعها يدرس العربية والسريانية ويؤمها الطلاب من جميع طبقات الشعب . وفي السنة ١٧٨٩ انشأ المطران يوسف اسطفان مدرسة في عين ورقة على طراز مدرسة الموارنة في رومه جمعت بين التعليم الابتدائي والثانوي والعالي ودرّست اللاتينية والايطالية الى جانب العربية والسريانية كما عنيت بالجغرافية والتاريخ وسائر العلوم العصرية حتى الفلسفة واللاهوت. وقام من ابنائها رهط من رجال الدين والدنيا يعملون في تاسيس نهضة علمية مباركة نذكر منهم اربعة بطاركة هم يوسف حبيش ويوسف الخازن وبولس مسعد ويوحنا الحاج وثلاثة من العلمانيين المعلم بطرس البستاني واحمد فارس الشدياق والشيخ رشيد الدحداح .

وتحوّل بفضل هذه الحركة عدد من الاديار الى مدارس كدير مار يوحنا مارون في كفرحي (١٨١٢) ودير مار انطونيوس بعبدا (١٨١٥) ومار جرجس الرومية (١٨١٨) ومار

---

(٦٩٦) مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري ص ٣٠٧-٣٠٨ راجع ايضاً التعليم في عصر محمد علي للدكتور عبد الكريم ص ٢٨٢-٢٨٣ ومشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان للدكتور مخائيل مشاقة ص ١٠-٢٢

(٦٩٧) تاريخ التعليم في لبنان : محاضرة القيت في نادي الندوة اللبنانية في ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩٥٠

يوحنا مارون صربا (١٨٢٨) ومار عبدا هرهريا (١٨٣١) ومار سركيس ريفون (١٨٣٢) . وفي السنة ١٨٣١ عاد الى لبنان المطران مكسيموس مظلوم بايعاز من البابا غريغوريوس السادس عشر يرافقه ثلاثة من الرهبان اليسوعيين الذين كانوا قد تعلموا العربية على يده ليعنى بمدرسة اكليريكية لطائفته . ولدى وصوله الى لبنان سار الى بتدين ومثل بين يدي الشهابي الكبير واطلعه على مهمته فأجلّه صاحب لبنان واكرم وفادته . وعندئذٍ عاد الى عين تراز الى دار الشيخ سعد الخوري وكان قد اشتراها البطريرك اغابيوس مطر سنة ١٨١١ ليجعلها مدرسة للطائفة فشرع في ترميم هذه الدار وتوسيعها وتدبيرها وجمع اليها تلامذة لدرس العلوم وانشأ فيها مكتبة وعلّم الى جانب العلوم الدينيـة العربية والافرنسية واليونانية واللاتينية « وانفق عليها نحوًا من عشرة الاف ريال » . وظهرت في الوقت نفسه تقريبـاً مدرسة دير المخلص فوق صيدا لتهذيب الرهبان المخلصين وغيرهم من ابناء الطائفة الكاثوليكية الملكية[٦٩٨]. وفي السنة ١٨٣٣ انشأ الروم الارثوذكس مدرستهم الشهيرة في دير البلمند بالقرب من طرابلس وبعد ذلك بسنتين ظهرت مدرسة الثلاثة الاقمار في بيروت للعناية بالنشء الارثوذكسي العلماني فشمل برنامجها الافرنسية الى جانب العربية نظرًا لتطور الموقف . وكانت مدرسة خالكة الاكليريكية تعد قسماً وافرًا من احبار هذه الطائفة فتزودهم بالعلوم الضرورية وتبعث بهم الى بر الشام متقنين الى جانب اليونانية لغة الكنيسة المقدسة اللغة التركية .

وكان الامراء والمشايخ كسالف عادتهم يلجأون الى معلمين خصوصيين لتعلم ابنـائهم القراءة والكتابة وعلم الحساب وشيئاً من الادب . وقد يوسعون حلقة التدريس هذه فيسمحون لابناء خاصتهم بحضور الدروس مع ابنائهم فيصبح لديهم مدارس صغيرة منثورة هنا وهناك من انحاء لبنان في عواصم اقطاعاتهم . وقد ضاعت اخبار هذه المدارس بوفاة رجالها وتبعثر اوراق رجال الاقطاع . بيد انه لا يزال لدينا وصف احدى هـذه المدارس كما عرفه احد روادها في حداثته في السنة ١٨٥٦ . قال الدكتور شاكر الخوري: «في هذه السنة احضرني والدي معه الى المختارة لانه كان مستخدماً في المقاطعة بصفة كاتم اسرار المقاطعجي سعيد بك جنبلاط . واتصالنا بآل جنبلاط قديم العهد فاول حاكم منهم علي جنبلاط وكّل جدنا ابو عسّاف رزق الله الخوري بالحكم والاملاك في اقليم جزين وجبل الريحان . اركبني والدي حمـارًا وعليه فرشتي واخذني مسافة ثلاث ساعات نحو الشمال الى المختارة . وكان سعيد بك قـد استحضر الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي العالم العلامة والشاعر العظيم ليعلم ولديه نجيب

(٦٩٨) تاريخ طائفة الروم الملكيين الكاثوليكيين لمؤرخ مجهول ص ٨٦-٨٧

بك من عمري ونسيب بك اصغر مني . وكانت المدرسة في حارة المشايخ ببيت نجم جنبلاط في المحل الذي قتل فيه نعمان بك اولاد عمه فوق الميدان الشرقي . وكان الشيخ ابراهيم المذكور يعلمنا وكنا سبعة ما عدا البيكين الشيخ صالح والشيخ حسن اولاد الشيخ قاسم حصن الدين مستشار البيك والشيخ قاسم ابن الشيخ حسين شمس من غريفه صراف البيك ثم حسن ابن الماس من عبيد البيك واسعد ابو صوان الذي كان والده ووالدته من خدم البيك وعلي حسن طليع ابن شيخ العقل من الجديدة . فكنا نجلس نحن الاخرون في الغرفة . فكل منا يسمّع درسه بعد انتهاء البكوات . وكان يدرسنا في ديوان ابن الفارض غيباً بحيث كنت اقول القصيدة اليائية الى اخرها غيباً وكذلك الفية ابن مالك وقصيدة لامية العرب التي لم ازل حافظها للان بعد طول هذه المدة . فلا شك ان هذه الكتب العظيمة وخصوصاً الشعر كان يعلم العربية على حقها وحيث الشعر موزون فيلزم قايله ان يلفظ جميع حركاته فيقود على اللفظ الصحيح . وكذلك لسهولة حفظ الشعر تبقى القواعد المذكورة فيه مدة مديدة[٦٩٩] .

وكان بعضهم لا يزال يدرس مستقلًا بذاته ومن هؤلاء الشيخ نصيف اليازجي والمعلم نقولا الترك والمعلم بطرس كرامه والدكتور مخائيل مشاقه وكان هذا اكثرهم موهبة واطولهم صبرًا واوسعهم اطلاعاً . فانه درس على والده القراءة والكتابة واتقن بعض المهن . بيد انه كان اكبر من ان يقف عند هذا الحد وقد ظهر فيه ميل فطري الى درس الفلك والعلوم الطبيعية ولم يكن في بلدته دير القمر من يعرف من علم الحساب الضرب والقسمة . وكان يعلم ان اليهود يدركون الكسوف والخسوف فتردد على احدهم لياخذ عنه ذلك فلم يفلح لان يهود دير القمر انما عرفوا الكسوف والخسوف عن الروزنامات التي كانت ترد عليهم من اوروبة . وحصل له مثل هذا عندما بعثه والده بمهمة الى القس كيرلس الكاثوليكي اذ شاهد هذا يطالع كتاباً مخطوطاً وفيه اسماء الشمس والقمر متوالية فظن انه حظي بضالته وسأل الراهب عما يقرأ فاجابه انه مما لا تدركه عقول العامة . غير ان مخائيل ثابر فيما طلب وما زال حتى حصل على نسخة من هذا الكتاب . ولما طالعه راى ان معارفه لم تزل كما هي . وفي السنة ١٨١٤ جاء من دمياط الى دير القمر خاله بطرس عنحوري ومعه صندوق كامل من الكتب الخطية منها كتاب في علم الهيئة لديلاند الفرنساوي وآخر في تقويم الكواكب له ايضاً وغيره في علم الطبيعة لبنيامين فرانكلين الاميركي ومنها ايضاً كتاب في تقويم الكسوفات لخاله بطرس . فطالعها مخائيل وما فتئ حتى تمكن من تعيين خسوف

---

(٦٩٩) مجمع المسرات له ص ١٩–٢١

القمر . وفي السنة ١٨١٧ سافر الى دمياط طلباً للرزق فاشتد احتكاكه برجالها ولاسيما الشوام منهم الذين اخذوا شيئاً من العلوم الحديثة عن علماء الحملة الفرنساوية وفي طليعة هؤلاء الترجمان باسيليوس فخر . ودرس الموسيقى العربية والف رسالة فيها ثم عاد الى دير القمر فعينه الشهابي الكبير كتخدا من قبله لدى نسيبه الامير سعد الدين الشهابي في حاصبيا . فأصيب في السنة ١٨٣٨ بالملاريا واضطر ان يعود الى دير القمر نظراً لما قاساه من عناء في معالجتها فصمم على درس الطب وبدأ يطالع ويدرس على نفسه ويحتك بكل طبيب ياتي الى بلدته . وما فتئ حتى اصبح من اطباء زمانه . وفي السنة ١٨٣٣ انتقل الى دمشق ومارس الطب فيها فاتصل بالدكتور كلوت بك واخذ ما اخذ عنه . واعجب الطبيب الفرنسي بمخائيل فاهداه الكتب والادوات واصبح رئيس اطباء دمشق ثم نصح اليه صديقه كلوت بك ان ينزل الى مصر ويتابع دروسه في مدرستها الطبية ففعل ونال شهادتها(٧٠٠) .

وظل السواد الاعظم من طلاب العلوم الابتدائية في امهات المدن والقرى في جميع الاقطار الشامية يتناولون هذه العلوم في الكتاتيب . فاذا ما مست الحاجة في جهة ما الى كتّاب يقوم فقيه او عريف لفقيه فيجمع حوله بعض الاطفال اما في المسجد او في الزاوية او في بيته ويحفّظهم القرآن فيتعلمون القراءة والكتابة لحفظه . وربما حفظ بعضهم القرآن ولم يتعلم القراءة والكتابة . اما مبادئ الحساب فقد ياخذها الطالب عن فقيهه او عريفه او والده او احد التجار .

واذا ما اراد احدهم ان يستزيد طلب علمه على يد احد الاشياخ اما في المسجد او في بيت الشيخ . وقلّ من رحل منهم في طلبه . فهذا امام ائمة دمشق واستاذ اساتذتها وحبر احبارها وجهبذ جهابذتها « الذي شاع ذكره في القرى والامصار واشتهر كالشمس في رابعة النهار بركة الخاص والعام وحسنة الليالي والايام » امام الشافعية في جامع بني امية الشيخ احمد العطار فانه قرأ القرآن قراءة تدبر واتقان على الشريف ذيب بن خليل واخذ الحديث والفقه عن الشيخ علي كزبر والشيخ محمد الغزي مفتي الشافعية وقرأ في المنقول والمعقول على كل من الشهاب احمد المنيني وعلي افندي الطاغستاني(٧٠١) . وهذا الشيخ عبد الرحمن الكزبري « مسند الشام وشيخ علمائها الاعلام الامام العلامة والحبر البحر الفهامة محدث الديار الشامية

(٧٠٠) راجع كلامه عن نفسه في مخطوطته الجواب على اقتراح الاحباب وقد ورد شيء عنه في مشهد العيان المشار اليه آنفاً ص ٩ —١٢

(٧٠١) روض البشر في اعيان القرن الثالث عشر للشيخ محمد جميل الشطي ص ٣٣—٣٥

وابن محدثها وعالمها وابن عالمها » فانه اخذ عن شيوخ اجلاء منهم والده الشمس محمد الكزبري « وكان جميع انتفاعه منه وغالب مروياته عنه حضر دروسه في داره وفي المدرسة السليمانية وتحت قبة النسر وبين العشائين في الجامع الاموي »(٧٠٢) . وما يصح عن دمشق من هـذا القبيل يصح عن غيرها من المدن الشامية .

وانحصر التعلم والتعليم ومعهما الفكر والتاليف في اللغـة كاداة وفي القرآن والحديث والفقه كوسيلة لكسب رضى الله تعـالى وضمان الاخرة . واصبحت دراسة هذه المواضيع جامدة تحفظ عن ظهر قلب بعد ان كانت موضع دراسات مستفيضة . وقلّ الاهتمام في علوم الحياة الا ما كان ضرورياً منها لحساب المواريث وضبط المواقيت وتحديـد مواعيد الصلاة . وقامت كلها على النقل دون العقل . وما قـاله شيخ الازهر عن زملائه في مصر ينطبق كل الانطباق عـلى معاصريه في بر الشام وعلى خلفائهم في النصف الاول من القرن الماضي . قال المؤرخ الجبرتي : كان الوزير احمد باشا كور المتولي على مصر سنة ١١٦١ يميل الى دراسة العلوم الرياضية . فلما استقر بمصر قابله كبار العلماء ومنهم الشيخ عبدالله الشبراوي شيخ الازهر . فتكلم معهم في الرياضيات فقالوا لا نعرف هذه العلوم . فتعجب وسكت . وقال الباشا يوماً لشيخ الازهر : المسموع عنـدنا بالديار الرومية ان مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت في غاية الشوق الى القدوم اليها فلما جئتها وجدتها كما قيل تسمع بالمعيدي خيراً من ان تراه . فقال له الشيخ هي كما سمعتم معدن العلوم والمعارف . فقـال اين هي وانتم اعظم علمائها وقد سألتكم عن بعض العلوم فلم تجيبوني وغاية تحصيلكم الفقـه والوسائل ونبذتم المقاصد . فقال الشيخ نحن لسنا اعظم علمائها وانما نحن المتصدرون لقضاء حوائجهم واغلب اهل الازهر لا يشتغلون بالرياضيات الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم المواريث كعلم الحساب والغبار . فقال له وعلم الوقت ذلك من العلوم الشرعية بل من شروط صحة العبادة كمعرفة دخول الوقت واستقبال القبلة ووقت الصوم وغير ذلك . فقال الشيخ نعم لكنه من فروض الكفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين . وهـذه العلوم تحتاج الى آلات وصناعات وامور ذوقية كرقة الطبع وحسن الوضع والخط والرسم . واهـل الازهر غالبهم فقراء واخلاط مجتمعة من القرى والافاق فيندر فيهم القابلية لذلك »(٧٠٣) . هذا ولم يبـدأ الاخذ باساليب اوربة الحديثة في سورية وفلسطين الا بعد ان صدرت الاوامر به في اواخر

---

(٧٠٢) المرجع نفسه ص ١٣٩–١٤٠

(٧٠٣) عجائب الاثار في التراجم والاخبار ج ١ ص ١٩٣

عهد السلطان عبد المجيد اي بعد السنة ١٨٦٤ وبعد ان حظيت الشام بولاية مدحت باشا .
ففي السنة ١٨٧٩ لم يكن للحكومة العثمانية سوى اربع مدارس رشدية في دمشق أمهـا
مئتان وخمسون طالباً ومكتب عربي استعدادي فيه ستون تلميذاً ومدرسة حربية كلية فيها
مئة طالب . ومثل هذا في عاصمة الشمال[٧٠٤] .

(٧٠٤) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء لنعمان القساطلي ص ١١٩-١٢٠

BIBLIOGRAPHIE GÉNÉRALE

I. — Sources

A : Correspondance Diplomatique et Administrative. . .

B : Sources Narratives et voyages . . . .

II. — Ouvrages

III. — Instruments de Recherches

Dictionnaires :

Boustany, Boutros, محيط المحيط – بيروت

Lane, E. W., *Arabic-English Lexicon*, vols. I-III, London, 1863-1893.

Redhouse, Sir James, *A Turkish and English Lexicon*, Const., 1890.

I. — SOURCES

A : Correspondance Diplomatique et Administrative

British Parliamentary Papers: 1833-1841, London. — *The correspondence relative to the Affairs of the Levant.*

Cattaui, René, *Le Règne de Mohamed Aly d'après les archives russes en Egypte,* Tome Premier, *Rapports Consulaires de* 1819 *à* 1833 — Société Royale de Géographie d'Egypte, Publications Spéciales sous les auspices de Sa Majesté Fouad 1er — Le Caire 1931.

Deny, Jean, *Sommaire des Archives Turques du Caire.* Ibid. 1930.

Documents Diplomatiques Relatifs a la Question d'Orient, Paris, 1842.

Douin, Georges, *Une mission militaire française auprès de Mohamed Aly, correspondance des Généraux Beillard et Boyer.* Société Royale de Géographie d'Égypte, Le Caire 1923.

—, *L'Angleterre et l'Egypte.* Ibid. 1928—1930.

—, *Mohamed Aly et l'Expedition d'Alger,* 1929-1830. Ibid 1930.

—, *La Mission du Baron de Boislecomte, l'Egypte et la Syrie en* 1833. Ibid. 1927.

—, *La Première Guerre de Syrie, La Conquête de la Syrie,* 1831-1832, *La Paix de Kutahia,*1833.Ibid. 1931.

Driault, Edouard, *Mohamed Aly et Napoléon* (1807-1814),*Correspondance des Consuls de France en Egypte.* Ibid. 1925.

—, *La formation de l'Empire de Mohamed Aly de l'Arabie au Soudan* (1814-1823), *Correspondance des Consuls de France en Egypte.* Ibid. 1927.

—, *L'Expédition de Crète et de Morée* (1823-1828), *Correspondance des Consuls de France en Egypte et en Crète.* Ibid. 1930.

—, *La Crise de* 1839-1841, *Correspondance des Consuls de France et Instructions du Gouvernement,* Ibid. 1930-1934.

Hayret Effendi, *Insha-i-Hayret Effendi — Riyazi-i-Kuteba ve Hiyaz-i-Udeba,*Bulaq, 1241 (1825).

Martens, Georges Fred, *Nouveau recueil de traités etc.* 1808-1839. 16 Vols., Goettingue, 1817-1842.

Nahoum, Haim Effendi, *Recueil de firmans impériaux ottomans adressés aux Valis et aux Khédives d'Egypte* 1006-1322 *H.* (1597-1904) Réunis sur l'ordre de Sa Majesté Fouad 1er, Roi d'Egypte, Le Caire, 1934.

NOURADOUNGIAN, GABRIEL, *Recueil d'actes internationaux de l'Empire Ottoman*, Vol. III, Paris 1900.

POLITIS, ATHANASE, *Le Conflit Turco-Egyptien* 1838-1841 *et les dernières années du Règne de Mohamed Aly d'après les documents diplomatiques grecs*, Le Caire, 1931.

RUSTUM, ASAD JIBRAIL, *Materials for a corpus of arabic documents relating to the History of Syria under Mehemet Ali Pasha* — American University of Beirut, Pulications of the Faculty of Arts and Sciences, Vol. I-V, 1930-1934.

—, *Calendar of State Papers from the Royal Archives of Egypt relating to the Affairs of Syria*, Vols. I-IV, Beyrouth, 1940-1943.

SAMMARCO, ANGELO, *Il Regno di Mohammed Ali nei documenti diplomatici italiani inediti*, Vol. VIII, *Genesi e Primo Svolgimento della crisi Egiziano-orientale del* 1831-1833, Rome 1931.

—, *Il Regno di Mohammed Ali nei documenti diplomatici italiani*, Vol. IX, *La presa di San Giovanni d'Acri*. Ibid. 1932.

TALAMAS, GEORGES BEY, *Recueil de la Correspondance de Mohamed Ali, Khédive d'Egypte* (*du* 1*er avril* 1807 *au* 12 *juillet* 1848), Le Caire 1931.

TESTA, LE BARON I. DE, *Recueil des traités de la Porte Ottomane avec les Puissances Etrangères depuis le premier traité conclu, en 1536, entre Suleyman I et François I jusqu'à nos jours*, Vols. II, IX. Paris, 1865, 1898.

B : SOURCES NARRATIVES ET VOYAGES

ابكاريوس (اسكندر بك) : المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية . حمص ١٩٠٠

باز (رستم) : مذكراته . نشرها مع مقدمة وحواش وفهارس فؤاد افرام البستاني . منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٥٥

الدمشقي (ميخائيل) : تاريخ حوادث الشام ولبنان . نشرها الاب لويس معلوف اليسوعي ، بيروت ، ١٨١٢ .

الشدياق (طنوس) : اخبار الاعيان في جبل لبنان ، بيروت ، ١٨٥٩ .

شهاب (الامير حيدر : لبنان في عهد الامراء الشهابيين . نشره اسد رستم وفؤاد افرام البستاني منشورات مديرية التربية والفنون الجميلة ، بيروت ، ١٩٣٣

مشاقة (ميخائيل) الجواب على اقتراح الاحباب . نشره اسد رستم وصبحي ابو شقرا . منشورات مديرية الآثار . بيروت ١٩٥٦ .

نوفل (نوفل) : كشف اللثام عن محيا الحكومة والاحكام في اقليمي مصر وبرّ الشام . مخطوط في مكتبة الجامعة الاميركية بيروت رقم ٦٠٧٧

AINSWORTH, W. F., *Ibrahim Pasha in Syria*. Colburn's New Monthly Magazine, Vol. 77,348 ff.

ALDERSON, LIEUT. CO.L, *Notes on Akka and some of the coast defences of Syria*, R.E.C.P.VA, 19-62.

ARMAGNAC, BARON DE, *Nezib et Beyrout. Souvenirs d'Orient de* 1833 *à* 1841, Paris, 1844.

BARKER, CH.F., *Memoir on Syria, designed to illustrate the condition of that country before and subsequent to the evacuation of the Egyptian Army and its position under the Ottoman yoke*: to which are added remarks on its products and resources, its climate and capabilities, the cultivation of silk, the purchase and tenure of land and the working of the old and new Tariff;being the result of personal observations made during a residence of seventeen years in the Levant,London, 1845.

BARKER, JOHN, *Syria and Egypt under the last five Sultans of Turkey*: Being Experiences, during Fity years, of Mr. Consul-General Barker. Chiefly from His Letters and Journals, edited by His son, Edward B.B. Barker, 2 vols., London, 1876.

BARRAULT, EMILE, *Occident et Orient, Etudes Politiques, Morales, Religieuses, pendant* 1833-1834, Paris 1835.

BERTON, LE COMTE DE, *Essai sur l'Etat Politique des Provinces de l'Empire Ottoman, administrées par Mehemed-Ali*, Paris 1839.

BESUMEE, HASAN, *Egypt under Mohammad Aly Pasha*, London, 1838.

BLONDEL, ÉDOUARD, *Deux ans en Syrie et en Palestine* (1838-1839), Paris 1840.

BORÉ, EUGENE, *Correspondance et Mémoires d'un Voyageur en Orient*, 2 Vol. Paris 1840.

BOWRING, JOHN, *Report on Egypt and Candia,addressed to the Right Honourable Viscount Palmerston*, London, 1840.

—, *Report on the Commercial Statistics of Syria*. Presented to both Houses of Parliament, London 1840.

—, *The Syrian Question*, London, 1841.

BROCCHI, G.B., *Giornale delle Osservazioni fatte ne viaggi in Egitto, nella Siria e nella Nubia*, 5 Vols. Bassano, 1841-1843.

BURKHARDT, JOHN LEWIS, *Travels in Syria and the Holy Land*, London, 1822.

CADALVENE, ED. DE, ET BEUVERY, J. DE, *L'Egypte et la Turquie de* 1829 *à* 1836,2 vols. Paris,1836.

CADALVENE, ED. DE, ET BARRAULT, E., *Histoire de la Guerre de Mehemed-Ali contre la Porte Ottomane en Syrie et en Asie Mineure*, 1831-1833, Paris 1837.

CHESNEY, FRANCIS RAWDON, *The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris, carried on by order of the British Government, in the years* 1835-1836, *and* 1837; Preceded by geographical and historical notices of the regions situated between the rivers Nile and Indus. In Four Volumes. London, 1850.

CHURCHILL, COLONEL, *Mount Lebanon, A Ten Years' Residence from* 1842 *to* 1852. Describing the manners, customs, and religion of Its inhabitants with a full and correct account of the Druse Religion, and containing historical records of the mountain tribes from personal intercourse with their chiefs and other authentic sources. In three volumes. London, 1853.

CLOT-BEY, A.B., *Aperçu Général sur l'Egypte*, 2 vols., Paris, 1840.

—, *Mehemet-Ali, Vice-Roi d'Egypte*, Marseille, 1862, 2nd éd.

CORNILLE, HENRI, *Souvenirs d'Orient*, Paris 1833.

DECHAMPS, L. BOSQUET, *Deux mots sur l'Egypte*, Smyrna, 1832.

DUMAST, BARON DE, *Ce que la France avait raison de vouloir dans la Question d'Orient,* Nancy, 1841.

FAUCHER, LEON, *La Question d'Orient d'après les Documents Anglais, Revue des Deux Mondes,* 1841, IV, 261-289, 410-454, 517-561.

FLASSIN, *Solution de la Question d'Orient et Neutralité Perpétuelle de l'Egypte.* Paris, 1840.

FONTANIER, V., *Voyages en Orient entrepris par ordre du Gouvernement Français de l'année* 1821 *à l'année* 1829, 2 vols. Paris 1829.

—, *Le Voyage en Orient fait pendant les années* 1831-1832, Paris 1834.

GIRARDIN, SAINT-MARE, *Mehemet Ali, Revue des deux Mondes,* 1840, III, 638-650.

GORE, MONTAGUE, *Some Remarks on the Foreign Relations of England at the present Crisis,* London, 1838.

GOUIN, EDOUARD, *L'Egypte au* XIX *Siècle.* Histoire militaire et politique, anecdotique et pittoresque de Mehemet-Ali, Ibrahim-Pasha, Soliman-Pacha (Colonel Sèves), Paris 1847.

GUIZOT, FRANÇOIS PIERRE GUILLAUME, *Mémoires pour servir à l'Histoire de mon temps,* 8 vols Paris, 1858-1867.

—, *Embassy to the Court of St. James in* 1840, London, 1862.

GUYS, HENRI, *Beyrout et le Liban, Relation d'un séjour de plusieurs années dans ce pays,* 2 vols, Paris 1850.

HAMONT, P.N., *L'Egypte sous Mehemet-Ali.* Populations, Gouvernement, Institutions Publiques, Industrie, Agriculture. 2 vols. Paris 1843.

HOGG, EDWARD, *Visit to Alexandria, Damascus and Jerusalem, during the successful campaign of Ibrahim Pasha,* 2 vols. London, 1835.

HOLROYD, ARTHUR, T.. *Egypt and Mahomed Aly Pacha, in* 1837. London, 1838.

HOURY, C.B., *De l'intervention européenne en Orient et de son influence sur la civilisation des Musulmans et sur la condition sociale des Chrétiens d'Asie.* Paris, 1840.

—, *de la Syrie considérée sous le rapport comercial,* Paris 1842.

HUNTER, W.P., *Narrative of the late expedition to Syria under the command of Admiral the Hon. Sir Robert Stopford, comprising an account of the capture of Gebail, Tripoli, and Tyre; storming of Sidon; battle of Calat-Meidan; bombardment and capture of St. Jean d'Acre, etc.* 2 vols. London, 1842.

LAMARTINE, ALPHONSE DE, *Souvenirs, impressions, pensées et paysages, pendant un voyage en Orient,* 1832-1833, 4 vols. Paris, 1835.

—, *Vues, discours et articles sur la Question d'Orient,* Bruxelles, 1841.

—, *Histoire de la Turquie,* 8 vols. Paris 1855.

LANE, EDWARD WILLIAM, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, written in Egypt during the years* 1833, 1834, *and* 1835, partly from Notes made during a former visit to that country in the years 1825, 1826, 1827, and 1828, 2 vols. London, 1836, Edition used — 1871.

LEFEBRE, *Mahmoud et Mehemet-Ali, Revue des Deux Mondes,* 1839, II, 413-446, 474 ff.

LINDSAY, LORD, *Letters on Egypt, Edom, and the Holy Land,* 2 vols. London, 1838.

MACARTHY, J. W. and C. KARATHEODORE, *Relation officielle de la maladie et de la mort du Sultan Mahmoud II, en réponse aux allégations publiées par MM. de Cadalvene et E. Barrault*, 1841.

MAC FARLANE, CHARLES, *Constantinopole in* 1827. A residence of sixteen months in the Turkish capital and provinces: with an account of the present aaval and military power, and the ressources of the Ottoman Empire, London, 1829.

MADDEN, R.R., *Travels in Turkey, Egypt, Nubia, and Palestine, in* 1824, 1825, 1826, *and* 1827. 2 vols. London, 1829.

—, *Egypt and Mohammed Ali*, London, 1839.

—, *The Life of Mohammed Ali*, London, 1841.

MADOX, JOHN, *Excursions in the Holy Land, Egypt, Nubia, Syria, etc. including a visit to the unfrequented District of the Hauran*, 2 vols. London, 1834.

MALHERBE, RAOUL, *L'Orient de* 1718 *à* 1845.Histoire Politique, Religion, Mœurs. 2 vols.Paris, 1846.

MARCELLUS, VICOMTE DE, *Souvenirs de l'Orient*. 2 vols. Paris, 1839.

MARMONT, MARÉCHAL, *Voyage du maréchal duc de Raguse en Hongrie..., dans quelques parties de l'Asie Mineure, en Syrie, en Palestine et en Egypte*. 6 vols. Paris, 1837-1839.

—, *The present state of the Turkish Empire, by* Marshal Marmont, Duc de Raguse. Translated with notes and observations, on the relations of England with Turkey and Russia. By Lt. Col. Sir Frederic Smith. London. 1839.

MENGIN, FELIX, *Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed-Aly, ou* Récit des Evenements Politiques et Militaires qui ont eu lieu depuis le Départ des Français jusqu'en 1823. 2 vols. Paris, 1823.

—, *Histoire Sommaire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed-Aly*, ou Récit des principaux événements qui ont eu lieu de l'an 1823 à l'an 1838. Paris, 1839.

METTERNICH, PRINCE CLEMENS, *Aus Metternich's nachgelassenen papieren, herausgegeben von dem Sohne des Staatskanzlers Fursten Richard Metternich-Winneburg*. 8 vols. Vienna, 1880-1884.

MICHAUD, JOSEPH FRANÇOIS et J. POUJOULAT, *Correspondance d'Orient*. 7 vols. Paris, 1833-1835.

MICHAUD, LOUIS-GABRIEL, *Mahmoud II. Biographie Universelle*, Vol. 72, 340-352.

MOLTKE, HELMUTH VON, *Briefe über zustande und begebenheiten in der Turkei aus dem Jahren* 1835 *bis* 1839. Berlin, 1841.

MONRO, VERE, *Summer Rambles in Syria with a Tartar Trip from Aleppo to Istamboul*. 2 vols. London, 1835.

MOURIEZ, PAUL, *Histoire de Méhémet-Ali, Vice Roi d'Egypte*, 4 vols. Paris 1858.

MURAWIEFF, A.N., *Reise nach d. heil. Statten in Jahre* 1830. 2 vols. St. Petersburg, 1832.

—, *Cultur — Statistik von Damaskus*. Fleisher, Schriften, III, 306-340.

NAPIER, COMMODORE SIR CHARLES, *The War in Syria*. 2 vols. London. 1842.

NAPIER, LIEUT. COLONEL E., *Reminiscences of Syria and the Holy Land*. 2 vols. London, 1847.

NAPIER, MAJOR-GENERAL ELERS, *The life and correspondance of Admiral Sir Charles Napier*. 2 vols. London, 1862.

NESSELRODE, COMTE CHARLES DE, *Lettres et papiers du Chancellier Comte de Nesselrode*, 1760-1856. 11 vols. Paris, 1904-1912. Consult Vols. 7-8.

NOROW, ABRAHAM S., *Reise nach d. heil. Lande im Jahre* 1835. 2 vols. St. Petersbutg, 1835.

OLBERG, E. VON, *Geschichte des Krieges zwischin Mehemed-Ali und der Ottomanischen Pforte in Syrien und Kleinasien in den Jahren* 1831-1833. Berlin, 1837.

P. et H., *L'Egypte sous la domination de Mehemet Aly*. Paris, 1846.

PALLME, JOSEPH, *Meine Reisen durch, Sicilien, Aegypten, Syrien und Palestina*. Prague 1840.

PALMERSTON, LORD, *Letter of addressed to Sir John Cam Hobhouse on the Turko-Egyptian Affair*. British Museum Ms. 36471; f. 211.

PAXTON, J.D., *Letters from Palestine, written during a residence there in the years* 1836, 1837, *and* 1838. London, 1839.

PATON, A.A., *The Modern Syrians, or native society in Damascus, Aleppo, and the Mountains of the Druzes, from notes made in those parts during the Years* 1841, 1842, 1843. London, 1844.

—, *A History of the Egyptian Revolution, from the period of the Mamelukes to the death of Mohammed Ali, from Arab and European Memoirs, oral tradition, and Local Research*. 2 vols. London, 1870.

PERRIER, FERDINAND, *La Syrie sous le Gouvernement de Méhémet-Ali jusqu'en* 1840. Paris, 1842.

POUJOULAT, BAPTISTIN, *Voyage dans l'Asie Mineure, en Mésopotamie, à Palmyre, en Syrie, en Palestine et en Egypte, faisant suite à la Correspondance d'Orient*. 2 vols. Paris, 1840.

PRADT, DOM, DE, *Du systeme permanent de l'Europe à l'égard de la Russie et des Affaires d'Orient*. Paris, 1827.

PROKESCH-OSTEN, COUNT ANTON, *Erinnerungen aus Aegypten und Klein-Asien*, 3 vols. Wien. 1829-1831.

—, *Mehemed-Ali Vize-König von Aegypten. Aus Meinem Tagebuche*, 1826-1841. Wien, 1877.

—, *Aus den Tagebuchern des Grafen Prokesh von Osten*, 1830-1834. Wien, 1909.

PUCKLER-MUSKAU, HERANN VON, *Aus Mehemed-Ali's Reich*., Stuttgart, 1844.

R.M., *Réflexions sur la Question du Liban*. Paris, 1847.

RABBATH, LE PÈRE ANTOINE, *Documents Inédits pour servir à l'Histoire du Christianisme en Orient*, 2 vols. Beirut, 1910.

REID, JOHN, *Turkey and the Turks: being the Present State of the Ottoman Empire*. London., 1840.

REID, STUART J., *Life and Letters of the First Earl of Durham*, 1792-1840. 2 vols. London., 1906

RISK ALLAH, HABEEB EFFENDI, *The Thistle and the Cedar of Lebanon*, 2 nd ed. London, 1854.

ROBINSON, EDWARD and ELI SMITH, *Biblical Researches in Palestine, and in the adjacent regions. A Journal of Travels in the years* 1838. 3d ed. 2 vols. Boston, 1868.

ROBINSON, GEORGE, *Travels in Palestine and Syria*. 2 vols. London, 1837.

ROSS, DAVID, *Opinion of the European Press on the Eastern Question*., London, 1836.

RUSTUM, A.J., *Les Campagnes d'Ibrahim Pacha en Syrie et en Asie Mineure*. 2 fasc. Cairo, 1927-1938.

ST. DENYS, LE BARON JUCHEREAU, *Histoire de l'Empire Ottoman depuis* 1792 *jusqu'en* 1844. 4 vols, Paris, 1844.

ST. JOHN, JAMES AUGUSTUS, *Egypt, and Mohammed Ali, or, Travels in the Valley of the Nile*. 2 vols. London, 1834.

SAINT-MARC, GIRARDIN, *Mehemet Ali. Revue des Deux Mondes*, Sept. 15, 1840.

SAKAKINI, A., *De l'Egypte et de l'intervention europeenne dans les affaires d'Orient.* 2d. Ed. Paris, 1833.

SALLES, EUSÈBE DE, *Pérégrinations en Orient ou voyage pittoresque, historique et politique en Egypte. Nubie, Syrie, Turquie, Grèce pendant les années* 1837, 38, 39, 2 vols. Paris, 1840.

SCHOTT, FRIEDRICH, *Die Orientalische frage und ihre losung aus dem gesichtspunkte der civilization. Leipzig,* 1839.

SCHULZE, *Mahmud II und Mehemed Ali.* Jarbuch-der Geschichte. 1833, II, 97 ff.

STEPHENS, JOHN LLOYD, *Incidents of Travel in the Russian and Turkish Empires,* 2 vols. London, 1839.

—, *Incidents of Travel in Egypt, Arabia, Petra, and the Holy Land,* 11th ed. 2 vols, New York, 1862

THOMSON, W.M., *The Land and the Book; or, Biblical illustrations drawn from the manners and customs, the scenes and scenery of the Holy Land.* London, 1872.

TRANT, CAPT. T.T. ABERCRAMBY, *Narrative of a Journey through Greece in* 1830, *with remarks upon the actual state of the naval and military power of the Ottoman Empire.* London, 1830.

URQUHART, DAVID, *Turkey and its resources: its municipal organisation and free trade; the state and prospects, of English commerce in the East, the new administration of Greece, its revenue and national Possessions.* London, 1833.

—, *Le Sultan et le Pacha d'Egypte,* Paris, 1839.

—, *La Crise, La France devant les Quatre Puissances.* Paris, 1840.

—, *The Lebanon: A History and Diary,* 2 vols. London, 1860.

VAULABELLE, ACHILLE DE, *Histoire Moderne de l'Egypte.* 2 vols. Paris, 1836.

VIDAL, HONORÉ, *Mémoire sur l'Expédition Egyptienne contre Saint-Jean d'Arc et la Syrie.* Bull. Soc. de Géographie, 2d. ser. VI, 10-29. See also Spectator Militaire, XXI, 1836, 629 ff.

WAGHORN, THOMAS, *Egypt as it is in* 1837, London, 1837.

WILKINSON, SIR GARDNER, *Three Letters on the Policy of England towards the Porte and Mohammed Ali,* London, 1840.

—, *Modern Egypt and Thebes: Being a description of Egypt; including the information required for travellers in that country* 2 vols. London, 1843.

YATES, W. H., *The Modern History and Condition of Egypt, its climate, diseases, and capabilities ; exhibited in a personal narrative of travels in that country,* 2 vols. London, 1843.

ZINKEISEN, JOHN WILHELM, *Geschichte des Osmanischen Reichs in Europa.* 7 vols. Gotha, 1840-1863.

II. — OUVRAGES

بركات (داود) : ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

الرافعي (عبد الرحمن) : تاريخ الحركة القومية وتطوّر نظام الحكم في مصر ، ٣ مجلدات ، القاهرة ١٩٢٩—١٩٣٠

رفعت (محمد) : تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٢٠ .

« « : محمد علي والخلافة في المقتطف ، ٦٣ : ٢٥٩—٢٦٣ .

زيدان (جرجي) : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٠٢

مرهنك (مير علي اسماعيل) : حقائق الاخبار عن دول البحار ، القاهرة ١٣١٢—١٣١٤ .

عزّ الدين (سليمان) : ابراهيم باشا في سورية ، بيروت ، ١٩٢٩ .

فريد (محمد) : البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية القاهرة ، ١٣٠٨

كرد علي (محمد) : خطط الشام . دمشق ، ١٩٢٥—١٩٢٨ .

ASHLEY, EVELYN, *The life of Henry John Temple, Viscount Palmerston with selections from his speeches and correspondence*, 2 vols. London, 1876.

BULWER, SIR HENRY LYTTON, *The life of Henry John Temple, Viscount Palmerston: with selections from his diaries and correspondence*, 2 vols. London, 1870.

CARRÉ, JEAN MARIE, *Voyageurs et Ecrivains en Egypte de la fin de la domination turque à l'inauguration du Canal de Suez*, 2 vols. Cairo, 1932.

CATTAUI, JOSEPH-EDMOND, *Histoire des Rapports de l'Egypte avec la Sublime Porte* (*du XVIIIe siècle à* 1841), Paris, 1919.

DODWELL, HENRY, *The Founder of Modern Egypt. A study of Mohammad Ali*, Cambridge 1931.

DRIAULT, EDOUARD, *Précis de l'Histoire d'Egypte.* (*Mohamed-Aly et Ibrahim*), 3d. vol. Cairo, 1933.

GORIANOW, SERJI, *Le Bosphore et les Dardanelles*, Paris, 1910.

GUICHEN, VICOMTE DE, *La Crise d'Orient* de 1839 *à* 1841, *et l'Europe.*, Paris, 1921.

HALL, MAJOR JOHN, *England and the Orleans Monarchy.* New York, 1912.

HASENCLEVER, ADOLF, *Die Orientalische Frage in den Jahren* 1838-1841, Leipzig, 1914.

HOSKINS, HALFORD LANCASTER, *British Routes to India.* New York, 1928.

JORGA, N., *Geschichte des Osmanischen Reiches.* 5 vols. Gotha, 1909.

JOUPLAIN, M., (Bulus Nujaym), *La Question du Liban.* Étude d'histoire diplomatique et de droit international, Paris, 1908.

KUNTZE, HEINRICH, *Die Dardanellenfrage.* Ein Volkerrechtliche Studie. Rostok, 1909.

LAMMENS, HENRI, *La Syrie, precis historique*, 2 vols. Beirut, 1921.

MISCHEF, P.H., *La Mer Noire et les Détroits de Constantinople*, Paris, 1899.

MOURAVIEFF,...., *Les Russes sur le Bosphore en* 1833. Moscou, 1869.

MURRAY, C.A., *A Short Memoir of Mohammed Ali.* (London), 1898.

PHILIPS, WALTER ALISON, *Mehemet Ali*, Cambrigde Modern History, Vol. X, 545-572.

PURYEAR, VERNON JOHN, *England, Russia, and the Straits Question*, 1844-1856, Berkeley, 1931.

RODKEY, FREDERICK STANLEY, *The Turco-Egyptian Question in the Relations of England, France and Russia*, 1832-1841, Urbana, 1924.

ROSEN, GEORGE, *Geschichte der Turkei von dem siege der reform in Jahre* 1826 *bis zum Pariser Tractat vom Jahre* 1856, 2 vols., Leipzig, 1866-1867.

RUSTUM, ASAD JIBRAIL, *The Struggle of Mehemet Ali Pasha with Sultan Mahmud II and some of its geographical aspects*. Notes Prepared for the International Geographical Congress of Cairo, Beirut, 1926.

—, *Notes on Akka and its Defences under Ibrahim Pasha*. Beirut, 1926.

—, *The Origins of the Egyptian Expedition to Syria*, Beyrouth, 1936.

—, *The Disturbances in Palestine in* 1834, Beyrouth, 1938.

SABRY, MOHAMMED, *L'Empire Egyptien sous Mohamed-Ali et la Question d'Orient*, 1811-1849, *Egypte, Arabie, Soudan, Morée, Crète, Syrie, Palestine.* Histoire diplomatique d'après des sources privées et des documents inédits recueillis aux archives du Caire, de Paris, de Londres et de Vienne. Paris, 1930.

SANDERS, LLOYD CHARLES, *Life of Viscount Palmerston*, Philadelphia, 1888.

TEMPERLEY, HAROLD, *England and the Near East, the Crimea*, London, 1936.

THUREAU-DANGIN, PAUL, *Une crise de politique extérieure. Correspondant*, Sept. 25 Feb. 10, 1886-1887.

—, *Histoire de la Monarchie de Juillet*, 7 vols. Paris, 1888-1892.

VINGTINIER, AIMÉ, *Soliman-Pacha (Colonel Sève), Généralissime des Armées Egyptiennes ou Histoire des Guerres de l'Egypte de* 1820 *à* 1860. Paris, 1886.

الفهرس العام

مضامين الكتاب

انجزت المطبعة الكاثوليكية في بيروت
طبع هذا الكتاب في الحادي والثلاثين
من شهر كانون الاول سنة ١٩٦٦